القائمة الطويلة لجائزة بوكر العربية ٢٠١٩

كفى الزعبي

رواية

مكتبة ٣٥٠

شمس بيضاء باردة

دار الآداب

مكتبة | 350

شمس بيضاء باردة

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

شمس بيضاء باردة

كفى الزعبي / كاتبة أردنيّة

الطبعة الأولى عام 2018
ISBN 978-9953-556-7

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

مكتبة أحمد ١٩ ٢٠١٩

/Dar.Al.Adaab

@DarAlAdab

daraladab.com

كفى الزعبي

شمس بيضاء باردة

مكتبة | 350

رواية

دار الآداب - بيروت

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

مكتبة أحمد
telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya
تابعونا على فيسبوك
جديد الكتب والروايات

اللهم أنزل على قبرها الضياء والنور
والفسحة والسرور
اللهم اقبلها في عبادك الصالحين
واجعلها من ورثة جنة النعيم

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

النَّهار الأوَّل

اللَّعنة تعرف طريقها إليَّ. عبرتْ هذه الفكرة رأسي وأنا أصغي إلى المرأة، وعيناكِ تحدِّقان فيَّ، وأنا أحدِّق في العدم. اقتربت المرأة منِّي وأنا أغلق باب غرفتي التي استأجرتُها، وانتقلتُ إليها للتوّ، وسألتني: «هل أنت مستأجر جديد لهذه الغرفة؟»، أجبتها: «نعم»، فأخبرتني بأنَّها جارتي، وتقيم بالمنزل المجاور. وراحت بعد ذلك تحدِّثني عن رجل عجوز كان يقيم بهذه الغرفة قبلي. قالت إنَّه مات فيها قبل شهر، ولولا الرَّائحةُ الكريهة التي انبعثتْ منها بعد أيَّام من وفاته، لما علم بأمر موته أحدٌ.

اكتسحتْ كلماتها الفراغ، وهشَّمتْ فيه آثار ضوء ذابل. ضوء كان يتمدَّد على جدران البيوت، وفي الطريق، وفي الهواء، وعلى الأفكار، فعاد ذلك كلّه إلى استكانته ـ كما كان دومًا مستكينًا ـ في شحوب يأسٍ أليف؛ يأسٍ له رائحةُ الموت والعفن.

توقَّفت المرأة عن الكلام وبقيت أنا صامتًا، وبقي العالم غارقًا في شحوبه، مثل وجه عجوز لم تفارقه ذكرى وحيدة من ذكريات الألم؛ مثل وجهي أنا. تحوم فراشة صغيرة حولي، وعيناكِ تحدِّقان فيَّ وأنا أحدِّق في

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

العدم. التفتُّ إلى المرأة وسألتها: «من هو هذا العجوز، ولماذا لم يسأل عنه أحد حينما مات؟» فقالت إنَّه كان عجوزًا بائسًا جدًّا ووحيدًا، وحيدًا تمامًا، وكان يعمل بائعًا لأوراق اليانصيب في وسط البلد. فهززت رأسي متفهِّمًا، ثمَّ نظرت إلى الطَّريق ومسافاته الفارغةَ الممتدة، وخطر في بالي أنَّه يجب عليّ أن أمضي. دومًا يخطر في بالي أن أمضي. إلى أين؟ لا أدري. لكنَّ المرأة استوقفتني وراحت تحقِّق معي: مَن أنت؟ وما اسمك؟ وماذا تعمل؟ ومن أين جئت؟ ولماذا ستقيم بهذه الغرفة البائسة؟

ثمَّ برَّرتْ أسئلتها قائلة: «أنت شاب، ويهمُّنا في هذه الحارة أن نعرف شيئًا عن الغرباء، ولاسيَّما الشبَّان منهم، الذين يسكنون فيها معنا. أتمنَّى أن تفهمني على نحو صحيح، فلا تزعجك أسئلتي».

غرباء! تمتثل في ذهني، كمرادف لهذه المفردة، مفردةٌ أخرى: الغياب. الغرباء هم أولئك الذين ينتمون إلى «هناك ما»، وليس إلى «هنا». وهذا الـ «هناك ما» غائب، وهذا الـ «هنا» حاضر، وفي حضوره نحن غرباء. وهؤلاء الغرباء كلُّهم أنا، والغيابُ كلُّه أنتِ.

قلت للمرأة إن اسمي «راعي»، وأعمل مدرِّسا في مدرسة حكومية قريبة من هنا، ولهذا أنا مضطرّ إلى الإقامة بعمّان، فأنا من قرية بعيدة في الجنوب، ويصعب عليّ السفر إليها يوميًا، وظروفي لا تسمح لي باستئجار مكان آخر. خمسون دينارًا هي أقصى ما يمكنني دفعه. أجبتها ببرود عن كلّ الأسئلة التي طرحتها، فأنا في العادة لا أُحرَج من الإجابة عن أيّ سؤال، إذا كانت لهذا السُّؤال إجابة. ثمَّ أشحت بوجهي عنها وحدَّقت في الفراغ. لم أفكِّر في شيء، فقد خيَّم على روحي صمت غريب. تحوم الفراشة الصغيرة حولي، وعيناك تحدِّقان فيَّ وأنا أحدِّق في العدم. لكنَّ معدتي راحت تُصدر قرقعةً عالية، فنظرت إلى المرأة، وقلت، مبرِّرًا، إنَّني لم أتناول الطعام منذ

الأمس. ثمَّ استأذنتها ومضيت في طريقي. كنت أشعر بجوع شديد، بيد أنّني فقدت أيّ رغبة في الأكل.

هل طرحتْ عليّ المرأةُ كلَّ تلك الأسئلة كي تطمئنّ إلى وجود أناس سيسألون عني في حال متُّ وحيدًا في هذه الغرفة؟

تُرعبني هذه الفكرة، مع أنّني لطالما فكّرت في الموت والانتحار، حتّى إنّني في نهار الأمس كنت أتخيَّل جنازتي ونعشيَ المحمولَ على الأكتاف، والخارجَ من بيت أبي بعد أن أنتحر انتحارًا مسرحيًّا أمام الجميع. لقد شرد ذهني طويلًا في مشهد أبي السائر خلف النعش، بوجه مكسور يمزّقه النَّدم. تخيَّلت وجهها أيضًا، بل كلّ الوجوه كانت مثل وجهها ووجه أبي: مهزومةً يمزّقها النَّدم، وكان ذلك مصدرًا لنشوة بالغة هزّت كياني؛ نشوةِ الانتصار، إلى درجة أنّه خطر لي أنه بعد هذا العرض لا بدّ لي - أنا الميّت - من الاحتفال باحتساء كأس من الخمرة، كأنّه ليس مشهد النهاية، بل مشهد لبداية أخرى، يدرك فيها العالم الخطايا التي ارتكبها بحقّي، ويبكي أسفًا، ثمَّ يغمرني بالحياة.

إنّه حلم يقظة مراهق مضحك، حقّقت فيه انتقامًا مدويًّا بموتٍ استعراضيّ. أمّا فكرة الموت الحقيقيّ، وتحديدًا الموتَ وحيدًا في غرفة بلا نافذة، حيث يختنق المرء بعذاباته وخيباته حتّى النَّفَس الأخير، من دون أن يسمع أنينَه أحدٌ، أو يأبه أحد لهذا الأنين إن تناهى إلى سمعه مصادفة، فتجعلني الآن أشعر برعب فظيع.

السَّاعة الرَّابعة بعد الظهر. اتَّجهتُ إلى وسط البلد، واشتريت سندويش فلافل والتهمته ببطء وبلا شهيَّة. وعلى الرَّغم من الهبوب البارد للرِّياح الشرقيَّة الجافَّة التي كانت تلفحني، فإنّني بقيت أتسكَّع في الشّوارع على غير هدى. لم يمضِ من الزّمن سوى ساعة، ساعة فقط. وهذا يعني أنّني

مكتبة أحمد
telegram @ktabpdf

كنت أمشي بخطوات سريعة. لا أعرف كيف يجيد الناس المشي ببطء، وكيف يمضي الزّمن لديهم بسرعة. أمّا أنا، فأمشي بسرعة والزّمن يمضي ببطء. دومًا، كان يزعجني المرور البطيء للزّمن، لأنّني دومًا في حالة انتظار حدث ما، لا يحدث. لكنّ الزّمن في الوقت ذاته يمضي بسرعة من عمري، إلى درجة بتُّ أخشى فيها أن ينفد. هذه إشكاليّة لا أعرف كيف أحلُّها.

توقّفت للمرّة الثانية وتفقّدت هاتفي الخلويّ. كنت أعرف أنّه سيرنّ وسأسمعه في حال اتّصل بي أحد ما ، لكنّني تفقّدته من قبيل التأكُّد. لم يتّصل بي أحد. هي تحديدًا لم تتّصل.

وعلى أمل أن يمضي زمن آخر، سلكت طريقًا أطول من الطريق المختصرة إلى الغرفة. على الرّصيف الآخر من الشّارع الممتدّ ما بين الدوّار الثاني والدوّار الأوّل، تقوم مكتبة شومان، بأدراجها العريضة والشرفة الممتدّة أمامها. لم أمرّ من هذا الشّارع، ولم أدخل هذه المكتبة منذ ستّة أشهر. آخر مرّة دخلتها كانت من أجل البحث عنها. تمعّنت في كلّ الوجوه، وجلتُ طويلًا بنظري في المكان. ومع أنّني كنت أدرك أنّني لن أجدها ثانية فيه، فإن وقع الخيبة كان هائلًا.

من أين يأتي هذا الوهم بأنّ المكان الذي وقعتْ فيه المصادفة، سيظلّ ينتج هذه المصادفة ذاتها، وما علينا سوى العودة إليه؟

❖❖❖

رأيتها وتعرّفت إليها في هذا المكان. كان ذلك في العام الماضي في أوائل شهر أيلول، أيْ قبل عام وشهرين. عام وشهران؟ يا للعنة. لا أعرف كيف مرّ هذا الزّمن بسرعة، من عمري، في الوقت الذي كنت أستجدي فيه كلّ دقيقة كي تمرّ، لأنّها كانت تزحف على جسدي وروحي مثل عقرب تنهشني في كلّ خطوة.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

كنت أجيء إلى هنا، في أحيان قليلة، من أجل كتابة بعض الأبحاث لطلّاب الدِّراسات العليا، والتي أتقاضى عليها مبالغ تافهة، وأقوم بذلك في أغلب الأحيان من أجل القراءة. أتَّجه بعد انتهاء العمل سيرًا على قدميَّ إلى وسط البلد. أتناول غدائي في مطعم رخيص، ثمَّ أمضي قاصدًا المكتبةَ في جبل عمّان. في القراءة كنت أجد ضالَّتي، وألبّي رغبتي في النجاة من وعي متشائم للعالم، لا ينفكُّ ينخرني كسُوسةٍ دؤوبة.

لا أدري إن كان هذا التشاؤم فطريًا، أم أنَّه ناتج من المأساويَّة التي طالما واجهتني بها الحياة، أم من هذا الهراء البشريّ الذي أعيش في لجُّته؟

وذات يوم، وبمصادفة محض، رأيتها تجلس قبالتي.

توقَّفت عند فقرة في الكتاب الذي أقرأه[1] قبل أن أنتبه لوجودها، وأعدت قراءتها مرَّتين: «هناك ميل دائم إلى النوم والارتماء في حضن الخرافات التي تهدِّد العقل، يزكّيها القرار الدائم بالإبقاء على الأعين مفتوحةً على الحقيقيّ: «نوع من الكسل يستدرجني من دون هوادة إلى ركوب قطار الحياة العاديَّة، وكما يستمتع العبد في أحلامه بحريَّة متخيَّلة، ويخشى الاستيقاظ عندما يستشعر وهم الحريَّة، كذلك أتخوَّف من الاستيقاظ من هذه الغفوة»..... ثمَّ: فالشكّ المنهجيّ مودع داخل تلك الإرادة الخاصَّة بالصحو، والتي تعدّ في كلّ لحظة انتزاعًا إراديًا من إغراءات الجنون».

انتزاع إراديّ من إغراءات الجنون! إنَّ ذلك بالتَّحديد هو ما أفعله أنا في كلّ لحظة. لحظات تخامرها فعلًا ميول إلى النوم، وأيضًا الارتماءُ في حضن الخرافات، ورغباتٌ في الكسل والنسيان، وركوبُ قطار الحياة العاديَّة.

سرح فكري، وأشحتُ بنظري عن الكتاب، وحدَّقت في الفراغ: لعلَّ هؤلاء المجانين المرتمين في أحضان الخرافات، والمستسلمين بكسل

(١) فوكو، «تاريخ الجنون».

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

لقطار الحياة العادِّيَّة، سعداءُ حقًّا. لماذا لا أستطيع أن أكون مثلهم؟ لماذا اختلفتُ عنهم؟ ما هي الجرثومة التي أصابتني ومزَّقتني وقذفت بي خارج هذا القطار؟

ثمّ لاحتْ في مخيِّلتي صورةُ أبي، يقف قبالتي على المصطبة حاجبًا الشمسَ عنِّي، وصارخًا في وجهي:

ـ لستُ أدري ما الذي ينقصك؟ لماذا لا تشبه الآخرين، ولماذا لا تكون كسائر خلق اللّـه الطبيعيِّين؟ لقد درستَ في الجامعة وتخرَّجت، بل إنَّ انتظارك للوظيفة لم يطل إلَّا عامين. الآخرون ينتظرون أعوامًا. وها أنت منذ سنوات تعمل مدرِّسًا وتتقاضى راتبًا شهريًّا. لو أنَّك عاطل عن العمل لفهمنا. لكنَّك تعمل. ما الذي ينقصك؟

ثمّ يصرخ بصوت أعلى: قل لي ما الذي ينقصك؟

وتتدخَّل أمِّي التي تجلس إلى جانبي:

ـ بالفعل يا ولدي، لماذا لا تصلح حياتك بدلًا من أن تضيِّعها هكذا بلا سبب؟ لماذا لا تفكِّر في العيش كسائر الناس الذين يعيشون مستورين ومطمئنِّي البال؟ اسمعني: في وسعك أن تحصل على قرض من البنك، وتبني بيتًا صغيرًا على مهلك هنا في جوار بيت أبيك. ثمّ نزوِّجك من ابنة حلال، مؤدَّبة ومحترمة، تخدمك وتنجب لك الأطفال الذين يسعدونك!

ويتدخَّل أبي مقاطعًا أمِّي: «لماذا أنت لست كذلك؟ لماذا أنت مُبْلِم، لا تجيب؟ لماذا تبذِّر نقودك على الكتب؟ سأحرقها. أقسم باللّـه العظيم سأحرقها! سأحرق كلّ هذه الكتب التي جعلتك ملحدًا وزنديقًا وفاشلًا، تعاقر الخمرة. تبذِّر عليها وعلى الخمرة نقودَك بدلًا من أن توفِّرها وتبني حياة صحيحة، وتصبح إنسانًا طبيعيًّا كسائر خلق اللّـه الطبيعيِّين».

ليس في وسعي أن أكون! أفكِّر صامتًا، لكنَّني لا أجيب أبي. منذ زمن طويل كففتُ عن النقاش معه، هو الذي أفزعتْه، ولا تزال تفزعه رؤيتي أترجَّل من قطار حياة الجميع العاديَّة، على مرأى ومسمع منهم، وأقف على هامش الطريق، مثلَ أيِّ غريب أحمق وفاشل يشرب الخمرة، ويقرأ كتبًا محرَّمة، ويحصل على قروض بنكيَّة، لكن لا ليبني غرفتين إلى جانب بيت أبيه ويتزوَّج فيهما من ابنة حلال متديِّنة، ويعيش مهمومًا فقط بسداد القروض البنكيَّة، ويعاني مشاكل يوميَّة قابلة للحلّ، بل كي يسدِّد ديونًا استدانها ليبذِّرها في الهواء.

يُريعه ذلك بالقدر ذاته الذي تريعني فيه رؤيتُه، ورؤيتهم جميعًا يغفون في هذا القطار مستمرئين الكسلَ، «وكما يستمتع العبد في أحلامه بحرِّيَّة متخيَّلة، ويخشى الاستيقاظ عندما يستشعر وهمَ الحرِّيَّة، كذلك يتخوَّفون من الاستيقاظ من هذه الغفوة».

لا أجيب أبي وأبقى صامتًا. ولا ألبث أن أفيق من شرودي على صرخته: «انقلع من بيتي. لا أريد رؤيتك فيه».

أفقت من شرودي كأنَّني سمعت هذه الصَّرخة للتوّ. أشحت بوجهي عن الفراغ ونظرت أمامي، وحين ذاك رأيتها: تجلس قبالتي على بعد طاولتين من طاولتي، وتنظر إليّ بعينين متفحّصتين باهتمام وفضول شديدين. وما إن التقت عيناي عينيها حتَّى حرفت نظرها عنِّي بارتباك، ووجَّهَتْه نحو الكتاب المفتوح أمامها. خفق قلبي على الفور، لكنَّني لم أفهم لماذا كانت تحدِّق فيَّ بتلك النَّظرة العميقة الفضوليَّة. أتعبيرًا عن أيّ سؤال جال في سرِّها؟ هل يمكن لنظرة متفحّصة يُلقيها شخص ما على آخر أن تكون محايدة تمامًا وتخلو من أيِّ فكرة؟ ربَّما ليس ثمَّة سؤال. ربَّما شبَّهتْني بشخص تعرفه. هذا كلّ ما في الأمر. ولكم أشعرتني هذه النتيجة التي وصلت إليها سريعًا، بالخيبة والخذلان. كم يتشبَّث قلبي بنظرة من عينين جميلتين، وكم يطيب له تأويلُها ومنحُها دلالات تحيي فيه الأحلام.

كانت تجلس إلى الطاولة الأخيرة وخلفها جدارٌ. بدت لي، وأنا أتأمّلها، كلوحة: امرأةً شابة بشعر أسود طويل وناعم، يتموَّج على كتفيها، وقد انسابت منه خصلة على وجهها وحجبت الجانب الأيسر منه. بقي نظري عالقًا بها إلى أن رفعت رأسها عن الكتاب وردَّت خصلة الشعر خلف أذنها، وجالت ببصرها في القاعة. لعلَّها شعرت بي، فقد كنت مستغرقًا بلا حرج في تأمّلها. استرقتْ نظرة أخرى إليّ؛ نظرةً مليئة بالريبة.

نهضتْ بعد ذلك. كانت طويلة وممشوقة. أحبّ السمراوات الطويلات! كانت ترتدي بنطالًا أسود وفوقه قميص أخضر بكمَّين طويلين. نسيت نفسي وأنا أنظر إليها، فقد كان تأمّلها رائعًا. أخرجت من حقيبتها سخّانًا صغيرًا له شكل الكوب، وأخذت حقيبتها مُبقيةً أوراقَها ودفاترها على الطاولة، ومشت.

لا بدّ من أنّها شعرت بعينيَّ الشَّاخصتين إليها، لكن ذلك لم يربك أيَّ حركة من حركاتها، بل إنَّها لم تكلِّف نفسها حتى إلقاء نظرة أخرى عليّ. كأنَّني لست، ولم أعد موجودًا على الإطلاق. بدا لي أنّ هذا التَّجاهل المحكم ينمّ عن رغبة في إخفاء اهتمام ما، وإلَّا فلماذا كانت تحدِّق فيَّ بتلك النَّظرة الطَّويلة المتفحِّصة؟ ربَّما كانت شاردة الذِّهن، وتوقَّفت عيناها عليَّ بصدفةٍ محضٍ؟

في كلّ الأحوال، كان تجاهلها يروق لي كثيرًا، فقد وفَّر لي فرصة مراقبتها براحة وبلا انقطاع. كان كعب حذائها يُصدر طقطقةً خفيفة. أبطأت الخطى وباتت مشيتها أكثر حذرًا كي لا تزعج روَّاد المكتبة، وعلى الرَّغم من محاولاتها، فإنَّ كعب حذائها استمرَّ يعزف لحنًا صبيانيًّا خافتًا، مزعزعًا ركودَ الصَّمت الكئيب في المكان. رأيتها تبتسم وهي تضع يدها على فمها وتنظر بعينين ضاحكتين في اتِّجاه روَّاد المكتبة، لاستطلاع آثار جريمتها عليهم. وجهها ساحر الجمال تشعّ فيه عينان سوداوان صافيتان وضاحكتان، كعينَي طفل، لا يزال يثق بالعالم، ولم يختبر معنى التعاسة بعد.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

أحسست بوخزة في صدري، وقلت في نفسي: إنَّها ليست جميلة فحسب، بل هي سعيدة أيضًا. الجمال يؤلمني، يجرحني، يعذِّبني، والسَّعادة أيضًا.

رأيتها تتوقَّف عند باب المكتبة تتبادل حديثًا مع البوَّاب، وتبتسم وتضحك. ثمَّ خرجتْ إلى الشَّارع، فأسرعتُ في إثرها. وقفتْ عند الباب تشرب الشاي، أو القهوة ـ لا أدري ـ من السخَّان، وتدخِّن، ووقفتُ على بعد مسافة منها أدخِّن. ثمَّ عادت إلى المكتبة تقرأ، وبعد نحو ساعة ذهبت.

اكتسحني فجأة خوفٌ رهيب، وبينما كنت أنظر في إثرها، انفجرت في داخلي قناعةٌ مبهمة الأصول: إنَّ من حدَّق فيَّ هي الحياة ذاتها التي لطالما انتظرتها؛ الحياةُ الجميلة، السَّعيدة والضاحكة. وإنَّ هذه التي تبتعد وتغيب، هي تلك الحياةُ، وإذا لم تعد وأمسك بها، فسأضيِّعها. سأضيِّع الحياة، إلى الأبد.

مشيت طويلًا في الشَّارع وحدي في مساء ذلك اليوم. كنت أنظر إلى السَّماء وإلى نجومها البعيدة. أذهلني كم هي بعيدة. هل كانت قريبة من قبل؟ هل كانت قريبة في يوم من الأيَّام؟ دومًا كانت السَّماء بعيدة والنجوم بعيدة... «مثلك تمامًا».

اللَّعنة تعرف طريقها إليّ، أمَّا أنا، فلا أعرف طريقي إلى هذا العالم. أشعر بالعطش؛ عطش غريب. أشرب، لكنَّني أظلّ عَطِشًا. يَلُوح في ذهني مشهدُ جثَّة متعفِّنة ووجه مشوَّه من الألم، وغرفة بلا نافذة؛ الغرفة التي استأجرتها للتوّ.

❖❖❖

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

اللَّيلة الأولى

أغلقت الباب وجلت في الغرفة. لا توجد نافذة. جدران صمّاء رماديَّة شاحبة تنثال منها البرودة والرُّطوبة مثلما ينثال الصَّمت من الفراغ.

توجد فقط طاقة صغيرة في الحمّام، وهو مساحة صغيرة مقتطَعة من الغرفة، مقسومةٌ قسمين. القسم الدَّاخليّ مرحاض له باب وفي جداره طاقة صغيرة عالية، أمَّا القسم الخارجيّ فقد عدَّه مالك الغرفة مطبخًا، ففيه مغسلة وإلى جانبها غاز قديم جدًّا بعين واحدة تتراكم حولها الأوساخ، وفوقه على رفٍّ بعضُ الأواني المعدنيَّة العتيقة. وتحت المغسلة على الأرض دلوُ ماء.

هي أشياء العجوز إذن. مخلَّفاته التي لم يرثها أحد، وها أنا القاطن الجديد في هذه الغرفة أرثها. لكن من يدري، فقد يكون العجوز ذاته ورثها عن شخص قبله عاش هنا ثمَّ اختنق ومات.

تُذكِّرني هذه الغرفة بغرفتي الأولى في القرية في بيت أبي. لم يكن لها باب داخليّ يُفتَح على غرفة أخرى، أو ممرّ يفصل الغرف. كان بابها خارجيًّا كباب هذه الغرفة، لكنَّه لا يُفتح على شارع ضيّق تتراصُّ على

رصيفه المقابل البيوتُ الفقيرة، بل يُشرَّع على ساحة غدت بستانًا بعد أن زرعتها أمّي بالأشجار، وعلى شارع وسماء ونجوم وغيوم وشمس. كأنَّني أنا ذاتي أُشرَّع على الحياة كلَّما فتحته.

كانت تلك الغرفة تنتمي ولا تنتمي، في الآن ذاته، إلى بيت أبي، مثلي تمامًا.

كنت في السَّادسة عشرة من عمري حينما آلت إليّ. بدت لي صومعة رائعة للعزلة، وركنًا محميًّا لوحدة لطالما حلمت بها. إنَّ فكرة امتلاك غرفة خاصَّة بي، جعلتني وقتذاك أشعر بقشعريرة فرح مراهق، كما لو أنَّني امتلكت حرِّيَّتي خلف باب أغلقه وأفتحه بمشيئتي. أجلس في آخر اللَّيل على عتبة بابها المرتفعة درجتين عن الأرض، أنظر عبر الأشجار إلى هياكل التلال البعيدة المغمورة بضوء شاحب يرسله القمر، ويخيَّل إليَّ أنَّني أجلس على عتبة الحياة ذاتها، متوثِّبًا للقفز إليها، مجتازًا تلك التلال، لا يعيقني شيء سوى المرور البطيء للزَّمن.

ثمَّ أدخل وأستلقي على الفرشة المقابلة للباب، أحدّق في البقع التي خلَّفها تساقط الطلاء عن الجدران، راسمًا في فراغاتها خططًا وخرائط لحياتي. وصباحًا، أنظر في المرآة القديمة المعلَّقة على الحائط، فيظهر انعكاس وجهي فيها مغبّشًا ومتشظِّيًا، لكنَّني أراه واضحًا ومبتسمًا بزهوّ نابع من طمأنينة وإيمان صبيانيّ وأحمق بالذَّات.

كنت آنذاك أظنّ أنَّ الحياة ـ حياتي أنا ـ ستمضي في طرق أخرى، لم يطرقها أحد قبلي، وها أنا الآن في غرفة بلا نافذة. ينفتح بابها على شارع ضيِّق قذر تحدّه البيوت البائسة. أهرش وحيدًا شعر رأسي بشدَّة، فقد مضى وقت لم أستحمّ فيه، وتؤلمني البواسير بسبب الجوع المتواصل وأكل الفلافل والإمساك. أهرش وأفكِّر في عدد الأيَّام التي سأصمد فيها هنا قبل أن أرفع رايتي مستسلمًا للاختناق.

ما الذي حدث لي؟ أطرح من جديد السؤالَ ذاته، ويبدو لي من جديد أنَّ المشكلة تكمن في البدايات؛ تحديدًا في أوهام البدايات، وفي تلك الهالة الغيبية المحيطة بها، والتي يصعب تفسير أسبابها، لكنَّها تجعل المرء على يقين تامّ بأنَّ العالم ملك يديه.

يشبه الأمر الدخول في قصَّة حبّ. هل في وسع أحد أن يقنع عاشقًا متيَّمًا اعترفت له معشوقتُه بحبّها بالأمس، بأنَّ اشتعال مشاعره سينطفئ حتمًا ذات يوم قريب أو بعيد، وأنَّه قد يملّ هذه المعشوقةَ، بل قد يكرهها وينفصل عنها وقلبه مليء بالأحقاد؟ هل في وسع أحد أيضًا أن يقنع هذا العاشق ذاته، الذي هو على يقين مطلق بأنَّ لا أحد قبله ولا بعده سيحمل في قلبه المشاعر الفريدة التي يحملها هو الآن، بأنَّ مشاعره ليست مختلفة، وأنَّها ذاتها تحدث في كلّ لحظة، وأنَّ كل العشاق يقعون يوميًا في مصيدة وهم الاختلاف هذا؟ هي أيضًا مسألة في غاية الصعوبة. فسيجادلك العاشق الهيمان، محاولًا بكلّ السُّبل البرهنة على أنَّ عشقه لم يحدث من قبل، وأنَّ هذا العشق أبديّ ولن ينتصر عليه الزمن.

إنَّ بداية حياة الإنسان تشبه الدُّخول في قصّة حبّ؛ تشبه اللَّحظات الأولى من العشق. فلتقنعَ صبيًّا غرًّا يجلس على عتبة باب غرفة وينظر إلى التلال البعيدة متوثِّبًا للقفز عنها ولا يعيقه شيء سوى المرور البطيء للزَّمن، بأنَّ ثمَّة إخفاقات كبيرة في انتظاره، ثمَّ تمرّ وتنتهي ذات يوم بموته! سيضحك منك ولن يحمل هذا الكلام على محمل الجدّ. ليس لأنَّه لا يصدِّق فكرة الفشل أو لا يعترف بالموت، بل لأنَّه لا يصدِّق فشله هو ولا يعترف بموته هو تحديدًا. كثيرون حوله يفشلون ويموتون، وآخرون سيفشلون وسيموتون، أمّا هو فقد وُلد من أجل غايات عظيمة لا يدري ما هي، لكنَّها تبعث فيه إحساسًا خفيًّا بالأبديَّة والزهوّ والفخر بالذَّات، لا لشيء، إنَّما فقط لأنَّه هو. لا أدري من أين يستمدّ المرء هذا الإحساس بالاختلاف والتَّميُّز والتَّفوُّق على الآخرين.

مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf

أنظر إلى نفسي؛ إلى ذلك الصبيّ الغرّ، الجالس على عتبة باب غرفة ينظر إلى التلال البعيدة، كموسيقيّ تتراءى له أغنية تتوارى خلف تلك التلال، يتناهى إليه منها شذراتُ أنغام، لكنَّه سيغنّيها ذات يوم بملء فمه نغمةً نغمة، من دون أن تفقد في لحظة توقُّدَها، أو تشارف في يوم على الانتهاء.

هذا ما كنت أعتقده. غير أنَّ الحياة سارعت، في تلك البدايات ذاتها، إلى تقديم ردّ فوري لي، نسفت به كلّ أوهامي حينما منحت عائشة سرّ اللَّحن كي تغنّي مطلعَه.

❖❖❖

كانت عائشة تأتي برفقة أمّها الأرملة لزيارتنا بين الفينة والأخرى، لكن ليس لصلة القرابة التي تربط أم عائشة بأبي، بل بسبب طيبة أمّي وإشفاقها عليهما. في العادة، حينما تهمّان بالذهاب، كانت تدعوهما، من قبيل المجاملة وحسب، إلى البقاء والمبيت عندنا، فتبقيان. وفي اليوم التّالي وحالما تذهبان، ينفجر أبي في نوبة غضب تصعب النجاة من آثارها. يتوعَّد أمّي صارخًا في وجهها بأنَّه سيقيم الدُّنيا ولن يقعدها إن كرَّرت هذه الغلطة، وضحكت في وجهيهما لمّا تحضران ثانية، أو دعتهما إلى البقاء.

ومع أنَّ هذه المشاكل كانت تردع أمّي، لكنَّها في زياراتهما التَّالية تنسى، على نحو لاإراديّ، وتفلت من لسانها أحيانًا دعوتهما إلى البقاء، فتبقيان. تأتي عائشة مختالة بسلسلة الذَّهب التي اشترتها لها أمّها؛ سلسلة تتدلَّى منها قطعة ذهبيّة دائريَّة، رُسمت عليها كلمة اللّـه. كم كان يسعدها أن ينتبه الناس لهذه السّلسلة، فتمسك على الفور بالقطعة الذهبيَّة الدائريَّة، متباهية بوزنها وبثمنها، بكلماتها البطيئة وضحكتها البلهاء. كانت أمُّها أيضًا ترتدي الأساور التي اشترتها بعد أن ادَّخرت ثمنها طويلًا، من محصول

أرض تملكها. كانت على قناعة بأنّ الذّهب لا يشكّل حصانة ضدّ متاعب قد تخبّئها الأيّام فحسب، وإنّما أيضًا لأنّه كان مصدر إحساس بمقام وقيمة لا يقلّان عن مقام وقيمة كلّ هؤلاء الذين ينظرون إليها وإلى ابنتها باستعلاء، لا تعثر على أيّ مسوّغات له.

كانتا تجلسان على المصطبة، أمام باب المطبخ القريب من باب غرفتي، على الفرشة التي تمدّها لهما أمّي. تجترّ أم عائشة في البداية أحاديث مكرّرة، موضوعها الرئيسيّ الشّكوى من لؤم الناس، فهناك من زوّج ابنه ولم يدعُها هي وابنتها إلى العرس، وثمّة من أقام وليمة ولم يتذكّرهما، وهناك مَن مرّ بالقرب منهما ولم يُلقِ عليهما السّلام. وكان أيّ شخص تلمحه عبر أشجار البستان يمرّ في الشارع، يصبح موضوعًا مثيرًا لحديثها، تستحضر فيه تاريخ حياته.

وحينما تغيب عنهما أمّي، تبقيان صامتتين، تترقّبان بضجر موعد الأذان كي تصلّيا. وإذا حدث شيء ما في غمرة هذا السّأم، كأن تصطاد قطّة، على مرأى منهما، حشرةً، أو حيوانًا زاحفًا، أو تنتبهان لنملة تحمل شيئًا يفوق حجمها، أو ينبح كلب ما فينهض كلبنا ويسير خطوات في اتّجاه صوت النباح، تتعجّبان معًا، ومعًا تهتفان متنهّدتين: سبحان اللّه.

كلّ مظاهر الطبيعة كانت تدخل في حيّز الإعجاز الذي يصعب عليهما تصوُّرُ عظمته، أو استيعابُها. لهذا، كانتا في حالة دهشة متواصلة من كلّ شيء، سواء حدث في الطبيعة، أو بين الناس، فتردّانه إلى قدرات خارقة، تحرّك العالم، وتصنّع علاقاته ومصادفاته العجيبة.

كان ذاك القدر من الغباء والسّذاجة الذي يميّزهما، يجعلني أتساءل عن مغزى وجودهما في هذه الحياة، ويبدو لي أنّ وجودهما وعدمه سيّان. أهما سيّان فعلًا؟

بدأت آنذاك تلك الأسئلة تغلي في داخلي، وتتناسل في رأسي من دون أن أعثر على إجابة مقنعة يقدّمها إليّ أحد ما، أو أقرأها في كتاب ما، أو أتوصَّل إليها بنفسي. وأيًّا تكن الآراء البسيطة بشأن الكون والحياة واللّـه، والتي أجتهد في التوصُّل إليها من دون خلفيَّات معرفيَّة، فقد كنت على يقين بأنّني آخر، ومختلف، وأنَّ وجودي في هذه الحياة وعدمه، ليسا سيّان.

إنَّ التّساؤل عن جدوى وجود إنسان آخر، في الوقت الذي أنت فيه على يقين بجدوى وجودك أنت، يقودني الآن إلى الضحك، إذ إنَّك تفترض أنَّ شرط المعنى والمغزى مرتبط بالذّكاء، كما لو أنّه يخصُّك، من صنعك أنت، فتنصاع بغباء لوهمه ولوهم التفوّق على الآخر. أمَّا الحقيقة فهي ليست كذلك أبدًا. أراها تنظر إليّ بسخرية عميقة تجعلني أشعر الخجل.

في كلّ حال...

بقيت عائشة وأمّها لتبيتا عندنا في زيارتهما الأخيرة لنا. وفي اليوم التّالي، وما إن ذهبتا، حتّى انفجر غضب أبي. «هل كان يجب أن أطردهما يا رجل؟» تساءلت أمّي بنبرة أقرب إلى الرّجاء، فردَّ صارخًا: «أجل! فلست مضطرًا إلى تحمُّل أعباء ضيافتهما وإطعامهما عدَّة أيّام في الشهر».

فردَّت أمّي بصوت منخفض، كأنّما تخاطب نفسها: «إنّهما لا تزوراننا من أجل الطعام، بل بسبب الوحدة».

«فلتذهبا إلى الجحيم. لا أريد رؤيتهما ثانية في بيتي، وإلّا...». وشرد ذهني مع إجابة أمّي، ولاح فيه بيت المرأتين الصّغير الذي يقوم على أطراف القرية؛ على حافَّة هضبة؛ على أطراف الحياة وعلى حافَّة النّسيان. وأدهشني أنَّ لا شيء يستطيع إنقاذ الإنسان من الإحساس بالوحدة، حتّى السَّذاجة والبَلَه.

دوّى في الشّارع بعد أسبوع واحد من هذه الزيارة، زعيقُ فرامل سيَّارة كانت مسرعة، رافقه صوت ارتطام قويّ، ثمَّ تلاه صراخ. استمرّ

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

زعيق الفرامل والارتطام ثواني قليلة، ثمَّ سكن. أمَّا الصُّراخ والصّياح فقد استمرّا. رميت الكتاب من يدي وقفزت راكضًا إلى الشَّارع. كان الناس أيضًا يتوافدون مسرعين، وكنت من الأوائل الذين أُتيح لهم رؤيةُ المشهد: جثَّة امرأة سمينة، بثيابها السَّوداء، ملقاة على بعد مسافة غير قصيرة من السَّيَّارة المتوقِّفة. ويقف السَّائق الشاب مصعوقًا، وقد جفَّت دماء وجهه، وصار أبيض.

كانت الشمس خلفه لجهة الغرب، ترسل ضوءًا أصفر كابيًا، يربّت على كتف التلال البعيدة. وثمَّة كلاب تنبح بصخب، يصاحبها صوت أجراس خافتة، لقطيع أغنام يقترب.

كان السَّائق يصيح ويولول بصوت مرتجف: «لقد ظهرتْ أمامي فجأة. أقسم بأنَّها ظهرتْ أمامي فجأة». لم يكن أحد يصغي إليه. كلُّهم كانوا يسرعون نحو الضحيّة. إنَّها الأرملة أم عائشة. لقد ماتت على الفور. كنت واثقًا بأنَّ سكونها هذا لا ينمّ إلَّا عن الموت، وكان ذلك يبعث في نفسي ذعرًا جسيمًا، كما لو أنَّني في حادث السَّير هذا اصطدمت بالحقيقة المرعبة: إنَّ الحياة فقّاعة وهم، تنفقئ فجأة من دون سابق إنذار.

تفحّصها رجال، من بينهم أبي، وحاولوا إيقاظها، ولم تستجب.

قال بعضهم: لا أمل. لكن آخر صرخ: «من الممكن أن تكون في غيبوبة، وليس في وسع أحد أن يحسم الأمر سوى الطبيب». واتَّفق معه أبي، وقال إنَّه يجب أخذها إلى المستشفى في كلّ الأحوال، سواء فارقت الحياة أو لا، لأنَّ ثمَّة إجراءات يجب القيام بها.

شرع يشرف على عمليَّة حملها ورفعها عن الشَّارع، وإذ ذاك رأيت بقعة الدّماء على الأرض، ورأيت الدّماء أيضًا ترشح من منديلها الذي تمزّق على رأسها. كان أبي يصرخ بتعليماته للذين يرفعونها، من دون أن يشاركهم:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

«أنت احمل من هنا. أنت، شدّ همّتك يا رجل، ما بالك بلا قوى؟». وضعوها في سيّارة الفاعل، وتبرّع أحدهم بقيادتها لأنّ مالكها، وهو من خارج القرية، كان في حالٍ يُرثى لها.

وقفت أنظر إلى المشهد مصدومًا وأصغي إلى الجلبة، وإلى الأصوات العالية التي ترشح قلقًا، وأرى الذُّهول والذُّعر في أعين الجميع. هزّتني صرخة أطلقتها امرأة محذّرة طفلًا ما، من قطع الشارع، كما لو أنّ الموت يقف منتصبًا في وسطه؛ كما لو أنّه يحدّق في الجميع مترصّدًا شخصًا ما آخر، ليختطفه.

ثمّ رأيت عائشة تأتي من بعيد. كانت تركض خلف صبيّ صغير. نظرت إلى النساء اللّواتي تولّين شرح الموضوع لها، بعينين مدهوشتين. كنّ يشرحنه، كما يشرحن لطفل. وحينما فهمتْ أنّ سيّارة دهست أمّها، نظرت حولها باحثة عنها، وسألت بكلمات بطيئة ومذعورة:

- يعني دهستها السّيّارة، ثمّ إلى أين ذهبت؟ أين هي الآن؟ إنّي لا أراها.

- أخذوها بالسّيّارة التي دهستها إلى المستشفى في المدينة القريبة.

- ومتى ستعود من المستشفى؟

- لا نعلم. نتمنّى أن تبقى هناك، وألّا تعود سريعًا!

أجابتها إحدى النّساء، وسألتها عائشة باستغراب:

- لماذا لا تريدينها أن تعود سريعًا؟ أنا أريدها أن تعود بسرعة.

وحارت النّساء كيف يشرحن لها الأمر، لأنّ عائشة كانت على قدر كبير من البَلَه، وينقصها كثير من الذّكاء كي تفهم التلميحات. وتكفّلت إحداهنّ في شرح الأمر لها بوضوح. قالت لها: «نخشى أن تكون أمّك

قد ماتت يا عائشة!». وتوقَّعت أن تنفجر عائشة بالصُّراخ والبكاء، لكنَّها حدَّقت في المرأة بعينين مصعوقتين: «كيف يعني ماتت؟» «يعني ماتت!» قالت المرأة. فسألتها عائشة: «يعني ماتت ولن تعود، لأنَّهم سيدفنونها في الأرض؟». «أجل، ماتت وسيدفنونها في الأرض».

أدركت عائشة فجيعتها، وانفجرت بالصُّراخ والنحيب. وتدخَّلت أمّي بانفعال موجّهة كلامها إلى النساء: «وحّدن اللّـه يا نساء. ربَّما ما زالت المرأة حيَّة. ما بالكنَّ دفنتنَّ المرأة هكذا سريعًا؟». نظرت إليها عائشة وسألتها عبر دموعها: «يعني لم تمت، ولن يدفنوها؟» وأثار سؤالها عواطف النساء فانتحبن بحرقة، ثمَّ قدْنَها واتَّجهن بها إلى بيتها، كي يتدبَّرن أمرها هناك. لمحتني أمّي في غمرة الحدث، وجاءت إليّ، وكانت تشدّ على يدَيْ أخي وأختي الصغيرين، كي لا يفلتا منها، كأنَّ شبح الموت حطّ في القرية على حين غرَّة، ولا يزال يجول في شوارعها. قالت لي: «يجب أن تعود إلى البيت كي تكمل دراستك، فلا تنسَ أنَّ غدًا لديك امتحان. ثمَّ إنَّنا تركنا الأبواب مفتوحة». واستدارت لتلحق بالنِّساء، لكنَّها توقَّفت ورجعت إليّ بسرعة، وحذَّرتني ورجتني ألَّا أقطع الشَّارع إلَّا بعد أن أطمئنّ إلى خلوّه، وأن أحتاط، وأنتبه لنفسي. أدهشني قلق أمّي العميق والصَّادق عليّ، كأنَّ موت الأرملة أم عائشة، المفاجئَ، شرَّع أبواب الخطر على مصاريعها، وبات الجميع في مرمى سهام الموت.

تعجَّبت لماذا يرتعب هؤلاء الناس من الموت، ويحزنون ويتألَّمون بسببه، كلَّ هذا الحزن والألم الفظيعين، ما دام هو ليس النِّهاية؟ وما دامت هناك حياة أخرى، وليس الموت سوى ممرّ إليها؟ لو كانوا على يقين تامّ بذلك، لما عانوا هذا الحزن كلَّه، ولما كان الموت فجيعة. ولودَّعوا الموتى كما يودّعون المسافرين، بألم أقلّ.

عدت إلى البيت. أغلقت مداخله، ثمَّ اتَّجهت إلى غرفتي، وجلست على عتبة بابها أنظر إلى اللّاشيء، وفي ذهني كلمة وحيدة تجثم فيه، على هيئة جثَّة ملقاة على الأرض بلا حراك: الموت.

انتبهت، في لحظة، إلى أنَّني أجلس في العتمة، وأنَّ النهار انقضى، وأنا مستغرق في البحث عن حلّ لمسألة الموت. كان يخيفني أن يطلع النَّهار التَّالي من دون أن أعثر على وسيلة تكفل لي الخلود.

وضحكت... فها قد وصلت إلى هنا، إلى هذه الغرفة التي بلا نافذة، أخاف أن يطلع النهار من دون أن أعثر على ذريعة للأمل، أيِّ أمل.

نهضت وأطفأت الضوء كي أنام، ثمَّ سرت في الظَّلام الدَّامس نحو الفراش، واختبأت فيه. كانت الرِّياح في الخارج تهزّ باب الغرفة بين الحين والآخر، كأنَّها تطرقه، وتتسلَّل من فجواته، وتحوم في عتمة الغرفة، ثمَّ تهوي عليّ، فأرتجف في فراشي الذي حملته معي مرارًا من غرفة إلى أخرى: فرشة رقيقة، وبطَّانية مهترئة، لم تنفع في إنقاذي من البرد.

أصغيت إلى ضوضاء الريح في الخارج، مترقِّبًا ظهورَ خطواتٍ ما فيها، وكلَّما مرّ أناس تتبَّعت خطواتهم إلى أن تغيب وتتلاشى، وتترك في المكان خواءً، يجعلني نهبًا للخوف والغربة.

ثمَّ سمعت طرق خطواتها هي تمشي على الرَّصيف. سكن صفير الرِّيح وطقطقة اهتزاز بابي كأنَّهما مثلي شرعا يتابعان بلهفة اقتراب ذاك النغم الغنائيّ القادم من الحلم. لكنَّني، إذ اقتربت من بابي، اكتشفت أنَّها لم تكن وحيدة. كانت تشبك ذراعها بذراع عائشة، وتسيران كصديقتين قديمتين حميمتين تتحدَّثان بتفاهم عميق. رأيتهما تتوقَّفان أمام بابي، وتتهامسان ثمَّ تبتعدان... وتبتعدان، ويتحوّل في أثناء ذلك، هيكلاهما إلى هيكل واحد، ووجهاهما إلى وجه واحد.

فتحت عينيّ فزعًا من قسوة الفكرة. لا أريد أن أصدِّق أنَّها هي ذاتها عائشة. لن أصدِّق. هذه محض فذلكات أفكاري. أغمضت عينيّ ثانية.

ثمَّ بدأتُ شيئًا فشيئًا أسمع تنهُّدات ألم كأنَّها تنزّ وترشح من جدران الغرفة. وما لبثتُ أن سمعت وقع خطوات يتردَّد في العتمة. خطوات واهنة ترتفع عن الأرض، وتهبط عليها بعناء، كأنَّها تكابد مشقَّة اختراق الهواء والعتمة. ثمَّ سمعت أنينها، وسمعت أنفاسًا ثقيلة وبطيئة تفحّ في الهواء مثل أنفاس إنسان يحتضر. انتشر بعد ذلك في الهواء من حولي صوتُ يدٍ تخلخل مقبض الباب لتفتحه.

تجمَّدت في مكاني، حتَّى إنَّ كلّ أفكاري سكنت وراحت تنصت معي.

إنَّه العجوز الذي مات في هذه الغرفة وتعفَّنتْ جثَّته! كنت على يقين بذلك. كان يحاول فتح الباب ليهرب. وما إن دوَّى هذا اليقين في داخلي، حتَّى رأيت عينيه تحدِّقان فيَّ. عينان مطفَأتان معذَّبتان، ذليلتان، تتوسَّلان الرَّحمة. قفزت من مكاني مرعوبًا، وأشعلت الضوء بيد ترتعش، وجلت بعينيّ في أرجاء الغرفة متفرِّسًا في الفراغ. لم أرَ سوى الفراغ. اختفت عينا العجوز، واختفى صوت خطواته الواهنة، بيد أنَّ أنفاسه ظلَّت تفحّ خافتةً في الهواء، تنزّ من الجدران، كأنفاس إنسان يحتضر.

❖❖❖

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

النَّهار الثَّاني

هتفت صديقتي القديمة، حالما وصلت إلى الحانة، ورأتني أقف عند بابها:

ـ ها قد ظهرت أخيرًا أيُّها البدويّ. أين غبت؟

لكنَّها لم تنتظر إجابتي، فقد راعها منظري، فأردفت تسألني بدهشة: يا إلهي! ما الذي حدث لك؟ لماذا أنت في هذه الحال المزرية؟

لم أكن في الصّباح قد مشّطت شعري، وكان طويلًا لم أقصّه منذ أشهر، ولحيتي طويلة أيضًا، وكنت لا أزال أرتدي ملابس الأيَّام السَّابقة التي نمتُ فيها بالأمس، وكانت قذرة ومستهلكة. أجبتها:

ـ وضعي سيّئ للغاية.

ـ هذا ليس غريبًا، فدومًا وضعك سيِّئ للغاية، لكنَّك اليوم فعلًا تبدو أشدّ سوءًا من أيّ وقت مضى. تبدو رثًّا كمتسوِّل متشرّد، ووجهك يبدو شاحبًا جدًّا.

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

قلت لها إنَّني لم أَنَمْ بالأمس، ورأيت كثيرًا من الكوابيس، على نحو جعلني أشعر بنفسي واقفًا عند حافَّة الجنون أو الموت. ثمَّ رحت أحدِّثها عن الغرفة التي استأجرتها؛ غرفة بلا نافذة، عاش فيها قبلي عجوز بائس، ثمَّ مات فيها وتعفَّنت جثَّته. وعلى الرَّغم من دهشتها من الحدث، فإنَّها أخذت تضحك، قائلة بسخريَّة:

ـ لست أفهم لماذا تحدث لك أنت تحديدًا هذه القصص!

قلت لها إنَّني أنا أيضًا لا أفهم. لكن في ما يخصّ هذه الغرفة تحديدًا، كان الفقر هو السَّبب. ففي الفترة الماضية، ساءت أوضاعي الماليَّة جدًّا. كنت قد خرجت في بداية الصيف من الشقَّة التي كنت أستأجرها في حيّ ماركا بعد أن طردني مالكها منها، وعدت لأمضي العطلة الصيفيّة في القرية. وحينما عدت إلى عمَّان، لم أعثر على مكان أقيم به. أمضيت الشهرين الماضيين متشرِّدًا، متنقِّلًا في البداية بين بيوت أصدقاء ومعارف أظنّ أنَّني أثقلت عليهم إلى درجة أنَّ أيًّا منهم لم يعد يطيق رؤيتي. لهذا، انتقلت في نصف الشهر الماضي إلى فندق حقير ورخيص في وسط البلد، ومع ذلك، لم يناسب جيبي، فقد أنفقت عليه أكثر من نصف مرتّبي، وهذا ما دفعني إلى الموافقة على هذه الغرفة، لأنَّها رخيصة وقريبة من المدرسة التي انتقلت إليها، في جبل عمَّان. غضضت النظر عن كونها بلا نافذة، لكنَّني لم أكن أعلم بأنَّ عجوزًا مات فيها وتعفَّنت جثَّته. ولا أدري لماذا يحدث لي هذا وأنا أمرّ في أقسى أزمة في حياتي.

ـ أنت دومًا تمرّ في أزمات، ودومًا تصفها بالأشدّ قسوة!

ـ هذه أصعبها. في هذه المرَّة سأنهار. أنا واثق بذلك.

ـ لماذا؟

ـ أنا مريض. مريض جدًّا. أريد أن أُشفى.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ـ ممَّ؟

ـ من الخوف والانتظار. أريد أن أُشفى من الخوف والانتظار.

ـ انتظار ماذا، ومَن؟

ـ لا أدري، ربما أنتظر الحياة. كأنَّها ذهبت، وأخشى ألّا تعود! أنا جائع، وأريد كأس عَرَق.

أخرجتُ من الكيس الذي في يدي شطيرةَ فلافل، اشتريتها في أثناء الطريق، ورحت أتناولها بصعوبة. أقضم قضمات صغيرة، وأبتلعها بصعوبة. كنت دومًا أبتلع الطعام بصعوبة.

أخذت صديقتي، مالكة الحانة، تحدّثني عن همومها وهي تسكب لي كأس عرق ثمَّ تضيف إليه الماء. قالت لي إنَّ أخاها يلحّ عليها من أجل السَّفر والهجرة من هنا، ولاسيَّما بعد أنَّ هدَّد بعض السلفيِّين المتطرّفين بإيذائها إن لم تغلق الحانة. «لكنَّني لن أرضخ لهم، ولن أهاجر من هنا، سأبقى في البيت الذي وُلدت فيه وربيت وكبرت. وليأتوا، وليكسروا هذا المتجر، فسأتصدَّى لهم، لأنَّني لن أتركه ولن أهرب، حتَّى لو قطعوا رأسي»، قالت وهي تشعل سيجارة.

غبطتها على هذه النَّفْس المتمرّدة، وعلى إيمانها العميق والرَّائع بوهم الانتماء الذي يجعلها مستعدَّة للتَّضحية في سبيل التَّمسُّك به. أمّا أنا، فكنت فقدت آخر ما تبقَّى لديّ ـ وهو قليل في كلّ حال ـ من الإيمان بالجدوى، وباتت الحياة عبثًا محضًا. تعمّق يقيني بأنَّ هذا الواقع مظلم ومغلق ولا أمل في تغييره. لقد فقدت اهتمامي بمعارك الأرض والسَّماء، على حدّ سواء، ولم تعد تعنيني.

ـ يا إلهي كم أنت يائس، ومتشائم!

ـ لكنَّني لم أنتحر بعد!

ـ هذا يعني أنَّ ثمَّة أملًا لا يزال يقودك إلى الحياة؟

ـ أجل.

ـ ما هو؟

ـ لا أدري.

❖❖❖

أمشي عائدًا إلى غرفتي التي بلا نافذة، وفي ذهني يرنّ سؤال صديقتي مالكة الحانة: «هذا يعني أنَّ ثمَّة أملًا لا يزال يقودك إلى الحياة؟».

أجل، آمل أن تعود، وعلى هذا الأمل أحاول أن أحيا.

كنت أجلس في المكتبة قبالتها أحاول القراءة، وكانت عيناي أحيانًا تتعثَّران ببعض الفقرات التي تمرّ في ذهني، بلا معنى. كنت، كلَّما نظرت إليها، يرتعش قلبي، ويختلُّ سيل أفكاري، ويتحوَّل إلى ضجيج أبيض هشّ، كسرب غمامات عابرة تجتاح السَّماء في يوم جافّ؛ كغيوم مختلفة الأشكال والأحجام، لكنَّها تشبه الأحلام.

جاءت المرأة الشَّابة الجميلة والسَّعيدة على مدار أسبوعين إلى المكتبة بملابس مختلفة، وبتسريحات شعر مختلفة، إنَّما بالابتسامة ذاتها، وضحكةِ العينين ذاتها، وطقطقةِ الكعب الخافتة ذاتها، ورمقتني بين الحين والآخر، بالنظرة المليئة بالريبة ذاتها، وهي تجلس قبالتي، وأنا أتحيَّن الفرص كي أتأمَّلها.

كان يحدث أحيانًا أن أصادفها في الشارع ونحن متَّجهان إلى المكتبة، فأمشي ببطء كي أظلّ خلفها، فلا أسبقها، ولا تغيب عن ناظري. وكان الهواء

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

العتيق يتحرَّر من انحباسه المزمن ويغدو طليقًا وجديدًا، ويصبح في وسعي أن أتنفَّسه. ومن قمم الأشجار تتعالى صيحات الطيور، ومن المخبز القريب، تعبق رائحة الخبز الطازج. وكانت فراشة صغيرة تحوم حولي مُحْدثة شرخًا نازفًا في الهواء، يجعل جسديَ الهزيلَ والضئيل يرتجف، وروحيَ الذاويةَ تضطرب على نحو غريب، فتهتزّ فيها خيالاتٌ عن نهارات مضيئة، يرتشف الناس فيها القهوة على الأرصفة، كما لو أنَّ كلَّ شيء على ما يرام. إنَّه نزف الأحلام الذي يبلِّلني، فيتمدَّد المكان من حولي وينتشر، ثمَّ يستحيل إلى معبد، أجثو فيه على الأرض وأقدِّم اعترافاتي، منتظرًا الغفران، وناشدًا طهارة ولادة جديدة.

كانت تفتح في المكتبة بعضَ الكتب، ودفترًا كبيرًا تدوِّن فيه ملاحظات ما. ثمَّ تُخرج السَّخّان الصَّغير بعد فترة من حقيبتها، وتمشي بحذر كي لا تزعج روَّاد المكتبة، بينما عيناها تضحكان. وكانت تتبادل حديثًا سريعًا مع البوَّاب أو مع أيّ شخص آخر، يصادفها وتعرفه، وربَّما لا تعرفه، فقد كان يبدو لي أنَّها مستعدَّة للتعرُّف إلى جميع الناس وتبادل الأحاديث الودِّيَّة معهم، وهي تضحك، لا بسخريَّة، بل بفرح يبدو فطريًّا. يا لها من جميلة وسعيدة!

تقف عند باب المكتبة، تدخّن وتشرب من السَّخّان. وكنت أخرج للتدخين أيضًا. أقف على بعد مسافة منها، في الجهة الأخرى للمدخل، تعذِّبني رغبة في الحديث معها، ولا أجرؤ.

حدَّثت عنها صديقتي، مالكة الحانة، في تلك الأيَّام، فقالت:

ـ يا لك من جبان!

ـ فعلًا، أنا جبان، وخصوصًا مع النساء!

ـ أنت تهاب المبادرة. لقد لاحظت ذلك عليك من قبل. دومًا تفضِّل أن يبادر الآخرون.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

نظرت إليها بدهشة، وهي تشخّص حالتي بدقّة، وقلت:

- هذا العالم يتربّص بي. ينتظر أن أُقْدم على أيّ خطوة، كي يصطادني ويقول لي: ها قد وقعت في الفخ وارتكبت جريمة.

- أنت تبالغ كثيرًا كي تبرّر جبنك. فلنفرض أنّك بادرت وحدّثتها، فماذا كانت ستفعل لك إن لم يَرُقْ لها ذلك؟ أستقطع رأسك؟ حتمًا لن تفعل!

- وهذا ما قلته لنفسي أيضًا.

- وماذا فعلت بعد أن قلت ذلك لنفسك؟

- رحت أحضّر نفسي للحديث معها!

- كيف؟

- قمت ببروفة، تمرّنت فيها على الكلام معها.

انفجرت صديقتي، مالكة الحانة، في الضحك، وسألتني:

- وكم احتاجت هذه البروفة من الوقت حتّى بات العرض جاهزًا: أيام؟ أم أسابيع؟

- ليلة واحدة فقط. كانت ليلة شاقّة. خرجت فيها إلى الشارع، ووقفت على حافّة الطريق، ورحت أعدّ نفسي.

مشيتُ في تلك اللّيلة وحيدًا على الرّصيف، وحاولت أن أتنفّس بعمق وأنا أعدّ وأبتدع سيناريوهات للحديث معها.

في آخر اللّيل، يصبح اللّيل هشًّا، يجرح سكونَه ضجيجُ سيّارة عابرة أو مواءُ قطّة أو نافذة مضاءة، أو وقعُ خطى غريبٍ، تائه، مثلي. تجتاحه هذه الجلبة، تجفله، مخلّفة في صفحته الخدوشَ.

هل أتحدّث عن اللّيل، أم عنّي؟ أريد سكونًا مطلقًا يُعِينني على نحت تلك الخطوة إليها.

توقّفت مستندًا إلى جذع شجرة. خطر في بالي أن أفتعل معها حديثًا عن الأدب على افتراض أنّها مهتمّة به. تحمّست للفكرة، من دون أن أدري كيف سأفتعل هذا الحديث، وانطلقت أمشي بانفعال وخطى سريعة، وأنا أرى نفسي واقفًا أمامها، أقدّم مداخلة طويلة عن الأدب وعلاقته بالإنسان، فلطالما اعتقدت أنّ الأدب هو أدقّ صنوف المعرفة في التّعبير عن الإنسان وعن تاريخه، بل إنّني أعتقد أنّ كتب التاريخ تشوّه الحقيقة وتزيّفها لأنّها تنظر إلى الأحداث من جانب واحد؛ الجانبِ المرئيّ على السّطح؛ الجانبِ الذي يرى المشهد بعموميّته ويستثني خصوصيّة العامل الإنسانيّ الفرديّ والنّفسيّ فيه.

حينما انتهيتُ من هذه المداخلة، كنت أشعر برضى عميق عن الأفكار المهمّة التي أدليت بها، وخطر في بالي أن أعيد التمرّن ثانية، لا لأتأكّد من حفظي نصّ المداخلة فلا أنساها أمامها، وإنّما لأنّ صورتها في خيالي وهي تصغي إليّ كانت ساحرة. كانت تنظر إليّ بإعجاب ودهشة، والبريقُ الصافي المحتفي بالحياة يشعّ في عينيها.

فجأة، ولسبب ما، بدت لي هذه المداخلة الطويلة غيرَ مناسبة على الإطلاق. بدوت لنفسي مبتذلًا وسخيفًا فجأة وأنا واقف أمامها أستعرض معارفي الأدبيّة والفكريّة. تراجعت بلا تردُّد عن هذا الخيار، وعدت إلى مساحة الصّفر، أتوه فيها خاويًا تنقلني من نقطة إلى أخرى خطاي الذاوية. ثمّ خطر في بالي أن أفتعل معها حديثًا عن الجوّ، سرعان ما بدا لي تافهًا، فمحوته من رأسي. فكّرت في أن أسألها لماذا تأتي لتقرأ في المكتبة. لكنّه بدا لي سؤالًا يمسُّ منطقة خاصّة لا يجوز لي أن أطرقها. فكّرت في أن أحدّثها عن نفسي، وضحكت. ما لها ولي؟ ثمّ: ما لي ولها؟

وجدت نفسي في السّاحة الهاشميّة في وسط البلد. صادفت مقعدًا خشبيًّا جلست عليه، ورحت أنظر إلى المكان واللّيل والمارّة، مثلَ شبح

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

إنسان ميِّت يطارد وهمًا بالحياة. أطارده لاهثًا في الواقع وفي خيالي، مدفوعًا بخواء أفقيّ من أيِّ مصائد أخرى سوى مصيدة اعتقاد أنَّ هذه المرأة الجميلة، ستهبني معنىً آخر للحياة. من أين ينبع هذا اليقينُ العجيبُ، والأخرقُ ربَّما، بأنَّ هذه المرأة التي لا أعرفها، ولا أعرف شيئًا عنها، هي التي ستهبني هذا المعنى، وستنقذني من هذا العبث؟

نجحت جهودي في اليوم التَّالي في اكتشاف المكان الذي تأتي منه، فقد رأيتها خارجة من عمارة قريبة من المكتبة. سألت البوَّاب عنها، فأخبرني بأنَّها تعمل سكرتيرة عند أحد الأطبَّاء، وأنَّها أرملة توفي زوجها قبل عدَّة أعوام في حادث سير مؤسف.

حادث سير؟ يا للمصادفة الغريبة! أفزعتني هذه المعلومة، كما لو أنَّني أقف مسلوب الإرادة أمام تكرار حتميّ لقصَّتي مع عائشة.

❖❖❖

اللَّيلة الثَّانية

ما إن دخلت غرفتي وأغلقت بابها حتَّى أعتمت، فتيقَّنت مرَّة أخرى من أنَّ لا نافذة فيها. أشعلت الضوء، وجلست على الفرشة أقرأ وأدخِّن. كتاب ألبير كامو «أسطورة سيزيف» من الكتب القليلة التي ظلَّت في حوزتي من كتبي القديمة.

القراءة تهيِّج جوعي.

ثمَّة عتمة خلف بقعة الضوء المندفع من الغرفة إلى مساحة المطبخ، وفي هذه العتمة ثمَّة صمتٌ. هناك، في هذا الصَّمت، في ركود الهواء، ثمَّة ضجَّةٌ، كأنَّ أناسًا يتمتمون ويتنهَّدون؛ كأنَّ أصواتهم عالقة في العتمة مثل سوادها.

حاولت القراءة ثانية، وعجزت. ما جدوى القراءة والمعرفة وأنا هنا وحيد جائع، أرتجف من الخوف والبرد؟

لست أدري لماذا أصابتني هذه الجرثومة ذات يوم فاعتقدت أنَّ المعرفة ستجيب عن أسئلتي. فجأة ترنّ في ذهني ضحكةُ عائشة البلهاء، كأنَّها الحقيقة عينها.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

أذكر أنّه باستثناء بعض الكتب البوليسيَّة التي لم تكن تجذبني، لم يبق كتاب خارج نطاق الكتب الدينيَّة التي تغصّ بها مكتبة المدرسة لم أقرأه إلّا كتابُ المنفلوطي. كتاب قديم لم يُثرني عنوانه ولا شكله، لكنَّني استعرته في نهاية المطاف. أمشي في حرّ الظهيرة ببطء وملل، أصغي إلى طنين الصَّمت المتواصل في المكان، حاملًا بيدي كتابَ «النظرات والعبرات».

كان بيتنا يَلُوحُ لي من بعيد، ببياضه الشاحب، وكآبته. ليست كآبة شكله فحسب، بل كآبة نابعة من كونه خاصًّا بأبي. يخيَّل إليَّ أنَّ جدرانه تحتفظ بصراخه وغضبه المتواصلين، وخصوصًا كلَّما رآني أحمل كتابًا لأقرأه، لأنَّه كان على يقين بأنَّ ذلك يُلهيني عن الجوهريّ في الحياة: الصلاة والعبادة والتَّفكير جدِّيًا في وسيلة يُنتج فيها المرء المال، ليصبح طبيعيًّا مثل سائر خلق اللّـه الطبيعيِّين. بيت كان يراكم صراخ أبي وعنفه، يختنق بهما من دون أن يقوى على تصريفهما، فيظلّ متَّجهمًا وحزينًا ككائن معذَّب عاجز ومهزوم.

في آخر الشارع ـ وهو ذاته الذي يصل القرية بخارجها، وقبل أن ينعرج في اتِّجاه الشمال ـ كنت أرى برك السّراب تلمع وتتماوج تحت الشمس اللَّاهبة، وتخاتلني، ويُتعبني ذلك الزوغان الذي يحدث في عينَيَّ، وأنا أمعن النَّظر فيها، فتتراقص أمامهما بقعُ الضَّوء الملوَّنة.

كان الكلب يقعي في ظلّ شجرة اللَّيمون، ونهض حينما رآني قادمًا واتَّجه نحوي يهزّ ذنبه. تناولت عصًا صغيرة عن الأرض ورميتها بعيدًا فانطلق مسرعًا وفرحًا ليأخذها. وعلى بعد مسافة منه، وتحت شجرة التين، كانت تنتشر بقايا الطعام الذي تضعه له أمّي، وحولها تحوم سحابة من الذباب، تطنّ بلا انقطاع.

كان كلّ شيء أيضًا على حاله، داخل البيت، مثلما هو في كلّ يوم، منذ زمن بعيد: الغبار، والفرشات الممدودة على الأرض في غرفة المعيشة، والتلفاز المركون على الخزانة الصغيرة، وساعة الحائط المنسية، والمتوقّفة عن العمل منذ زمن، وصورة جدّي بالأبيض والأسود، يعلّق على كتفه بارودة، ويمتطي فرسًا، مزيّنة بالشّرائط الملوّنة.

كلّ شيء على حاله، باستثناء شيء وحيد كان غريبًا عن المشهد في ذلك النّهار: حقيبة ملابس سوداء قديمة ومنتفخة.

أخبرتني أختي نوال بأنّ هذه الحقيبة تخصّ عائشة، التي يبدو أنّها ستقيم عندنا بعد وفاة أمّها. «وأبي؟» سألتها باستغراب، فأجابتني:

ـ لا أدري، فقد جاءت قبل ساعتين، وهو لم يعد بعد.

هممت بإكمال طريقي إلى غرفتي عبر المطبخ، لكنّني توقّفت، وسألتها:

ـ أما زالت حزينة جدًّا؟

أجابتني نوال بضيق، لأنّني كنت أُلهيها عن متابعة مسلسل في التلفاز:

ـ لا أظنّ. قالوا لها إنّ البكاء كثيرًا يزعج أمّها في القبر، ويعذّب روحها، فصدّقتهم، وكفّت عنه.

ثمّ نظرت نوال إليّ وأضافت: لقد أوجعتَ رأسي بالحديث عن العزاء، كما لو أنّه حدث سعيد.

فكّرت في أنّ عائشة، الفتاةَ المسكينة والسّاذجة جدًّا، والمهمَلةَ والتي لا ينتبه إليها أحد، ربّما لم تحظَ باهتمام الآخرين في حياتها مثلما حظيت به في الأيام الثلاثة الأخيرة التي تلت وفاة أمّها. ربّما لم تشعر بأهمّيّة وجودها من قبلُ كما شعرت بها في الأيّام الماضية. فعلى الرّغم من مأساويّة

الحدث، فإنّه جعلها في مركز الأضواء، وجعل كلّ الأنظار موجّهة إليها، وجعل بيتها يغصّ بالناس؛ هذا البيت الذي نادرًا ما كان يطرق بابَه أحدٌ.

كانت عائشة تساعد أمّي في تحضير الطّعام في المطبخ، ووجدت أنَّ من واجبي تعزيتَها. مدَّدت يدي لأصافحها، وأنا أحاول اجترار مشاعر الحزن التي تصلح للمواساة والعزاء، فنظرتْ إليّ باستهجان، وقد أثارت يدي الممدودةُ استطرافَها أكثر ممَّا أثارت تقديرها، فأنا لم أصافحها من قبل أبدًا. جفَّفت يدها المبلولة بملابسها، وصافحتني وهي تبتسم بفرح طفوليّ. ثمّ قالت وهي تشدّ على يدي، كأنَّما تزفّ إليّ خبرًا سعيدًا بصوتها الخشن والكلمات التي تنطقها عادة ببطء، مادّةً أحرفَ العلّة: «سأعيش... عندكم!» فهززت رأسي وقلت: «جيد»، ولم أعرف ماذا أضيف لأنَّ هذا الخبر أقلقني.

انتبهت أمّي للكتاب الذي أحمله، وسألتني عنه، وخصوصًا أنَّني اليوم قدّمت آخر امتحاناتي المدرسيَّة الصيفيَّة، ولم تبق لي حاجة إلى الكتب. شرحت لها أنَّني استعرته من مكتبة المدرسة كي أقرأه في العطلة. أثار ذلك استهجان عائشة وسخريَّتها. أخذت من يدي الكتاب ـ المجلَّد وحاولت أن تتهجَّى ما كُتب على غلافه، ولم تفلح. فساعدتها قائلًا: المنفلوطي، وهنا: النظرات والعبرات. أثار اسم الكاتب، الذي عجزت عن لفظه، بالإضافة إلى عنوان الكتاب، عاصفةً من الضحك لديها. كان كلّ شيء تجهله، وخصوصًا إذا لم ينتمِ إلى عالمها ـ وكان العالم في ذهنها صغيرًا جدًّا ـ يثير سخريَّتها واستطرافها.

سألتني باستغراب إن كنت جادًّا بالفعل، وأنوي قراءة هذا الكتاب. وحينما أكَّدت لها الأمر، ظلَّت تضحك وتنظر إليّ بتعجُّب، لأنَّ هذا الفعل لا يُقْدم عليه إلَّا الحمقى أو غريبو الأطوار.

وعلى الرَّغم من أنَّ أمِّي كانت تعدّها مسكينة و«على البَرَكة»، فإنَّها اتَّفقت معها وشاركتها في الضحك، لطرافة ما أنوي فعله: قراءة هذا المجلد السَّمين الزَّاخر بالصَّفحات الكثيرة، والتي كتبها شخص اسمه طريف ومضحك.

ـ علامَ كنت تتكلَّم؟ مكتبة أحمد

ـ على النَّظرات والعبرات يا أمّي!

وبدا لي الموقف طريفًا، فضحكت أيضًا معهما.

وقالت أمِّي متنهِّدة بحسرة في نهاية ضحكها:

ـ ظننت أنَّك تحمل القرآن، وسعدت لأنَّك قرَّرت أن تختمه في الصيف!

فعلَّقت عائشة بانفعال وتعجُّب شديدين، من هذه المصادفة الغريبة وهي تردِّد: «سبحان اللَّـه»، ذلك بأنَّ هذه الفكرة ذاتها خطرت في بالها أيضًا، وظنَّت في الوهلة الأولى أنَّني أحمل القرآن.

كانت عائشة قدْ تركت المدرسة منذ الصفّ الخامس الابتدائيّ، وهي الآن في التَّاسعة عشرة من عِمرها، ولم تكن تفعل شيئًا خلال السنوات الماضية سوى العيش مع أمّها، وممارسةِ الفراغ، والتباهي بذهبها، والانبهارِ من عجائب الدنيا.

كانت تكبرني بعامين، لكنَّني كنت دومًا أشعر بنفسي أكبر منها بسنين كثيرة. غير أنَّ سذاجتها لم تشغل بالي في تلك السَّاعة، بقدر ما أقلقني أنَّ وجودها في البيت مع حقيبة ملابسها، سيكون سببًا كبيرًا لحدوث مشكلة عاصفة مع أبي.

لم تحدث هذه المشكلة ولم يطردها أبي. أدركت، في ما بعد، أنَّ ذلك كان من سوء حظي. حينما جلسنا نتناول الطعام صُدمت به يلحّ على

عائشة لتأكل، ويدعوها إلى أن تشعر بنفسها كما لو أنّها في بيتها، بل إنَّ هذا البيت ـ قال ـ «قد صار منذ اليوم، بالفعل بيتَكِ». لم أفهم سرّ تلك الكياسة واللّباقة اللّتين غمرتا أبي وجعلتاه يعامل عائشة كما لو كانت ضيفًا عزيزًا. ثمَّ لم أفهم مغزى تلك المداخلة الطويلة التي ألقاها على مسمعها بعد الغداء، وافتخر فيها بشهامته التي منعته من التخلّي عنها، فلم تسمح له أخلاقُه بالموافقة على بقائها تعيش بعد وفاة أمّها وحيدة في بيت لا يحميها أحد فيه من أولاد الحرام. قال إنَّ الدَّم الذي يربطه بأمّها لم يَهُنْ عليه، في حين تخلّى عنها أقرباؤها لأبيها، ولم ينتخِ أيّ منهم لدعوتها لتعيش في بيته، بل عادوا جميعهم إلى بيوتهم بعد انتهاء العزاء، مصطنعين مظهرَ من ليس له علاقة بأمرها.

وسرعان ما فهمت، فكلّ هذه الطّيبة والشّهامة حلَّت في روح أبي بفضل الذَّهب. طلب من عائشة، بعد أن انتهى من كلامه، أن تضع صيغتها في عهدته بعد أن بات الآن المسؤولَ الوحيد عنها، ووليّ أمرها. قال إنَّه سيحتفظ بصيغتها، لأنَّ أحدًا لا يعرف ما قد يحدث. قد تتعرَّض للسرقة، فأبناء الحرام يملأون العالم والشوارع، ولا يريد أن تفقد شيئًا ـ لا سمح اللّـه ـ وهي في بيته، فتطاله أو تطال أحدًا من أفراد عائلته الشكوكُ. ووعدها بأن يعيدها إليها حينما يأتي نصيبها وتزفّ إلى بيت الزوجيّة. حينذاك سألته عائشة:

ـ يعني سيسرقون ذهبي إن بقي معي؟

أجابها بأنَّ ذلك لن يحدث إذا خبَّأت الذَّهب عنده. وعادت تسأله:

ـ ولن ألبسه ثانية؟ ولن تعيده إليّ؟

ـ سأعيده يا عائشة، حينما تتزوَّجين.

راحت المسكينة تضحك، لأنَّ موضوع الزواج أعجبها، ولم ينسَق أبي إلى الإجابة عن أسئلتها عن هذا الأمر. وهكذا، قدَّمت إليه عائشة صرَّة

فيها أساورُ أمّها وخواتمها، فطلب منها أن تخلع أيضًا سلسلة الذَّهب التي في رقبتها، ففعلت ذلك بيدين متردِّدتين وعينين حزينتين.

ولم ينته الأمر عند هذا الحدّ، فقد اتَّفق أبي معها على أن يذهبا في صباح الغد إلى المحكمة كي توقِّع له على وكالة عامَّة تخوِّله بموجبها التصرُّفَ بشؤونها، وعلى رأس تلك الشؤون متابعةُ التعويض الذي من المفترض أن يدفعه السَّائق الذي دهس أمّها، قريبته التي لطالما استقبلها في بيته، فقد كانت بمثابة أخت له، ولا يقبل ولن يقبل بأن يفرّط في دمها، كما لو أنّها دجاجة ونفقت.

ظلَّت أمّي صامتة، خلال كلّ هذا الحديث، تتابع كلام أبي بتوتُّر وقلق. لكنَّها حينما غابت عائشة في المطبخ، سارعت إلى القول:

ـ إنَّها يتيمة ومسكينة وعلى البَرَكة!

فرمقها أبي بنظرة قاسية، وسألها بنبرة مستنكرة:

ـ ما الذي تقصدينه يا امرأة؟

ـ لا أقصد شيئًا. أنا فقط أقول إنَّها يتيمة، وإنَّ كلّ من يحافظ على أموال اليتامى سيجزيه اللّـه خيرًا وثوابًا كبيرين.

استدرتُ بوجهي إلى الحائط. لكن، من قال إنَّني أفضل من أبي؟

أريد أن أنام. قرّرت أن أُبقي الضوء مشتعلًا لأنَّني أخاف العتمة، لكنَّني مع ذلك شرعت أسمع من جديد أنين عجوز تعفنَّت جثَّته، ينبعث من زوايا الغرفة.

❖❖❖

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

النّهار الثّالث

وجدتُ نفسي في الصَّباح في مواجهة نهار يشبه نهار الأمس، والنَّهارَ الذي سبقه يشبه كلّ النّهارات الماضية: هوّة سقطتُ فيها ذات يوم وغرقتُ، ولست أدري لماذا لا أزال مستمرًّا في الغرق. أدرك هذا الغرق. أختنق، ولا أحيا ولا أموت، لكنّني لا أكفّ عن الانتظار.

اتّجهتُ بعد انتهاء عملي إلى وسط البلد كي أتناول غدائي. كان شارع الرينبو الذي مرّرتُ فيه يضجّ بالناس. يعجّ بالنّساء. نساء رشيقات وجميلات وسعيدات. نساء ورجال يسيرون معًا، ويتسوّقون معًا، ويركبون الحافلات معًا، ويجلسون في المقاهي وعلى الأرصفة معًا.

توقّفتُ عن المسير. كم مرّة توقّفت عن المسير وأنا أعبر هذا الشارع؟ كم مرّة رحت أتأمّل من بعيد الوجوهَ السّعيدة وأنا أفكّر كيف لروحي أن تكفّ عن العواء؛ ففمي مغلق، وهذا العالم أصمّ. عالم يضجّ أمامي وأنا أحدّق فيه بصمت، مثلَ طيف لا يلحظه أحد؛ مثلَ إحساس دفين في قلب اللّـه، بالنّدم.

في قلبي أيضًا ثمَّة إحساس ـ لكنَّه ليس دفينًا ـ بالنَّدم.

لو أنَّ أبي طرد عائشة! لو لم يكن جشعًا طمع بكلّ ذرَّة مال تملكه! لكم تفاقمت كراهيتي له في تلك الأيَّام، حتَّى إنَّني شعرت بأنَّ الطعام الذي أتناوله صار مغمَّسًا بدماء الأرملة، أم عائشة، التي تدفَّقت على الشارع وراحت تسيل إلى بيتنا. لهذا قرَّرت وقتها العمل كي أُطعم نفسي من مال أجنيه بتعبي. وسرعان ما نجحتْ جهودي التي كنت أشكّ في جدواها، أسرعَ ممَّا توقَّعت، فبعد أسبوع على إقامة عائشه ببيتنا، اتَّفقت مع أحد مقاولي البناء على العمل في ورشته.

وعدني المقاول بأن يدفع لي خمسةَ دنانيرَ أجرةَ اليوم الواحد، فحسبت المبلغ الذي سأحظى به في مقابل عمل شهر، وتبيَّن أنَّ الرَّقم يزيد على مئة دينار. كان مبلغًا هائلًا لم أتصوَّر في يوم من الأيَّام أنَّ في وسعي تحصيلَه، لهذا طفقت أعيد الحساب لأتأكَّد من أنَّ هذه الثروة ليست وليدة خطأ حسابي. وحينما تأكَّدت، رأيت الضوء يومض في نوافذ أحلامي البعيدة ويناديني، ورأيتُني أسير نحوها بخطى حقيقيَّة، في الواقع لا في الخيال: إنَّ في مقدوري، إذن، جنيَ المال والعيشَ بعيدًا محصَّنًا من دناءة أبي. في مقدوري منذ اللَّحظة الاستقلال عنه.

لكنَّني بعد عدَّة أيَّام من بدء العمل أدركتُ أنَّ السَّير نحو الأحلام يشبه مشي من يستعين ببوصلة، تشير إلى الجهة التي ينشدها المرء، إنَّما من دونِ أن تخبره بشيء عن ماهية الطريق.

إنَّها المرَّة الأولى في حياتي التي أمارس فيها عملًا منتجًا. ويا له من عمل شاقّ. يتصبَّب العرق على جسدي، وتُشعرني الشمس اللَّاهبة بالغثيان وأنا أحمل الباطون من حيث يخلطونه إلى حيث يحتاجون إليه، ثمَّ أعود أحمله ثانية وثالثة، وهكذا على مدار اليوم.

لا شيء يخفّف عنّي مشقّة العمل سوى طرافة العمّال. في بعض الأحيان، ومن دون سابق إنذار، كان صوت غليظ يندفع عاليًا من حنجرة أحدهم، مغنّيًا أغنيةً شعبيّة، فيثير الحماسة في البقيّة، ويردّدون خلفه الكلمات بصخب ومرح يمزّقون بهما، عنوةً، الوجهَ المتّجهم للنّهار. وكان العمّال في أحيان أخرى، يتسابقون بانفعال إلى رواية قصص عن النساء والجنس، ويضحكون في أثناء استغراقهم في وصف التفاصيل وبطولات الفراش، وتبرق عيونهم وتشعّ فيها، تحت رموشهم البيضاء من شدّة اغبرارها، رغباتٌ متوهّجة.

تمتزج هذه الأحاديث برائحة دخان سجائرهم، وبعرق يتصبّب من جباههم، وبضحكات ماجنة، تتلوها لحظات صمت. كلّ شيء من حولهم كان ينتفخ بخيالات حارقة تؤجّجها الشّمس وضجرُ العمل وساعاتُ الشّقاء الطويلة.

وقد انتبه أحدهم ذات مرّة لوجودي بالقرب منهم، فغمز البقيّة قائلًا بسخريّة إنّهم سيخرّبون أخلاقي. كنت أصغرَهم سنًّا، وبلا تجارب في هذا المجال، لكنّ المقاول ناداني وسألني: «كم عمرك؟» فقلت: «سبعة عشر عامًا»، فضحك قائلًا: «إنّك رجل إذن، ولا بدّ من أنّك تفعلها!». فاحمرّ وجهي خجلًا وانعقد لساني، واستمرّ قائلًا إنّ المعرفةَ النظريّة ضروريّةٌ لي، إذ يجب على الشاب أن يمتلك تصوّرًا مسبقًا عن هذا الفعل، كي لا يحمرّ وجهُه وتخذله رجولتُه حينما تحلّ السّاعة، ويجد نفسه وحيدًا مع امرأة.

وردّ عليه أحد العمّال ضاحكًا: كلّ شيء يحتاج إلى تصوّر مسبق، إلّا هذا الأمر، فما إن يختلي الرجل بالمرأة حتّى يكتشف أنّ لا حاجة إلى رأسه، ولا حتّى إلى قلبه، فـ «بضاعتُه» تعرف كلّ شيء من دون أن يعلّمه أحد!

وانفجروا في الضحك، وأضاف آخر مؤكِّدًا هذا الرأيَ: بل إنَّ الرأس حين يتدخَّل أحيانًا، قد يعطِّل الأمور!

وضحكتُ معهم، محاولًا مداراةَ خجلي.

أزعجتني هذه الصُّورة الفجَّة للجنس، لأنَّها كانت تناقض تصوُّراتي الرومانسيَّة عن الحبّ والعلاقة بالمرأة؛ تلك العلاقة التي تضنيها تنهُّدات الشِّعر، ويتحوَّل اللَّيل فيها إلى متاهات للحنين والوَجْد، والقمرُ إلى متآمر مع العشَّاق.

وواسيت نفسي وأنا أبتعد عنهم لأجلب مزيدًا من الباطون، بأنَّ هذه التصوُّرات ستستردّ عافيتها في اللَّيل، حينما أجلس على عتبة باب غرفتي، أنظر باستغراق إلى السَّماء وإلى النجوم البعيدة والأشجار، محاولًا انتزاعَ وجه حبيبة ضبابيٍّ، يلوذ في قصيدة غائمة المعاني، تجول في صدري وتتعذَّر عليّ كتابتُها.

هل كانت تستردّ عافيَّتَها فعلًا في اللَّيل؟ لا أدري، فقد كان امتداد هذا الغموض السَّاحر للأحلام، وأنا جالس على عتبة باب غرفتي، يختلُّ فجأة، حينما تدهم مخيّلتي، من دون سابق إنذار، مشاهدُ جنسيَّة وصفها العمَّال بدقَّة. أسقط في شباكها، وعلى الرَّغم منّي، فإنَّ ذهني يسترسل بانفعال في استحضار تفاصيلها، كما لو كانت حيَّة وحدثت أمام عينيّ. ثمَّ أنتبه لنفسي وأرتبك من هذا التشوُّش الذي مزَّق صفحة الأحلام وغمرها كموجة سوداء، ولفحني مهيِّجًا الرَّغبات في جسدي. وينتهي بي المطاف لإطفائها، وأنا واقف خلف باب غرفتي المغلق، مستسلمًا لخيالات لذيذة، تدوِّخني، مثل دوَّامة أسقط فيها وأسقط، وأستمرّ في السُّقوط، في متعة تهزّ كياني وتجعلني أرتعش مثل ريشة في قلب زوبعة من النشوة تطوف بي، ثمَّ ترميني على ضفَّتها ممتلئًا بالخواء.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

أتسلَّل بعد ذلك إلى الحمَّام، بحذر، كي لا أثير شكوك أحد، وأنظِّف نفسي، وأغسل آثار الجريمة عن ملابسي. كنت أخشى أن تلحظ عائشة، في أثناء غسلها الملابسَ، تلك البقعَ على ملابسي فتسأل، ببلاهتها المعهودة، أمِّي عنها.

عائشة!

يا لتلك المسكينة التي قال لها أبي إنَّ هذا البيتَ هو الآن بيتُكِ، فصدَّقته، وراحت تنظِّفه كما علَّمتها أمُّها أن تنظِّف بيتهما في السَّابق، كاشفةً عن جنون بالنَّظافة لم يتوقَّعه أحد منَّا. منذ اليوم التَّالي لإقامتها عندنا، افتتحت حملة لنفض البيت من الأوساخ، من دون أن تظهر عليها أعراضُ نيَّة في إيقافها. كانت تفعل ذلك ببطء، إنَّما على نحو جذريّ. لمَّعت زجاج النَّوافذ، إلى درجة صار فيها يخدع الذباب، فيصطدم به وهو مندفع إلى الخارج، من شدَّة شفافيَّته. وغسلت كلّ أغطية الفرشات والملاحف والمخدَّات. ومسحت عن زوايا السَّقف بيوتَ العنكبوت. وكانت في كلّ يوم ترفع كلّ شيء عن الأرض، وتدلق الماء عليها ليصل إلى كلّ الزوايا، ولاسيَّما البعيدة منها تحت خزائن الملابس، ليرتدّ الماء محمّلًا بأوساخ قديمة. ولم تكن تدع قطعة من ملابسنا تتَّسخ إلَّا وتغسلها، ثمّ تطويها في الخزائن على نحو لم نعهده من قبل، يجعلنا نخجل منها، ونُخرج الملابس بحذر كي لا نشوّه ترتيبها. أمَّا في المطبخ، فقد أخرجت كلّ الأواني وموادّ التَّموين من خزائنه القديمة المخلَّعة الأبواب، وفركت الخزائن بالماء والصابون قبل أن تعيد إليها محتوياتها التي نظَّفتها أيضًا، ورتَّبتها بطريقة جديدة. ونظَّفت جدران المرحاض الذي كان بمثابة حمام أيضًا، والمرحاضَ ذاته، بموادَّ مطهّرةٍ وملمّعة، فصار يشعّ. أمَّا في خارج البيت، فقد نظَّفت بقايا الطعام التي يخلّفها الكلب، وكنَّستها، وطمرت المكان بالتُّراب، فاختفت سحب الذُّباب، وجمّعت كلّ الأشياء الملقاة هنا وهناك، والتي لا نحتاج

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

إليها، في كومة بعيدة عن البيت، بعد أن منعها أبي من التخلُّص منها. ولمّت كلّ الأكياس البلاستيكيَّة المنتشرة على الأرض وكوَّمتها مع زبالة أخرى ورمتها في حاوية النفايات.

صارت روائح موادّ التَّنظيف العطرة تعبق في أرجاء البيت، وأصبح بلاطه القديم يلمع، واستعادت صورة جدّي الذي يمتطي فرسًا، بريقَها الذي يشعّ في اللَّون الأسود، واكتشفتُ أنَّ عينَي الفرس ذاتَي الرموش الطويلة، حزينتان.

شفع ذلك لعائشة، وجعل غباءَها المفرط أمرًا قابلًا للاحتمال، فقد حرَّر أمّي من أعمال البيت ومنحها الوقت كي تُعنى بأختي الكبيرة المتزوّجة والتي أنجبت للتوّ طفلًا ذكرًا، مثلما منح أختي نوال التفرُّغَ للشرود طويلًا في عشق خطيبها؛ ابن عمي. أمَّا أبي، الذي كان يتفحَّص حجم الصابون، ويُجري في كلّ يوم تحقيقًا صاخبًا عن هويَّة المجرم الذي يستهلكه وهو يغسل يديه من دون ضمير، فقد راح يعبِّر عن غيظه، ليس بالصُّراخ المباشر، بل بالتَّلميحات. كان يراهن على بعض نباهة لديها تُعِينها على فهم مآربه، فيتعمَّد أن يقول أمامها إنَّ كلّ شيء في هذا البلد أضحى غاليًا، حتَّى الصابون، فالمرء يشتري القطعة منه بمبلغ وقدره، لكنَّه لا يلبث أن يذوب مثل الملح. وكذلك السُّكّرُ، الذي يقيس منسوبه في العلبة أمامها ويتذمَّر من نفاده السَّريع، والشايُ الذي لا يغفل عن مراقبة كمّيَّته، والخبزُ الذي يعدّ أرغفته على مرأى منها.

لكنَّها لم تكن تمتلك الفطنة التي تؤهّلها لتفسير التلميحات أو تأويل الإشارات، لهذا كانت تردّ على شكواه بنظرات مستغربة ومذهولة من غلاء الأسعار، والنفادِ العجيب للسُّكر، والذَّوبانِ السَّريع للصابون. حينذاك يتركها ويمضي كاظمًا غيظَه، لأنَّها لا تفهم الأشياء إلَّا إذا قيلت لها بوضوح وعلى نحو مباشر، الأمر الذي يتفاداه الجميع، لأنَّ الوضوح يجعلها تبكي بحرقة ودهشة من قسوة العالم.

استمرَّت عائشة على هذا النَّحو في الاغتسال كلَّ يوم، بعد أن تنتهي من تنظيف البيت، من دون أن تحمل همّ الماء أو الصابون، واستمرَّت في الأكل متى شعرت بالجوع، وفي شرب الشاي متى اشتهته، بعد أن تحلّيه بكثير من السُّكر، وفي مشاركة أيّ شخص غاب عن موعد الطعام، في طعامه، وفي النهوض من الفراش فقط إذا شعرت بنفسها قد ارتوت نومًا.

كانت تفعل ذلك كلَّه بلا عذابات في الضَّمير، ومن دون أن يخطر في بالها أنَّ النيران تشتعل في أحشاء أبي، بسبب نهبها المتواصل لجيبه، كما يشكو إلى أمّي. وكنت أخشى أن تندلع هذه النيران في أيّ لحظة، وتحرقَها وتحرقنا جميعًا معها. لكنَّه كان يكبح جماح تلك الرَّغبة في الانفجار. يصمت، ليس فقط لأنَّ البيت غدا نظيفًا على نحو لم يعهده، أو لأنَّ ملابسه أصبحت، في أيّ لحظة يحتاج إليها فيها، نظيفةً ومكويةً، بل لأنَّه كان يجد عزاءه في فكرتين استحوذتا على رأسه، ولم ينفكّ يحدّث أمّي عنهما: أولًا، ضرورة العثور لها على عريس يقبل بالزَّواج منها. لكن قبل ذلك، وهذا ثانيًا، ضرورة إجراء حصل إرث سريع يستحوذ فيه على حصَّتها في الأرض التي كانت تملكها أمّها، كما في البيت الذي كانت تعيش فيه معها، ما دام يملك توكيلًا عامًّا منها. كان يزعم أنَّه يخشى، في حال تزوَّجت، أن يخدعها زوجها ويستولي على حصَّتها في هذا البيت، ثمَّ يتركها، بينما سيحافظ هو على مالها، وسيعدّه أمانة في عنقه. بيد أنَّ مساعيه كانت متعثّرة بسبب تعقيدات وجود وَرَثة آخرين للبيت، من أقرباء أبيها، يتابعونه بعيون ساهرة، ويحاولون سحب هذه الوكالة منه، وخصوصًا أنَّ الفتاة على قدر من السَّذاجة والبلاهة. وإذا كان ثمّة حاجة إلى الوصاية عليها وعلى أملاكها، فهم أَولى منه، لأنَّهم الأقرب إليها.

لم يعد أبي يترصَّد هفواتي، ولم يعد يؤرّقه ماذا أفعل في عزلتي خلف باب غرفتي المغلق، وفي ما أفكّر، وعمّا أتحدَّث مع أصدقائي في المساء،

وماذا أقرأ، وهل أدخّن، وهل أصلّي بعد عودتي من العمل. انشغل تمامًا بعائشة، وبمشاكل الوصاية عليها، وبمراقبته الحثيثة لها، وعدّ اللّقمات التي تأكلها، وملاعق السّكر التي تستهلكها.

وكنت بعد العمل، أستمرُّ في عزلتي في قراءة كتاب المنفلوطي، إنّما بلا متعة، فلم يعجبني. قرأت كثيرًا من قصصه القصيرة، وكنت أشعر بالملل. تخيّلت وأنا أقرأه، أنّني أصغي إلى حكايات تشبه تلك التي يرويها مسنّو القرية في سهراتهم، بعِبَرها واستخلاصاتها. أريد شيئًا آخر أقرأه؛ كتابًا يغوص إلى تلك المساحات الضبابيّة في أعماقي، ينقضّ عليها ويمزّق الغموض الذي يلفّها، ويلامس أمواجها المتلاطمة في داخلي، فتسكن وتمتدّ واضحة وزرقاء وعميقة، بعد أن يعبّر عنها ويترجمها إلى لغة.

هذا ما كنت أفكّر فيه في اليوم التالي وأنا أحمل دلوَ الباطون على كتفي. قرّرت السّفر إلى عمّان ما إن ينتهي الشهر من أجل شراء كتب أخرى لست أدري ما هي. لم أنتبه في أثناء شرود ذهني لمسمار كان بارزًا من إحدى قطع الأخشاب، فوطأت عليه، وسقطت من شدّة الألم وتهشّمتْ يداي وركبتاي.

عدت إلى البيت أعرج. ولسبب لا يعلمه إلّا الشيطان، لم يكن في تلك الظهيرة أحدٌ في البيت إلّا عائشة. أخبرتني بأنَّ أمّي ونوال وأختي وأخي الصغيرين، ذهبوا لعيادة أختي المتزوّجة التي أنجبت.

تتّبعتني عائشة ببلاهتها المعهودة في أثناء غسلي الجرح وتجوالي في البيت باحثًا عن مادة مطهّرة وقماش ألفّ به قدمي. كانت تمشي خلفي ببطء، وتحيد عن طريقي ببطء استفزّني للغاية. وكنت على وشك الصُّراخ في وجهها حينما التفتُّ إليها فالتقت عيناي عينيها. عينان كبيرتان دائريتان، تفتقران إلى الشّكل اللّوزي الذي يمنحهما الجمال، مثلما تفتقران إلى ذلك

الضَّوء الداخليّ الذي يبرق في العيون عادة مشكّلًا سرَّ جاذبيَّتها وسحرها. عينان مندهشتان ببلادة.

لكن لا. لم تكونا مندهشتين في تلك اللَّحظات. بل كانتا تشمّانني وأنفَها الكبير. كان العرق على جسدي قد امتزج بأتربة البناء، وشكّل عليه طبقة طينيَّة رقيقة، وكانت رائحة الطين والعرق تنبعث منِّي بكثافة. غير أنَّ ذلك لم يكن هو ما أربكني. خُيِّل إليّ أنَّها تتشمَّمني بمتعة مثلما يتشمَّم الحيوان المفترس طريدته.

أفزعتني هذه الفكرة، فابتعدت عنها. ولأنَّها كانت قريبة منِّي، لامست ذراعي صدرها عَرَضًا. شعرت بطراوة الجسم المنتفخ الكبير، وانتابني هلعٌ خفيٌّ. فهذه أوَّل مرَّة في حياتي يلامس فيها جسدي جسدَ أنثى. وظلَّ الهلع يسيل في دمي، ويعذِّبني أكثر ممَّا يعذِّبني ذلك الأنينُ المتواصل للألم في قدمي.

عثرت على قماش ورحت ألفّه على قدمي، وهي تقف إلى جانبي. أشحت بنظري عنها، وبقيت أشعر بأنفها مستمرًّا وعينيها في تشمُّمي. نفث جسدي مزيدًا من العرق والرَّائحة بسبب اضطرابي، بل أظنّ أنَّه كان يفعل ذلك في استجابة مقصودة منه لها، رغمًا عنِّي.

كان جسدي يتآمر عليّ معها ضدّي. نهضت واتَّجهت إلى المطبخ لا لهدف إلَّا للابتعاد عنها. فلحقت بي، وخُيِّل إليَّ وهي تمشي خلفي، أنَّها لا تكفّ تتحسَّسني بعينيها وأنفها عبر الفراغ الذي يفصل بيننا، كما لو أنَّ عينيها وأنفها تمرُّ على جسدي، تلمسه، وتحتويه بتصميم، وتستنشقه جزءًا جزءًا، قبل أن تنقضّ عليه. استدرت وسألتها محاولًا إخفاءَ توتُّري:

ـ لماذا تلاحقينني يا عائشة؟

ـ إنَّ رائحتك تعجبني.

نفث جسدي مزيدًا من العرق، وتصبَّب على جبيني، وشعرت به يسيل على ظهري. فكَّرت في أنَّه يجب عليّ أن أهرب؛ أن أذهب إلى غرفتي. لكنَّني لم أذهب، فثمَّة قوَّة خفيَّة كانت تفرض عليّ البقاء.

أخذ جسدانا يتلامسان بصمت وإلحاح ومتعة، منجذبًا كلٌّ منهما إلى الآخر بحبال قوَّة عمياء طاغية. وكانت القشعريرة تلفُّني مع كلّ لمسة أو احتكاك، وتتدفَّق في كياني رغباتٌ فظيعة كامنة، تُشعرني بدوار وحشيّ لذيذ، يُذيب قواي ويبخّرها، ويجعل الزمن يتوقَّف، ويحيل الأحلام إلى أنشودة ضبابيَّة حزينة. ولا يبقى شيء يذكّرني بالحياة التي غادرتني سوى ذلك الصفير البعيد للوجع في قدمي.

أنقذني من هذا الانسياق الأعمى للرّغبات، عودةُ أمّي وإخوتي. وظلَّت عينا عائشة تتابعانني في ذلك النَّهار بضياع وعطش محموم لغريزة بدا أنَّها كانت تغفو في جسدها، وكما لو أنَّها اكتشفتها فجأة.

ثمَّ جاءتني في الظلام.

❖❖❖

أفقت فجأة على الباب ينفتح. جفلتُ، وهببتُ جالسًا في الفراش، وما بين النوم والصحو اعتقدت أنَّ من اقتحم عزلتي هو أبي. كنت مخطئًا. كانت عائشة. أراها تغلق الباب بهدوء وأنا أحدّق فيها، مذهولًا. أرى هيكلها يمشي في الظلام نحوي. تدنو منّي، وتقول لي: «لم أستطع النوم... أريد أن أشمَّك». أسمع صوتًا يدوّي في أعماقي ويتوسَّل إليها: «اذهبي من هنا يا عائشة. أرجوك اذهبي، وعودي إلى فراشك». لكنَّ الرَّجاء يظلّ محبوسًا في داخلي، ويرفض لساني أن ينطقه. وأدرك أنَّني وقعت أخيرًا، في مصيدة هذا الكائن المسكين الذي تتضوَّر غرائزُه جوعًا، وأنَّني لن أفعل شيئًا في سبيل الخروج من هذه المصيدة، لأنَّني كنت مثلها: كائنًا تتضوَّر غرائزُه أيضًا، جوعًا.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

انسلَّتْ إلى جانبي تحت الغطاء الخفيف، وفاجأها عريي؛ فقد كنت، بسبب الحرّ، أنام عاريًا إلّا من لباسي الداخليّ. تشمّمتني بمتعة للحظات، قبل أن تكتشف أنَّ في وسعها شمّي بشفتيها. إذ ذاك راحت تلتهمني بشبق ملتهب ألهب النار في جسدي. مددتُ يدي إلي صدرها وداعبته من فوق ملابسها، ثمَّ رفعت الملابس عنها، وقبّلته بوحشيَّة. كانت تشتعل في ذهني صورٌ جنسيَّة وصفها العمال بكلمات ترتجف، وغرقت بعدها في الصّمت والخيال. ثمَّ مددتُ يدي المرتجفة إلى بطنها، وانزلقت شيئًا فشيئًا إلى الأسفل، وأنَّتْ أنينَ كائن متوحّش ملهوف. وفوجئت بنفسي أهمس في أذنها بكلمات بذيئة ونابية، يطيب للعمَّال نطقُها، وأسألها بوقاحة لم أعهدها في نفسي، إن كانت تريد أن أفعل كذا... وكذا... فتجيبني لاهثة: «أجل... افعل... أريد». فأغلو في لجة الهيجان، وأنزع عنها بنزق مضطرب، ويدين مرتعشتين، ملابسَها الداخليَّة، وأعتليها، وأبتلُّ بسائل ساخن يتدفَّق منها كأنَّما يتدفَّق من بركان. وأنزلق في فوهة ذلك البركان، أقتحمه بسهوله، كأنَّني أعود إلى كهف هُجِّرت ذات يوم منه عنوة. كهف أعرفه وأندفع إليه بقوَّة تزلزل سكونه، وتزلزلني، وهي تلهث تحتي وتلتهمني بفمها، وتنظر إليّ بعينين مفتوحتين متلهّفتين. وعلى الرّغم من عتمة اللّيل، كان يخيَّل إليّ أنَّني أرى بريقًا ناريًّا يشعّ في عينيها اللّتين لطالما كانتا مطفَأتين؛ بريقًا ينسكب من فيض نيران يحترق فيها جسدها وهو يغرق مع جسدي في طوفان متعة جارفة، تمتدّ في ظلمة اللّيل وتلتهم آماده وأسراره من دون أن تعبأ بمخاوفه ومحظوراته.

كانت تطوّقني وتشدّني إليها بيدين من حديد، كما لو أنَّها تخاف أن أنهض عنها، وكنت ملتصقًا بها والعرق يتصبَّب من جبيني ورقبتي، ويتفصَّد من كلّ جزء فيّ، وهي تشربه وتتأوَّه، إلى أن نرتعش معًا ونسقط معًا في نشوة عارمة.

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

تتسارع خطواتي على نحو عفويّ. تصادفني رائحة أطعمة تنبعث من مطاعم. تصادفني معدتي الخاوية، وحلقي الجافُّ. يصادفني مطعم رخيص. أشرب الماء الذي جلبوه لي، ولا ينطفئ عطشي. وأتناول بلا شهيَّة القليلَ من الطعام. ثمَّ تصادفني شمسٌ بليدة في السَّماء وريحٌ شرقيَّة مغبرة تلفحني وأشعر بجسدي يفقد قوامه الصلب ويضمحل، كما اضمحلّ آنذاك. تتطاول في ذهني تفاصيلُ تلك الخطيئة مثل ألسنة اللَّهب. كنت أنا الذي يحترق، ورمادُ هذا الاحتراق يهبّ عليّ ويغمرني ويغطّيني مثل الملح، فأضمحلّ. لماذا لم أسيطر على نفسي يومذاك؟

أراني ممدَّدًا إلى جانبها، غارقًا في الصَّمت الذي امتدّ بيننا. صمت ثقيل كأنَّ العتمة صار لها وزن. وجسدي لا يكفّ عن الضُّمور؛ جسدي كلُّه، إلى درجة كان يبدو لي فيها أنَّني أشبه بزّيقةً أرضيَّة رخوة، رشّوا عليها الملح فبدأت تضمحلّ. تمضي الدقائق ببطء وأنا أضمحلّ، وأضمحلّ إلى درجة لا يبقى فيها شيءٌ منّي سوى ذلك النبضِ البعيد المتسارع للرعب.

«إنَّني مبتلَّة جدًّا. يجب أن أغتسل. أنت أيضًا يجب أن تغتسل».

لا أجيبها، بل أسأل نفسي: كيف تجرَّأتُ على فعل ذلك؟

«أريد أن أغتسل». أسمعها في غمرة الصَّمت تقول ثانية. كل ما يُقلقها هو الاغتسال! فكَّرت: ثمَّة كره شديد لها بدأ يشتعل في داخلي. كره لم أشعر به تجاهها في يوم أبدًا. أجيبها:

ـ لن تغتسلي الآن. ستغتسلين في الصَّباح. إن سمعوك الآن فسيكتشفون فعلتنا، وسيغضبون كثيرًا ويعاقبوننا.

فتسألني بصوتها البطيء المذعور:

ـ لماذا؟!

يا إلهي! إنَّها لا تعرف «لماذا»، ولا تعرف أنَّ ما اقترفناه مصيبة. وحينما علمت بهذه الأخبار راحت تبكي، فأغلقت فمها بيدي.

تومض للمرَّة الأولى في ذهني فكرةٌ مثل الطلقة، تخترق روحي وتفتّتها، وتهيّج فيها زوبعةً من غبار رعب أسود يهطل من السَّماء: إنَّ عائشة ليست ساذجة وبلهاء فحسب، بل هي أيضًا على درجة من التخلُّف العقلي.

أقول لها إنَّها في حال بقيت هادئة وصامتة، فلن يكتشفوا أمرنا ولن يعاقبنا أحد، فتصدّقني، وتهدأ وتطمئن، لكنَّها قبل أن تتركني تعود إلى سؤالي ثانية:

ـ حتَّى اللَّـه لن يعاقبنا، إن صمتُّ؟!

أجيبها بضِيق: أجل، أجل، حتَّى اللَّـه. لكن حذار أن تخبري أحدًا عمَّا جرى! حذار. اتفقنا؟!

أرى وجهها في ضوء اللَّيل الشاحب يبتسم بحبور، مطمئنًّا إلى الوسيلة التي عثرت عليها وستجنّبنا عقاب اللَّـه، ومحتفيًا في الوقت ذاته بالأسرار التي نشأت بيننا. تجيبني:

ـ اتَّفقنا.

أواصل المشي بخطوات يُعييها الخذلان. يصادفني في أثناء ذلك كثيرٌ من الناس والسَّيَّارات. تصادفني فراشة تحوم حولي. يصادفني العدم. يصادفني أحمد بحزنه الرصين والرزين، ووجهِه الذابل، وعينيه اللتين تختزلان في نظراتهما كلَّ مأساوية الحياة. يقول لي: «وكيف لا يصير وجهي أشعثَ كمن أنهكه السَّفر الطويل؟ كيف لا تذبل وجنتاي ويمتقع وجهي»[1]. ويصادفني أبي أيضًا. يقف أمامي ساخرًا يضحك، ويقول لي: «أنت واهم ولن تنجز شيئًا.

(١) جلجامش.

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

سوف تموت من دون أن تحقّق شيئًا، فأنت فاشل يا بنيّ!». ويصادفني «أنا». أقف أمام أبي معجَبًا بيقينه، معجبًا بقسوته وبشرّه، ومحطّمًا، وفي الوقت ذاته أضحك معه.

تصادفني القطط المشرّدة. يصادفني ضجيجٌ. يصادفني أناسٌ وعماراتٌ وسيّاراتٌ وشوارع أسير فيها بلا غاية. يصادفني، كما في كلّ ساعة، هاتفي الصّامتُ الذي لا يرنّ. أنظر إليه وأسأل نفسي: لماذا أنتظر؟

ثمّ يصادفني مساءٌ. يصادفني بابٌ غرفة أفتحه وألج منه إلى الداخل. تصادفني غرفةٌ بلا نافذة، أقف في وسطها. لا أصدّق أنّني ذات يوم ارتكبت تلك الخطيئة.

كيف تجرّأتُ؟ يندفع هذا السّؤال من الهواء، كما لو كان صوتَ اللّـه: رهيبًا ومنتشرًا في المساء كأحزانه.

أجلس في الغرفة وحيدًا، مترقّبًا ومرعوبًا من قدوم اللّيل، متوهّمًا أنّه لن يأتي. يصادفني اللّيلُ، يصادفني دخانُ سجائر كثيرة أنفثه، فيتراكم وينحبس في فضاء الغرفة. يصادفني البرد ويغمرني بأوجاع موتى. يصادفني عجوزٌ مات في هذه الغرفة وتعفّنت جثّته. يصادفني كلُّ هذا العالم الحاضر هنا.

أنتِ وحدكِ من لا يصادفني.

❖❖❖

اللَّيلة الثَّالثة

تمدَّدت في الفراش وشدَدْتُ الغطاء وتكوَّرت تحته وأنا أرتجف بردًا. نظرت بحركة عفويَّة إلى الجدار بحثًا عن نافذة. لكن لا توجد نافذة. مجرَّد جدران صمَّاء تتدفَّق منها البرودة والرُّطوبة مثلما يتدفَّق الصَّمت من الفراغ.

حدَّقت طويلًا في العتمة وأنا أفكِّر في أنَّ كلّ ما حدث في الماضي ينتهي، لكنَّه لا يختفي. إنَّه يذوب شيئًا فشيئًا في الزَّمن، فيصبح قليل الكثافة، بيد أنَّ هذا المحلول الناتج من ذوبانه يظلّ يسري في دمائنا ويشكِّل مصدرًا لعذاباتنا. لم أعد أذكر وجه عائشة، فهو في مَخيِّلتي غائم للغاية، لكنَّني أذكر تمامًا ذاك الاحتقار الذي شعرت به تجاه نفسي آنذاك. كنت أحضِّر نفسي لأن أصبح إنسانًا مختلفًا، فثمَّة اعتقاد مضحك لديَّ بأنَّني خُلقت من أجل غايات عظيمة، وفجأة... هوب، سقطت في براثن الحقيقة: لست مختلفًا، ولم أُخلَق من أجل أيِّ غايات عظيمة، بل اكتشفت أنَّني أشدّ الناس انحطاطًا، وأعجز عن امتلاك زمام أمري، وتسيطر عليّ رغباتي، فأضاجع فتاة بلهاء مسكينة، وأفضّ بكارتها، بعد أن لجأتْ إلينا خوفًا من أبناء الحرام.

تبيّن أنّني أنا ابن الحرام ذاك. لماذا انصعتُ لتلك القوّة العمياء الطاغية؟ لماذا اضمحلَلْتُ أمامها... ثمّ اضمحلَلْتُ بعدها خجلًا وازدراءً للذات؟

مَن أنا؟ ما أنا؟

أظنّ أنّ عائشة كانت تعرفني أكثر ممّا أعرف نفسي، معرفةً فطريّة لا تحتاج إلى عقل ولا تُعنى بأوهامه. كانت أنثى وكنت في نظرها مجرّد ذكر... وثبت أنّني فعلًا مجرّد ذكر.

أراها تقف عند باب البيت تتابع خطواتي وأنا قادم من العمل. يثير سخطي ورعبي أنّها تنتظرني. لا أريد رؤيتها أو سماعَ صوتها. أريدها أن تختفي. أن تموت! وأتوقّف عند هذه الرّغبة فزعًا من انحطاطي إلى الدرجة التي أتمنّى فيها الموت لها، مثل أيّ مجرم حقيقيّ يشتهي موت ضحيّته، وقد يسعى إليه. أُسرِع خطاي، ملتفًّا حول البيت، هربًا من هذه الفكرة، ومتفاديًا اللّقاءَ؛ لقاءَ عائشة. يخطر في بالي، وهي تراني ألتفّ، ولا أدخل البيت، أنّها ستلحق بي. سيقودها أنفها البرّيُّ غيرُ المدجّن، متتبّعًا في الهواء، مثلَ كلب الأثر، خيطَ رائحة كثيفة ينفثها جسدي المتّسخ، والمبلّل بالعرق، ويجذبها.

أغلقت باب غرفتي، ودلقت نصف زجاجة الماء في فمي، وامتلأت معدتي، ولم أرتوِ. ظلّ حلقي جافًّا. ثمّ وقع نظري على فراش الجريمة. تُرى، من هو المجرم فينا: هي التي تشمّمتني وتحرّشت بي ثمّ جاءت إليّ، أم أنا الذي أذعنت لتحرشاتها واستجبت لها، ولم أقل لها عودي إلى فراشك؟

لا تزال بقعة الدّماء عليها، رطبةً وقانية مثل ختم بالشمع الأحمر، طُبع على باب سُجنت خلفه حياتي، في انتظار صدور حكم الإعدام. تخيّلت اللّحظة التي ستحلّ، عاجلًا أو آجلًا، وتُقرَع فيها طبولُ الفضيحة، معلنة خسّتي ونذالتي، وحافرة على جبيني وصمةَ عار أبديّ: هذا هو الفاعل! سيشيرون إليّ بالبَنان: هذا هو من هَتَكَ عرض تلك المسكينة البلهاء،

والتي لجأت إلى بيتهم، بعد وفاة أمّها، هربًا من بقائها وحيدة؛ هربًا بالذات من سافل قد تسوّل له نفسُه التسلُّلَ إلى وحدتها ليلًا. بل لعلَّ أيّ سافل آخر، مهما انحطّ، لن يجسر على الإقدام على هذه الرذيلة، وحرارةُ جسد أمّها لم تبرد في القبر بعدُ. سيقولون ذلك كلَّه، وسيدوّي عويل الفضيحة في كلّ الجهات، ويحطّمُني. لقد باتت حياتي خرابًا. لا أدري كيف أهرب، وإلى أين أهرب؟

انهرت جالسًا واحتويت رأسي بيديّ، مقاوِمًا رغبةً عنيفة في البكاء. عندما طرقت أمّي الباب، استلقيت فورًا متصنِّعًا النومَ. دخلتْ ودَنَتْ منّي ووضعت يدها على جبيني، وسألتني: «أَأَنت مريض؟»، فلم أجبها. سكنتُ للحظات مثلَ قتيل. «ما بك يا ولدي؟» ألحّت في السُّؤال، فخرج صوتي محشرجًا مجيبًا إيّاها بأنّني متعب فحسب. متعب جدًّا. جلستْ لدقيقة طويلة عند رأسي، لفحتني فيها تنهُّداتُ حسرتها، وهي تتألَّم من منظري لأنّني من شدَّة التعب، أنام في أسمال العمل المتّسخة، عاجزًا عن خلعها وغسل الأغبرة عن وجهي وجسدي، فاقدًا قدرتي على أكل لقمة تردّ إليَّ نضارةَ وجهي المصفرّ، وعلى شرب كأس شاي ساخن يعيد إلى صوتي المبحوح طراوتَه.

هببتُ جالسًا ما إن تركتني، وقد استبدَّت بي المخاوف من عائشة. فكَّرت في أن تجنُّبي لقاءَها يضعني على كفّ عفريت؛ فمثلها يصعب التنبّؤ بأفعاله. قلت في نفسي إنَّ الوقت قد حان كي أفكّر في سبل النجاة من هذه المصيبة، بدلًا من الاسترسال في الإصغاء إلى عويل الرُّعب والنَّدم.

خرجت من الغرفة والخوف ينتابني؛ خوف يشبه ذاك الذي نشعر به، حينما نمارس الأفعال للمرّة الأولى، ويهدّدنا فيها خطرُ الفشل. خائف من لقاء عائشة، وخائف من الجلوس مع أهلي، وخائف من الأكل، وخائف من صوتي، وخائف من عينيّ ووجهي.

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

وكما توقَّعت، ما إن رأتني عائشة حتَّى انفرجت أساريرها، وتراقصت في عينيها خفقاتُ ضوء، شعرتُ بأنَّها تنتزعه منّي فتزداد ظلمتي. وانتابتني نوبة كراهية أخرى لها، وتمنَّيت لها ثانية لو تختفي، مثلما تختفي الكوابيس التي نراها في نومنا.

اكتشفتُ بعد أن اغتسلت أنَّ أمّي أعدَّت بعض الطعام لي. فُرض عليّ أن أجلس معها ومع سائر إخوتي. بدا لي أنَّني في صدد استعادة مهارات فقدتها في إثر حادث مؤسف، وغدت صعبة: مهارة الأكل، والكلام، والنَّظر إليهم من دون أن تعلق عيناي بالفراغ فجأة، وتشخصا محدِّقتين فيه؛ مهارة الإجابة عن الأسئلة، والاستماع إلى أحاديثهم، والبقاء تحت مرمى عينَي أمّي اللَّتين تتابعانني بقلق. كيف أهرب منهما من دون أن أرتبك؟

جلّ ما كنت أريده هو أن يغيبوا كلُّهم، ويهبوني وقتًا كافيًا أختلي فيه بعائشة، كي ألقِّنها كيف تنساني، مستعينًا بالشيطان إن تطلّب الأمر.

انتهزت فرصة انشغالهم بمشاهدة مسلسل تلفزيونيّ. ولكم أسْعَدتْ عائشةَ رغبتي في الحديث معها، لكن آمالها خابت حينما رأتني جادًّا وباردًا تجاهها كصخرة من جليد. أحزنها ذلك، فشرحتُ لها سريعًا أنَّنا الآن سنتحدَّث، فحسب، عن سرِّنا. وبدَّد السِّحر الذي فاض من كلمة «سرِّنا» أحزانها، وأصغت إليَّ بكلّ حواسّها. ذكّرتها بضرورة الالتزام باتّفاقنا: أن تحافظ على صمتها ولا تخبر أحدًا بما حدث، لأنَّ هذا ينطوي على خطورة شديدة.

أثارها صوتي الخفيضُ، والتهمتني بعينيها وأنفها، وهي تردّ عليّ هامسة: «أذكر جيّدًا. ولن أخبر أحدًا». ثمَّ سألتها: «هل تحبّينني يا عائشة؟» فبرق شعاع ملتهب في عينيها، وأجابتني من دون تردُّد، وبصوت منفعل خرج من أعماقها مع تنهيدة: «كثيرًا، كثيرًا». فسألتها: «وستفعلين كلّ ما

أطلبه منك؟» «آه!» «إذن لا تهتمّي بي، ولا تنتظري عودتي، ولا تلاحقيني بنظراتك. تصرَّفي كأنَّك لا ترينني!». «كيف لا أراك وأنا أراك؟» سألتْ بدهشة. «أقصد ـ وهذا سرّ آخر بيننا ـ مثْلي أنَّك لا ترينني!» وعادت تبحلق فيَّ بتلك النَّظرة الغبيَّة التي تصفع المرء، وترميه في لجَّة اليأس، حينما يستنفد قدراته على التَّبسيط، ولا تفهم. قلت: «يعني، إن رأوك تنظرين إلي، وتنتظرينني، وتفرحين برؤيتي، فسيكشفون سرّنا ويعاقبوننا. أمّا إذا لم تفعلي ذلك، فلن يعرفوا شيئًا عن السرّ الذي بيننا، ولن يعاقبنا أحد». شهقت قائلة وقد فهمت الأمر: «يعني ألّا أحبّك أمامهم؟» قلت: «تمامًا. يعني تحبينني في السّر فقط، من دون أن يراك أحد». وسحرها من جديد رنينُ الأسرار والحبّ الخفيّ، وقالت لي هامسة: «اتَّفقنا». أضفت: «ثمَّ لا يجب أن تأتي إليّ في اللَّيل ثانية!» فاستبدّ بها الذهولُ من جديد، وسألتني: «متى آتيك إذن؟»، وتطلَّب الأمر منّي جهدًا عظيمًا كي أحافظ على هدوء أعصابي فلا تنفجر في وجهها. قلت: «لا تأتي...»، فتفاقم ذهولُها: «كيف سأحبّك إذن؟» قلت: «إذا جئتني، وفعلنا ذلك ثانية فسيغضب اللّـه منَّا، وسيحرقنا بالنار! أتفهمين يا عائشة؟! هذا حرام». «أجل... أفهم»، قالت بخيبة وحزن شديدين. «أتعدينني بأنّك لن تأتي يا عائشة؟». «أعدك!» ردَّت وهي تنظر إليَّ بعينين ضائعتين مخذولتين. قلت: «إذا أطعتني وفعلت ذلك كلَّه، فسأحبّك كثيرًا»، وكنت أقصد بالحبّ، أنَّني سأكفّ عن كرهها. وأعادت كلماتي إليها الحياةَ على نحو غريب، وسألتني بانفعال: «يعني ستأتي أنت إليّ؟!» وأدهشتني هذه النتيجة التي استخلصتها، فحدَّقتُ فيها منذهلًا، بيدَ أنَّني سرعان ما وجدت نفسي أجيبها: «أجل، سآتيك أنا». وبدا لي أنَّني عثرت على مخرج رائع ومقنع لها، يضمن عدم مجيئها، وينقذني منها. «ولن يعاقبنا اللّـه إذا جئتَ أنت»؟ «لا، لن يعاقبنا إذا جئتك أنا! اتَّفقنا؟» «اتَّفقنا»، أجابتني، وهي تغرق في سعادة بلهاء.

أنا أيضًا شعرت بتلك السعادة البلهاء وأنا أستسلم للثقل الذي حطّ في عينيّ فأغمضتهما. أعجبني السُّكون الذي انثال من الجدران، ومن رأسي، ومن الهواء.

وما لبثت أن امتدَّتْ من هذا الهواء يدٌ وهزَّت كتفي. هزَّتها بفظاظةٍ. هزَّتها طويلًا وبإلحاح كي أفتح عينيَّ، ففتحتهما.

رأيت عجوزًا بوجه غائم يقف أمامي، حاملًا رزمةً من أوراق اليانصيب، يرجوني أن أشتري واحدة. «قد تكون الورقة الرابحة من نصيبك! لا تتردَّد. اشترِ مئة ألف دينار بدينارين فقط». كان يقف أمامي ويعترض طريقي. ابتعدت عنه خطوة إلى اليمين فخطا مثلها ووقف أمامي: «بدينارين فقط». خطوت نحو اليسار، فخطا أيضًا نحو اليسار: «خذها، بدينارين فقط!»، فاستدرت إلى الخلف، وإذا به يقف في مواجهتي، ثمَّ اكتشفت أنَّه لا يزال يقف خلفي وإلى جانبي. إنَّه يحيط بي من كلّ الجهات. هو ذاتُه يقف خلفي وأمامي وإلى جانبَيّ! يا للغرابة! وأنا ألفّ وأدور باحثًا عن مخرج. ولا مخرج. كنت محاطًا بأربعة جدران ليس فيها أيُّ بابٍ أو نافذة، ثمَّ راح الهواء يختفي شيئًا فشيئًا، ولم يبق في الفراغ الذي خلّفه سوى رائحة جثَّة متعفِّنة. اختنقت وشهقت ودفعت بقوَّة لا أدري من أين حلَّت بي إحدى واجهات الجدران فانهارت وانهرت معها، وسقطتُ على الأرض محطَّمًا، متناثرًا إلى أشلاء.

ما الذي يحدث لي؟

❖❖❖

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

النّهار الرّابع

اعترض مدير المدرسة على مظهري. دعاني إلى مكتبه، وقال لي إنّه يجب عليَّ أن أقصَّ شعري وأحلقَ لحيتي وأغيِّر ملابسي، لأنَّ هذا المظهر لا يليق بمدرِّس، بل بالمتشرِّدين. إن مظهري هذا لا يسيء إليّ فحسب، بل يسيء إلى المدرسة كلّها أيضًا.

قلت له إنَّ المشكلة في المال، فالمرء يحتاج إلى المال كي يملك بيتًا، أمَّا من لا يملك المال فيتشرَّد.

سألني باستغراب واستنكار: كيف لا تملك مالًا؟ ألا تقبض مرتَّبًا؟

قلت: أقبض، لكنَّه لم يوفِّر لي سوى غرفة حقيرة، بلا نافذة. وفي داخلها، مثلما في خارجها، أنا متشرِّد.

لم يهتمّ بكلامي. أمرني بأن أَحضر في الغد في مظهر آخر، وإلّا فإنَّه سينظر في أمري. «على الأقلّ اغتسل يا رجل، ومشِّط شعرك وارتدِ ملابس نظيفة! لا أفهم كيف لا تخجل من هذا الشكل! على الأقل، اخجل من الطلّاب الذين تدرِّسهم!»

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

وانصرف، بوجهه المنزعج، ينظر في أوراق أمامه، وبقيتُ واقفًا أحدّق فيه، وفي خيالي يَلوح طيف عائشة الضبابيُ ممحوُّ الملامح. لاح لي صوتها أيضًا بلا ملامح، بل بلا صوت. كان مجرّد كلمات شاحبة وعتيقة ومهشّمة بفعل الزّمن. كانت قالت لي: «يجب أن أغتسل، أنت أيضًا اغتسلْ».

رفع المدير نظره إليّ قائلًا بعصبيّة: «لماذا لا تزال واقفًا مثل الـ...؟ في وسعك أن تذهب».

كنت أريدك أن تنقذيني من عائشة أيضًا. كان يجب أن أحدّثك عن قصّتي معها، لكنّني لم أفعل، لأنّني لم أجسر. كنت كلّما فكّرت في ذلك شعرت بألم لا يطاق، كأنَّ الكلمات ملتصقة بي، بجسدي وبروحي، ويتوجّب عليّ أن أسلخها عنّي كلمةً كلمة، مثلما يسلخ المرء طبقة جلد نمت ببطء فوق جلده.

من أين لي بماء بارد يذيب هذه الكلمات كما أذاب ذات يوم بقعةَ الدّماء التي سالت من عائشة والتصقت بغطاء الفرشة؟ كنت أظنّ أنَّ الأمر يحتاج إلى ماء يغلي، لكنّني فوجئت بالماء البارد يذيب اللّون الأحمر للدم ويغسله.

أتعطّش إلى جرعة طمأنينة وأمل كالتي روتني آنذاك، وجعلت ذاك الصفير المتواصل للرّعب والندم يخبو شيئًا فشيئًا في روحي. كنتُ طمأنت نفسي وقت ذاك بالقول إنّها الجريمة الوحيدة التي لا يمكن اكتشافها إلّا في الفراش، من قِبَل رجل آخر. وكما قال أبي فلن يوافق على الزواج منها إلّا أبلهُ مثلها.

أبي! ارتعد قلبي خافقًا. كنت محوته من ذاكرتي وفكري ما إن اجتازته عائشة في تلك اللّيلة من دون أن توقظه بمصادفة محضٍ، وهو نائم على المصطبة أمام باب المطبخ، هربًا من حرّ الداخل. كأنّما ظلّ نائمًا ويشخر

حتى تلك اللَّحظة. واكتشفتُ أنَّني، في أثناء رعبي وتأنيب ضميري، كنت أفكِّر في الفضيحة، وأقاويلِ الناس، وصدمةِ أمِّي؛ بل في اللَّـه أيضًا وعذاب جهنَّم. أفكِّر بصمت وحذر خشية أن أوقظ أبي. الأرض والسَّماء كانتا في جهة، وكان هو في الجهة الأخرى. جهة لم أجسر على النَّظر إليها، لأنَّني في اللَّحظات السَّريعة التي كانت نظرتي تفلت على الرَّغم منِّي نحوها، كنت أرى فيها يدَي أبي ملطَّختين بدمائي. حتمًا سيقتلني.

حسنًا، حسنًا! ردَّدت في نفسي، مهدِّئًا قلبي كي يكفّ عن خفقانه السَّريع، وشادًّا من عزيمة قدمَيّ كي لا أسقط جرّاء ارتباك خطواتهما. لن يكتشف أحد الأمر، لأنَّه لن يتكرَّر، ولأنَّ عائشة ستُبقيه طيّ الكتمان، ولأنَّ من سيتزوَّجُ بها سيكون أبله، لن ينتبه.

متى ستعثر لها على هذا العريس يا أبي؟

انتظرت. مرَّ يومان، ثمَّ ثلاثة، ثمَّ أربعة، ولم أسمع خبرًا. كان أبي يخرج ويعود خالي الوفاض. وفي أثناء ذلك، أخذت تمَّحي من ذاكرتي رويدًا رويدًا آثارُ الجريمة، ولم يعد شيء يشير إليها إلّا ذلك البرق الذي يشقّ عتمة اللَّيل، إذ يمرّ المشهد في خيالي وأراها تلهث تحتي، فيرتعد كياني، كذلك الرَّعدِ الذي يزلزل سكون السَّماء. أفتح عينَي وأنا أتصبَّب عرقًا، وأقفز هاربًا من الفراش، وأخرج إلى البستان. أسير بين أشجاره محاولًا استردادَ رعبي الذي خبا، وتركني نهبًا للخيالات، محاولًا استرداد لون دمائي إذ تغطي يدَ أبي، لعلَّها تردع رغباتي.

أمَّا في النَّهار، فكنت أنزوي في غرفتي، حينما أعود إلى البيت، متحاشيًا البقاءَ فيه على مرمى أنفاس عائشة، التي كانت تسترق النَّظر إليَّ بعطش كائن حزين ومذهول، وتسألني بصمتها: متى ستأتي إليّ؟ إلى أن أفقت جافلًا في اللَّيلة الخامسة ورأيتها عند باب غرفتي.

أدركت، وأنا أنظر إليها، أنّني لن أقول لها اذهبي وعودي إلى فراشك، لأنّني كنت أنتظرها. كان جسدي ينتظرها. تمشي نحوي وأنا أستسلم لتلك القوّة العمياء القاهرة التي تبدِّد كلّ مخاوفي، وتمسح غبار النَّدم بفكرة منسوجة من حرير: ففي كلّ الأحوال هي لم تعد عذراء، وسيان أضاجعتها مرَّة أم اثنتين!

«ألم يشعر بحركتك أحد، وينتبه إليك؟» أسألها.

ـ لا. كلُّهم غارقون في النوم.

فقلت وأنا أخلع ملابسي: هذا جيِّد!

فسألتني لاهثة عبر تشمُّمها وقبلاتها الملتهبة:

ـ ولن يعاقبونا؟

ـ لن يعاقبونا!

ـ حتّى اللَّـه؟

أجبتها وأنا أخلع ملابسي بيدين مضطربتين:

ـ سنحكي عن اللَّـه لاحقًا يا عائشة.

❖❖❖

كان الصَّباح أصفر اللَّون، وكنت أرى عائشة، من باب غرفتي المفتوح، تحمل طرف الأنبوب المطَّاطيّ، وتسلِّط الماء المتدفِّق منه على التربة عند أسفل الأشجار. ثمّ رأيتها تتوقَّف وتستند إلى جذع إحدى الأشجار وقد فلت الأنبوب من يدها، ثمّ رأيت أمّي تتَّجه نحوها. وسمعت صوت أبي في هذه اللَّحظة ذاتها، يصيح بها مؤنِّبًا لصرفها الماءَ هباءً. ثبت هذا المشهد، وظلّ مستقرًّا على تلك الحال، في ذاكرتي، كأنَّه لوحة: في خلفيَّتها هضابٌ جرداء قاحلة تمتدّ في هالة من ضوء عكر، يكدِّره غبار ساكن كما لو أنَّه محبوس في الهواء منذ الأزل وإلى الأبد.

ها هو نهار آخر يحلّ، أستيقظ فيه، وقد غدا قوامي الصَلب رخوًا ولزجًا. كأنَّ الصَّباح يأتي حاملًا الضياءَ، لا لشيء، وإنَّما فقط ليضيء خطيئتي. يُهيلها عليّ ضوءًا أبيض كالملح، فتندفع منِّي السَّوائل إلى الخارج، وأضمحلّ وأجفّ مثل بزّيقة لزجة.

كانت عائشة قد جاءت إليّ في ليلة الأمس، في مرَّة أخرى بعد انقطاع عدَّة أيَّام. اجتازت باب غرفتي ومشت نحوي في الظَّلام بخطواتها البطيئة ذاتها، وأنا، كما في كلّ مرَّة، أحدّق فيها بصمت. ومع كلّ خطوة تخطوها، كانت تهبّ من النافذة نسماتُ هواء تطيّر من رأسي تلك المخاوفَ النهاريَّة، وتداوي النَّدم بوشاح من النسيان. حينما اندسَّت إلى جانبي وراحت تتشمَّمني وتقبّلني، لم يبق في كياني إلَّا رغباتي الملتهبة، وصوتٌ راح يصدح في رأسي بكلمات حريريَّة سمعتها سابقًا: بما أنَّك ضاجعتها ثلاث مرَّات من قبل، فالأمر سيَّان أن تضاجعها للمرَّة الرَّابعة، ففي كلّ الأحوال هي لم تعد عذراء!

أذعنتُ مرَّة أخرى لها؛ لزيارة ليليَّة تحدث في قلب الظلام، في منأى عن عين ضميري. وعائشة مطمئنَّة البال إلى أنَّ العتمة تحجبنا عن عيون اللَّـه أيضًا.

صحيح أنَّها في النَّهار كانت هي التي تذعن لرغباتي، فتتحاشاني، ولا تُظهر أيّ اهتمام بي، لأنَّها تصدّق أنَّ ذلك هو من مقتضيات حبّنا، كي لا يشكّ فينا أحد، حتَّى اللَّـهُ، لكنَّ ذلك لا يشفع لها عندي، فما إن يطلع الصَّباح حتَّى يضجّ الضوء بصورتها التي هي عليها: بلهاء وغبيَّة ومسكينة، تلوذ بنا كي نحميها من الوحدة ومن أبناء الحرام! تلك الصُّورة التي تجعلني أختنق من شدَّة نقمتي عليها وعلى نفسي أيضًا.

كنت استلمت في اليوم السَّابق بقيَّةَ أجرتي عن عمل الشهر: ستِّين دينارًا. أعطيت أمِّي منها عشرين وأبقيت لنفسي أربعين. غيَّرت ملابسي

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

بسرعة واتَّجهت إلى عمّان. كنت أخشى أن يضيع هذا المبلغ من النقود، ويغدو من الصَّعب عليّ انتزاعُ فرصة أخرى للهرب من هنا، ولو ليوم واحد.

إنَّها المرَّة الأولى التي أسافر فيها إلى عمّان، وأسافر وحدي. دغدغت هذه الفكرةُ مشاعري بيدين واهيتين، وأنا جالس في الحافلة على كرسيّ قرب النافذة. كنت أنظر إلى جانب الطريق، وإلى الغبار الخماسينيّ السَّاكن في الجوّ، والذي يجعل الشَّمسَ قرصًا أصفرَ كئيبًا منزوعَ الضياء. بذلت قصارى جهدي لاجترار بهجة لطالما تخيَّلتها تغمرني وأنا أخوض هذه التجربة، إنَّما عبثًا. كأنَّني أحاول التلفُّع بها مثلما يحاول امرؤ التدثر بقطعة قماش مهترئة، ومنخورةٍ جراء التهام العثّ الطويل لها، وكلَّما لمسها أو شدَّها لتغطِّي جسده المرتجف بردًا، تفتَّتتْ في يده وتطايرت غبارًا. إنَّه عثّ خطيئتي الذي عاث فيها خرابًا. كيف أنجو من هذا العار الذي يمزِّقني؟ كيف أسلخه عنِّي؟

انتصب فجأة في ذهني سؤال: ماذا لو تعرَّض واحد من أصدقائي لما تعرَّضت أنا له، هل كان سيتصرَّف على النحو الذي تصرَّفت به أنا، أم أنَّ ثمَّة أخلاقًا وضوابط ستردعه؟ لا أدري. لا أعرف. وإذا كان تصرَّف على النحو ذاته، فهل ستُضنيه عذابات الضَّمير كما تُضنيني؟

أظنّ أنَّ العالم، في واقع الأمر، يغصّ بهؤلاء المذنبين، الذين اقترفوا الخطيئة، لكنَّهم يرفلون براحة البال، ما دام ذنبهم خفيًّا. يستمرُّون في حياتهم كأنَّ شيئًا لم يكن، بل ربَّما يشعرون بالسَّعادة لأنَّ في وسعهم إشباعَ رغباتهم، مجّانًا. وربما المجّانيَّة والسهولة هاتان تمنحانهم إحساسًا خفيًّا بتميّز من صنف آخر، كما لو أنَّ القَدَر خصَّهم هم تحديدًا بهباته.

لماذا أنا لستُ منهم؟ لماذا لا أنعم فعلًا بهذه الهبة المجّانيَّة؟ لماذا لا أستسلم لها، مثلما يستسلم الجائع لتناول طعام يحصل عليه في السّرّ ليلًا؟

إنَّه طعام محرَّم ومسروق، وأنا لست لصًّا، ولست أطمح إلى ذلك، ولا أريد أن أكون لصًّا... إنَّ ذلك يتناقض مع الغايات العظيمة التي يُخيَّل إليَّ أنَّني وُلدت من أجلها.

أردت، أم لم أُرد، ففي نهاية المطاف أنا لصّ؛ نذل وحقير وسافل. وكل تلك التصوُّرات السالفة عن نفسي ما هي إلَّا خدعةٌ. لم أُخلق لأهداف عظيمة، ولست ذلك الشابَّ الجادَّ، والمحترم، والخلوق.

هذه الكلمة بالذات - خلوق! - تؤلمني، تجرحني أطرافُها الحادَّة كالسكين، فأنزف. وفي نزفي أفكِّر في أنَّه لم يبق منِّي، من ذلك الذي كنتُه، أو كنت أتصوَّر أنَّني هو، سوى هذا الألم وهذه العذابات.

حسدت عائشة. لا أنَّة ضمير تنغِّص عليها حياتها، بل غدت سعيدة منذ بدء هذه العلاقة على نحو يفاقم كراهيتي لها. باتت عيناها تشعَّان بريقًا متوهِّجًا، وفاضت في جوانبها الحياة، وهي تُقْبِل عليها بحبور ونهم متزايدين: تضاعف شغفها بالطعام والشراب والنوم، وازداد وزنها على نحو ملحوظ، بينما فقدت أنا شهيَّتي لذلك كلِّه.

أنا في عمّان! أدركت ذلك فجأة، وهاجت في داخلي كراهيةٌ عظيمة لعائشة، ورغبةٌ في أن تختفي، وتتبخر كغمامة ضباب، فأعود إلى البيت وأجدها غائبة عنه وعن ذاكرة أهلي وذاكرةِ القرية وذاكرتي، بل عن ذاكرةِ الحياة كلّها أيضًا. كأنَّها لم تكن. كأنَّها لم تولد أبدًا. جعلتني هذه المشاعر والأمنيات أحزن، لا على عائشة، بل لأنَّها موجودة، ولأنَّني الآن، في عمَّان، فاقدٌ بهجتي بسببها، متخيِّلٌ الفرحَ الذي كان سيغمرني لو أنَّها لم تكن موجودة في هذه الحياة؛ أو لو أنَّ ذلك السَّائق الذي دهس أمّها، أبطأ سرعته؛ أو لو أنَّني لم أطأ على المسمار في ذلك اليوم؛ أو على الأقلّ لو أنَّها لم تأتِ إليّ في تلك اللَّيلة.

توقَّفت ونظرت حولي: جموعٌ من الناس، يسيرون على الأرصفة، ومحالُّ تجاريَّة متلاصقة، وسيلُ سيَّارات لا ينقطع، وشرطةُ سير، ومتسوِّلون بأسمال رثَّة، وجبلٌ تتراصُّ عليه البيوت. بناياتٌ عالية تثير رهبتي، ببياض واجهاتها ورزانتِها، وانعكاسِ الشمس على زجاج نوافذها، وأخرى هابطةٌ من طابقين، بشرفات عتيقة متهالكة، تنظر إليَّ بواجهاتها الشاحبة والحزينة.

مشيت في هذا الشلّال المتدفّق من الضجيج، تحت سماء زرقاء لا يجرح زرقتها الغبارُ. مشيت في شوارع تتفرَّع، لا أدري إلى أين تُفْضي. خذيني معك أيَّتها الطُّرقات.

دفعني العطش إلى دخول دكَّان وشراء زجاجة ماء، وقفت على الرَّصيف أشربها.

لكن، ما شأن عائشة في ما جرى؟ ما شأن الحياة التي أنجبتها؟ ما شأن المسمار، وما شأن ذلك السَّائق، ما دامت هذه الخطيئة ما كانت لتحدث لو امتلكتُ زمام أمري وقلت لها ببساطة: اذهبي وعودي إلى فراشك؟!

يطعنني هذا السؤال.

صادفت، في أثناء مشيي، كشكًا يبيع الكتب. نسيت عائشة وأنا أغرق في بحر العناوين. جالت عيناي بين رفوف الكتب، وشعرب بيدي متردِّدة ومرتبكة، وهي لا تعرف إلى أيّ كتاب تمتدّ لتأخذه، كأنَّني سألمس يد حبيبتي للمرَّة الأولى. آلمني هذا التَّشبيهُ ما إن خطر في بالي، فقد ذكّرني بأنَّني منذ جاءتني في تلك اللَّيلة أضعت كلّ أحلامي بحبيبة لا أعرف كيف أرسم صورتها. ظلّ نظري مصوَّبًا إلى أحد العنوانين، بينما ذهني غارق في ضباب هذه الفكرة وأساها.

«هل في وسعي أن أساعدك؟ هل تبحث عن كتاب محدَّد؟» انتشلني صوت رجل من شرودي، فقلت:

ـ أريد شراء روايات.

ـ عربيَّة، أم أجنبيَّة؟

تردَّدت في إجابتي، فقال ضاحكًا:

ـ تريد أن تصبح مثقَّفًا محترمًا أيُّها الشَّاب الصغير؟

أزعجتني كلمة صغير. صحيح أنَّ جسدي كان نحيلًا، وعمري قليل، لكنَّني كنت أشعر... بمَ أشعر؟ لا أدري. إنَّني إنسان صغير فعلًا. ضئيل مثل بزّيقة، أهالوا عليها الملح. «أجل»، أجبت الرجل ـ وكان هو البائع ـ بانزعاج آخر، لأنَّ هذه الإجابة تنطوي على اعتراف آخر بأنَّني لست مثقَّفًا، في حين كنت أرى نفسي، ولاسيَّما أمام أصدقائي، مثقَّفًا، متباهيًا بالمعارف التي أحصل عليها من هنا وهناك. تصنَّعت أنَّني مشغول بعنوان ما. في حقيقة الأمر، لم أكن مثقَّفًا، ولا محترمًا أيضًا. كنت صغيرًا ووضيعًا.

ـ دعني أنصحك بقراءة الأدب العالمي أوَّلًا. هل قرأت هذه الرواية؟

وشرع يقترح عليّ عناوين مختلفة، وأنا أوافق على كلّ ما يقدّمه إليَّ وأضعه جانبًا.

وما لبث نظري أن وقع على عنوان: «نقد الفكر الدّينيّ». انجذبت إليه، كأنَّما شدَّني بقوى مغناطيسيَّة، وتناولته بسرعة ولهفة، فنظر إليّ البائع ضاحكًا وعلَّق مازحًا:

ـ إذن، أنت فعلًا جادّ في طموحك إلى أن تصبح مثقَّفًا! هكذا يختلف الأمر، لقد فهمت الآن فقط عمَّا تبحث.

لم أجبه، لأنَّ ذهني شرد وأنا أحاول قراءة النَّصّ على الغلاف الخلفيّ. ذكَّرني هذا الكتاب بأبي، وتخيَّلت جنون غضبه من مجرَّد رؤيته العنوان. وذكَّرني أبي بعائشة، فتذكَّرت في تلك اللَّحظة أنَّني نسيتها، وأنَّها غابت عن

ذهني تمامًا في السّاعة الأخيرة، وأنا منشغل بتصفُّح الكتب. تذكَّرت أنَّني في هذا الوقت كنت أنا. لكنَّني سرعان ما تذكَّرت أيضًا أنَّني منحطّ وسافل، وليس لعائشة يدٌ في هذه الخطيئة، لأنَّها حينما أقدمتْ عليها لم يكن ليخطر في بالها أنَّها تُقْدم على خطيئة مدانة. أما أنا الذي يدرك ذلك سلفًا، ويدرك أنَّ هذا الفعل محظور، فإنَّني أقدمت عليه، ولم أبالِ. استسلمت لرغبتي وشهوتي الحيوانيَّة، وهُزمت... هُزمتْ تلك الأنا التي كنت أظنُّها أنا، وتبيَّن أنَّني مجرَّد حيوان عاجز عن الوقوف في وجه رغبات جسده.

حملت كيس الكتب، ورجعت أطرق رصيف الشارع بخطوات سريعة، كما لو أنَّني أحمل خَلاصي، حتَّى إنَّني شعرت بشهيَّة للطعام. وصادفت في أثناء سيري مطعمًا في زقاق صغير، مكتظًّا بالناس. دخلته لأنَّ أطباق الحمص والفول وكاسات الشاي على الطاولات طمأنتْ جيبي. أدهشني اكتظاظ الناس فيه، بل لاحظت أجانب بينهم، وفتيات جميلات وسعيدات ويضحكن، بشعور منسدلة على أكتافهن. لماذا فعلتها؟ لماذا لم تقل لها اذهبي وعودي إلى فراشك يا عائشة؟

غدا للطعام مذاقٌ مُرٌّ، فتركته ومضيت. مشيت في شوارع عمان مثلَ شبح معذَّب. أريد أن أرى بوضوح شوارعَ عمّان وبيوتها، وأناسها، لكنَّها تظلّ تغيب مثل مشهد بعيد مدثَّر بالضباب، أراه عبر غبش خطيئتي. كأنَّها لا تزال حلمًا، راود شخصًا عزيزًا، ولوَّح لي به، كما يلوّح بمنديل قبل أن يغيب، وهبت نسمة هواء في لحظة وطيَّرته من يده، فحطّ على كتفي. وها قد لحقت بذلك الشخص، حاملًا هذا المنديلَ لعلّي أصادفه هنا، يمشي على رصيف آخر، فألوِّح له بالمنديل، ويتذكَّرني، ويركض كلّ منّا في اتّجاه الآخر.

خذيني معك أيَّتها الطرقات.

رأيت أسراب حمام تحلّق فوق البيوت، وفضاءً له اتّساعُ الأحلام، وبيوتًا بيضاء شامخة، لها صمتُ الكبرياء، وهواءً معافًى من الغبار، وسماءً يبدو لي أنّها لا تهدّد بالعقاب، بل تدعوك في اللّيل، وهي ترنو إليك، إلى كتابة الشّعر، ودندنةِ أغنية تُردِّد لحنَها الشجيَّ معك.

لكن، بما أنّني لم أُرد هذا الفعل ـ وخصوصًا مع عائشة ـ فلماذا أقدمتُ عليه؟ لماذا استمررتُ فيه؟ وهل أنا الذي يستمرّ هو ذاتُه أنا الذي يرفضه؟

كأنَّ لي أنا أخرى عمياء ومتوحّشة، كشفتْ عن نفسها فجأة، وها أنا أرتعد خوفًا منها؛ خوفًا عميقًا، يرافقه دويُّ انهيارات مريعة لطمأنينتي الداخليَّة وثقتي بنفسي. كأنّني اكتشفت فجأة أنَّ هذه الطمأنينة والثقة بالنَّفس، كانتا دومًا بمثابة عمودين يسندان كياني، من دون أن أنتبه إليهما أو أفكّر فيهما، مثلما لم أفكّر يومًا في صلابة عظامي وأنا أمشي. فجأة، بتُّ أمشي بقوام رخوٍ يرنو إلى السّقوط في كلّ لحظة.

ها قد بتُّ إنسانًا خائفًا. خاطبت نفسي: تمشي خائفًا؛ تنام خائفًا؛ تنتظر اللّيل خائفًا من قدومها. وعلى نحو لاإراديّ تسترسل أفكاري: «ومن لاقدومها أيضًا»! حين تدوّي هذه الجملة في ذهني أنهض مذعورًا، وأمشي بسرعة هاربًا من طلقة تلاحقني، باحثة عن مستقرّ في صدري.

خذيني معك أيَّتها الطرقات الغريبة وداويني، ليس من عائشة، بل منّي.

❖❖❖

تميل الشمس إلى الغروب، وعلى حافَّة الطريق قطيعُ أغنام يمضي في اتّجاه يعاكس اتّجاه الحافلة التي دخلت حدود القرية. يسير في مقدّمة القطيع حمارٌ وراعٍ وكَبشان عُلّقت في رقبتيهما أجراسٌ وشرائطُ ملوّنة.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

أخذني رنين الأجراس ونظرت إلى الخلف، في اتّجاه القطيع الذي مرّ إلى جانب الحافلة. كأنّما نظرت إلى اليوم الذي جاءتنا فيه عائشة تحمل حقيبة ملابسها. سمعت رنين أجراس كأنّها معلّقة في رقبة ذلك النّهار، وهو يتقدّم قطيعَ أيّامي وقد باتت تمضي في اتّجاه يعاكس اتّجاهي. كنت أسير كالراعي أمام تلك الأيّام. أثق بنفسي وأؤمن بها. أعوّل عليها، وأربّي من أجلها الأحلامَ. يمضي ذلك اليوم إلى غير رجعة، وأنا أحدّق فيه من بعيد، أصغي إلى تلك الأجراس الحزينة وقتَ الغروب، لعلّي أعثر فيها على جرس يُسعفني من الانقشاع المتواصل للأوهام.

لم تكن عائشة تقف عند باب البيت، كما توقّعت، تترقّب عودتي، بل كانت أمّي. كان وجهها شاحبًا للغاية. وبدلًا أن ترد سلامي قالت لي: «امشِ أمامي إلى غرفتك»، ومشت إلى جانبي.

أغلقت الباب ووقفت قبالتي، ورأيت الدّموع في عينيها، على الرَّغم من نغمة صوتها الذي كان يرتجف من شدَّة احتقان الغضب: «كيف فعلتَها أيُّها النذل»؟ وقبل أن أفكّر في إجابة، كانت يدها تهوي على وجهي في صفعة قويّة. وسرعان ما سقطتْ في انفجار مدوٍّ للدموع، كأنَّها هي من تلقّى هذه الصفعة: «كيف فعلتَها أيُّها الحقير؟ كيف طاوعك ضميرك وهتكتَ عرضها؟». وانهارت على الأرض تنتحب: «إنَّها حامل أيُّها الوغد. كيف طاوعك ضميرك؟ وأنا التي كنت أظنّك مؤدَّبًا؛ بل كنت أظنّك ملاكًا؛ بل لو قالوا لي إنَّ الملائكة قد تفعل ذلك لربَّما صدَّقتهم، لكن لو أخبروني عنك لكذّبتهم ولما صدّقت. وإذ بك حقير ونذل، تعتدي على فتاة بلهاء لجأت إلينا كي نحميها! ألهذه الدرجة تصل بك النذالة؟ كيف فعلتَها؟ لا أصدّق أنّك فعلتها! يا ويلي. يا ويلي من هذه الفضيحة! يا ويلك من اللّـه. يا ويلنا من الناس».

كانت تردّد عبر دموعها وشهيقها، وأنا أسمع خبيط كفّيها على ساقيها. وكنت أحتوي رأسي بيدي، عاجزًا عن التقاط فكرة؛ عاجزًا عن الوقوف؛

عاجزًا عن الجلوس؛ عاجزًا عن النَّظر إليها. أحتوي رأسي بيَدَيَّ، وألفّ وأدور في الغرفة، وأتقلَّص وأذوب، وروحي تتبخَّر منّي خجلًا وعارًا ورعبًا. لا أدري ماذا أفعل، لا أدري كيف أتنفَّس، وكيف أعيش:

ـ حامل! أأَنت متأكّدة؟

ـ بالطبع متأكّدة! ثمَّ اسأل نفسك.

أطرقُ رأسي بالحائط:

ـ لا أدري كيف حدث ذلك يا أمي!

«كيف لا تدري؟» وصرختْ بصوت أعلى: كيف لا تدري أيُّها السّافل؟ ثمَّ انتبهتْ لصوتها، وعادت تسألني بصوت لاهث ومرتجف ومنخفض: قل لي كيف لا تدري!

«لقد جاءت إليّ في اللَّيل وضعفتُ. لم أكن أريد ذلك، لكنَّها هي التي جاءتني. هي التي اندسَّت إلى جانبي في الفراش!» قلت وأنا أذوب خجلًا، إذ لم أتخيَّل في يوم من الأيَّام أنَّني سأضطرّ إلى تكبُّد معاناة موقف كهذا أمام أمّي. لكنَّ الخجل كان محتمَلًا أمام الندم الذي أخذ يحيلني إلى رماد.

ـ كان في وسعك أن تطردها، فهي حمارة ولا تفهم.

صرخت بي. لا أدري بماذا أجيب أمّي. كيف لي أن أختفي من أمامها؟ كيف لي أن أتلاشى بخارًا يحمله الهواء عبر النافذة؟ كيف لي أن أستحيل إلى لاشيء؟ بيد أنَّني شيء لا أمل له بالهرب والاختفاء والتلاشي، وعائشة حامل من هذا الشيء.

ـ أأَنتِ متأكّدة من أنَّها حامل؟

ـ اسألْ نفسك!

أغرز أظفاري في وجهي: هذا ما لم أحسب حسابه. هذا ما لم يخطر في بالي أبدًا: حامل، وثمّة جنين في بطنها منّي! أنقذيني يا أمّي. امحي هذه الحقيقة. افعلي شيئًا فيذوب هذا الذي في رحمها، فلست مسؤولًا عنه. كأنّني تعرّضت لخديعة. كأنّه انتُزع منّي انتزاعًا بفعل قوًى قاهرة هزمتني. أنقذيني يا أمّي. أَدركيني يا أمّي. انتشليني من هذا الغرق.

ـ لقد استوطأتَ حائطها أيُّها السافل. أبوك سرق مالها وأنت هتكت عرضها. يا ويلنا من اللّـه. يا ويلنا من الفضيحة.

وكادت تختنق وهي تردّد ذلك، وهبّتْ نار أخرى في داخلي وأحرقتني: فعلًا! فيمَ أختلف عن أبي؟ لقد انساق هو خلف رغبته في المال فسرقها، وانسقت أنا خلف رغبتي في الجنس فمارسته معها؟ فلِمَ أختلف عنه؟

أردفتْ أمّي عبر نحيبها: «لو كان لها أب لقتلك في هذه السّاعة»... وصمتت لحظة أضافت بعدها: «هذا في أفضل الأحوال!». ونظرت إليّ بوجهها المسودّ، وأذعنتُ لرغبتها التي رأيتها في عينيها، وسألتها: ما هي أسوأ الأحوال؟ فقالت: «أن تتزوّج بها!» ولم أعرف كيف انهرتُ عند قدميها، وطفقت مثل طفل أنتحب وأتوسّل إليها الصفحَ والغفران كما لو كانت هي من سيمنحني إيّاهما.

جاء أبي في هذه اللّحظة. اقتحم الغرفة اقتحامًا كعادته. تيبّست أطرافي وقلت لنفسي: الآن يجب أن أموت. كان يحمل في يده حزامًا، ولم أحرّك ساكنًا. وحدهما عيناي كانتا تتحرّكان في الفراغ بدهشه، تفتّشان عنّي، وعن وهم ذلك الشّخص الآخر الذي كنت أظنّ أنّه أنا: الملاك الذي كانت تتصوّره أمّي، وخذلها وخذلني، فقد تبيّن أنّني وغد وسافل، مثلُ أيّ سافل آخر. لم أدافع عن نفسي. بقيت مرميًا على الأرض أسمع عويل أمّي، وهو يجلدني، ويركلني، ويبصق عليّ، مستحضرًا كلَّ قاموسه من الشتائم.

وهذا العذابُ يعجبني، وثمَّة صوت في داخلي يطلب المزيد: اضربْ أكثر، اجلدْ. اقتلْني ولا ترحمْني.

تعتريني نشوة العذاب، كأنَّني أنتقم من جسدي، وأريد له أن يعاني الآن كلَّ الآلام التي في هذا العالم، لعلَّه يتطهَّر من خطيئته. «لقد تآمرتَ عليّ يا ساقط. تريد أن تفضحني وتمرّغ وجهي في الطين. تآمرت عليّ يا سافل. يا كلب. يا وسخ. سأقتلك أيُّها السّاقط، لن تنجو اليوم من بين يدَيّ»؛ أسمعه يصرخ بي.

أجل، أنا كائن ساقط، ولا أريد النهوض. أريد أن أموت الآن، وأن ينطفئ هذا الصفير الحارق للندم، وأن ينكتم هذا الدويّ المؤلم للعار، وأن تخرج روحي من النافذة مع الهواء، تطفو بلا وزن وبلا أحزان، وتنتشر في اتّساع الصَّمت والفراغ.

❖❖❖

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

اللَّيلة الرَّابعة

سخّنتُ الماء في الدلو، ورحت أستحمّ رضوخًا لطلب المدير. يرتجف جسدي الهزيل المتهالك من البرد. يروّعني نحوله، ومنظرُ عظامي النَّاتئة. سأسقط عمَّا قريب. تبعث هذه الفكرة فيَّ حزنًا غريبًا، لكنَّ الدُّموع لا تصعد إلى عينيَّ. تصطكّ أسناني من البرد. وعلى جسدي تنتشر حبيبات القشعريرة. أدلق ماءً دافئًا على رأسي، وأشهق، وأسمع في شهقتي تأوُّهات عجوز يحتضر.

بدأت معدتي بعد الاغتسال بالعويل جوعًا. لم أتناول اليوم ـ أيضًا كما في كلّ يوم ـ سوى ساندويش فلافل، وليس في جيبي سوى خمسة عشر دينارًا، يجب أن تكفيني حتَّى آخر الشهر. خمسة عشر دينارًا مقسَّمة على عشرين يومًا. كلُّ يوم أقلُّ من دينار. يا للرَّوعة! كلّ شيء لديَّ يشارف على الانتهاء: نقودي، سجائري، خطواتي، آمالي وانتظاري.

استلقيت في الفراش وتدثّرت بالغطاء ناشدًا بعضَ الدفء. كنت مررت في محن والآم أشدَّ من هذه قسوةً، ونجوت. كيف نجوت؟ لا أدري، لكن ذلك بالضَّبط ما يبعث لديَّ الأمل في أن أنجو هذه المرَّة أيضًا. أقصد الأمل الخفيَّ

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

الذي يقعي في ركن من روحي بقرنين شيطانيَّين، ولم ينفكّ في يوم يقول لي: ستنجو وستبقى. لماذا؟ من أجل ماذا أبقى؟ كان أحمد متمرِّدًا، رفض الاستمرار في الإذعان للذلّ والألم. أما أنا فجبان. أذعن، على أمل حدوث شيء ما، لأن رغبتي في الحياة تنتصر دومًا على رغبتي في الموت. ما الذي يمكن أن يحدث أيضًا غير صفعات أخرى. لماذا لا أنتحر الآن؟

كنت آنذاك أسأل نفسي أيضًا، لماذا لا أنتحر وأنجو من هذا العار الذي يمزِّقني؟ أنجو من جنين لا أريد رؤيته طفلًا في يوم من الأيَّام؟ أسأل نفسي وأواظب، كأنَّما في السّرّ عن نفسي، على انتظار حدث لا أدري ما هو، سينقذني. كنت أسمع المساءَ حين يهبط، وأسمع الضوءَ في الصَّباح حينما ينتشر. أسمع الهواء حينما يمرّ بشجرة الصَّنوبر، وأسمع ضوضاء الطُّيور عليها. وكان يحدث كلّ ذلك في عالم قصيّ لم أعد أنتمي إليه، وأردِّد لنفسي أنَّني لا أريد أن أنتمي إليه. أريد أن أموت، لكنَّني لم أمت.

كانت الأفكار ذاتها تظلّ تحوم في رأسي في دوَّامات، وكلّ ما كنت أفعله هو الاستسلامُ لها، ولاستحواذها عليّ، وهي تعصف بي، تطوّقني، تلتفّ حولي وتدور بي، وتشدُّني بقوَّة إلى الأسفل، ولا تهدأ إلَّا حينما تقذف بي إلى الحضيض.

كانت السّاعات تمرّ ببطء، يأتي بعدها المساءُ ببطء، ثمّ يتلوه الصَّباح. ساعات طويلة ونهارات طويلة أظلّ فيها راقدًا تحت ثقل هواء بلا هواء وبلا آمال. عيناي مفتوحتان تحدِّقان في الفراغ. تلفحني أمواج الندم وتغمرني بزبدها الأبيض اللّزج، ثمّ تنحسر، ثمّ تغمرني ثمّ تنحسر، ويبقى زبدها عالقًا في روحي، يتراكم عليها مرَّة تلو الأخرى.

وفي البعيد، أَلوح لي جالسًا على عتبه باب الغرفة متوثِّبًا للقفز في حضن الحياة، لا يعيقني سوى المرور البطيء للزّمن. كان هذا المشهد يمرّ

في خيالي مثل ذكرى حزينة. كأنَّ ذاك الشَّاب، الذي كنت أظنُّه أنا، مات. وظهر فجأة، بدلًا منه، شخصٌ آخر ينتظر في ظلمة اللَّيالي عائشة، لا يعذِّبه شيء سوى اللَّحظة التي يعتليها فيها.

حينما كان باب غرفتي ينفتح، كنت أدفن رأسي تحت الغطاء، لأنَّني أخجل من رؤية نوال. كانت تضع صينيَّة على الأرض عليها طعام، وتقول:

ـ ستموت إن بقيت على هذه الحال. عبثًا تفعل ذلك بنفسك! ثمَّ دعني أذكِّرك بأنَّك شاب، لكنَّك تتألَّم كما لو كنت فتاة فقدت شرفها. ثمَّ لا تنسَ أنَّها هي التي جاءت إليك!

فأسأل نفسي: ألم أفقد أنا أيضًا شرفي؟ ثمَّ ما معنى الشرف، إذا لم يكن تلك اللَّحظةَ التي كان يجب عليّ فيها أن أقول لعائشة البلهاء، اذهبي وعودي إلى فراشك، ولم أقل؟ إذ كان يجب عليَّ حينما كانت تعود في المرَّات التالية أن أقول لها عودي إلى فراشك، وأيضًا لم أقل؟ ما هو الشرف يا نوال؟ إنَّ روحي عفنة، وقذرة، وما كلُّ ذلك الشرف الذي كنت أتخيَّله فيّ إلَّا كذبة.

أظلّ أدفن رأسي تحت الغطاء. تضيف نوال:

ـ اسمعني. يجب أن تأكل، لقد حدث ما حدث، ولست وحدك المخطئ فيه.

لكنَّني لم أمتلك زمام أمري وانصعت لها. تلك هي الحقيقة التي تُشعرني بعار يضاهي العار الذي أشعر به جراء ارتكابي هذه الخطيئةَ. لقد تبيَّن أنَّني بلا إرادة إلى درجة مثيرة للخزي؛ إلى درجة لا أستطيع أن أرفع فيها الغطاء عن رأسي لأنظر في وجه أختي نوال.

ثمَّ تخبرني نوال بأنَّ أبي قد عثر لها، على ما يبدو، على عريس، وتؤكِّد لي أنَّ المشكلة ستُحَلّ عمَّا قريب، فتسكن أفكاري، بينما ثمَّة ضوء ذابل يتسلَّل إليها.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

لكن هذا الضوء سرعان ما ينطفئ: كيف ستُحَلّ المشكلة يا نوال وهي حامل والجنين الذي في بطنها منّي؟ ليُخبرْني أحد ما، كيف سأحيا وثمّة طفل أعرف أنّه ابني، وأكرهه سلفًا، لأنّه تكوّن في بطنها بخديعة، بمؤامرة حاكتها قوى ما غيبية ضدّي. انتزعتْه منّي انتزاعًا. أكرهه مثلما أكره أبي ويكرهني.

جاءت أمّي إليّ في النّهار التّالي، وقالت لي:

ـ يجب أن تأكل. فلا أريدك أن تموت. ثمّ إنَّ هذه البلهاء العاهرة هي التي جاءت إليك. صحيح أنّه كان في وسعك أن تطردها، لكنَّك في نهاية المطاف ذَكَر.

ذَكَر! هوت عليّ هذه الكلمةُ كالمطرقة، وشجَّت رأسي. ذكّرتني بأنّني حيوان، وتصرَّفت كحيوان. امتقع وجهي وصَرَرْتُ عينَيَّ المغمضتين، كما لو أنَّ رأسي شُجَّ فعلًا.

أضافت أمّي مؤكّدة خبرَ العريس الذي جاء اليوم لخطبتها، وتمَّ الاتّفاق على كلّ شيء، وحُدِّد موعد العرس بعد أسبوع، «إذ يجب أن تتزوَّج سريعًا». وطمأنتني ـ وشعرتُ بالوجع يهطل من كلماتها، فقد كانت تلفظها بصعوبة وهي تتنهَّد بين اللَّحظة والأخرى ـ إلى أنّها خوّفت عائشة من عواقب اكتشاف أمر عذريَّتها وحملها، ولقَّنتها، وستلقّنها مرّة أخرى، كيف تتصرَّف في ليلة الدُّخلة، كما لو كانت عذراء. وإن حدث واكتشف العريس أنّها ليست عذراء، كيف تكتم كلّ شيء، وتدّعي الجهل. المهمّ ألّا تكشف أنَّ هذا الأمر حدث في بيتنا. ثمّ إنّها لقَّنتها كيف تخفي أعراض حملها، وتظهرها بعد شهر، وكيف أنّها ستظل على تواصل معها، توجّهها وتنصحها... ثمّ...

«حسبك يا أمّي»، صرخت رغمًا عنّي، ورفعت الغطاء عن رأسي: حسبك! لا أستطيع أن أسمع المزيد. فهزّت أمّي رأسها وصمتت، ثمّ قالت:

ـ كنت فقط أريد أن أطمئنك، وخصوصًا أنَّ العريس مثلها: أبله، ولا أظنّ أنَّه سينتبه إلى أنَّها ليست عذراء!

فهتفتُ بصوت مخنوق:

ـ وقد لا ينتبه إلى أنَّها حامل، لكن ذلك لن يغيِّر شيئًا من الحقيقة.

ظلَّت أمِّي صامتة لا تعرف ماذا تقول، ثمَّ شرعت تتوسَّل إليّ:

ـ أرجوك تناول بعض الطعام، فستموت حقًّا إن بقيت ممتنعًا منه، وتأكَّد من أنَّ شيئًا لن يحدث إلَّا ما كتب اللَّـه. فلنتَّكل عليه في هذه المصيبة.

أفزعني بأنَّ كل ما يُقلق أمِّي هو امتناعي من الطعام وتعرُّضُ حياتي للخطر. لم تكن عائشة تُقلقها، ولا يُقلقها استمرارنا في الجريمة ضدَّها، بل إنَّها لقَّنت تلك البلهاء المسكينة كيف تُبقيني وتُبقي هذه العائلة التي سرقت أموالها وانتهكت عرضها، في مساحة البراءة. أيُّ انحطاط هذا؟ أيّ حضيض وجدت نفسي فيه؟

استمرَّت أمِّي تحدِّثني عن أن أبي عثر على هذا العريس منذ زمن، «أظنّ أنَّ أهله وافقوا عليها لأنَّهم يطمعون بحصَّتها في البيت وفي قطعة الأرض التي ورثتها عن أمّها. لكنَّ أباك كان يؤجِّل الأمر إلى حين يحلّ مسألة حصر الإرث للبيت».

فلت الأنين من صدري حارًّا وحارقًا على الرّغم منِّي، ووجدتني أصرخ بها:

ـ ربَّاه، من أين لكم بكلّ هذه النذالة؟

فردَّت عليّ بعصبيَّة منفجرة في وجهي:

ـ لكم؟! أتجمعني بكما أنت وأبيك؟ هو الذي سرقها وأنت الذي انتهكت عرضها؟! ما الذي فعلته أنا؟ لكنْ، معك حقّ، فها أنا أمشي معكما

لا لشيء إلّا خوفًا من الفضيحة. لا أدري إن كان اللّـه يسمعني وأنا أتضرّع إليه في اللّيل والنّهار لأن يغفر لي ذنوبًا تدفعانني إلى ارتكابها بحقّها.

«ارحميني يا أمّي!» صرخت بها.

ـ وأنا من سيرحمني؟ وهي... من سيرحمها يا بنيّ؟

لست أدري. ما أدريه فقط... ما أنا على يقين منه، هو أنّني أشدّ انحطاطًا من أبي، ذاك الرجل الذي كنت أنظر إليه بتَعالٍ خفيّ، كما لو كنت أنا رمزًا للإنسان، وكما لو كان هو رمزًا للخراب.

تفاقم فجأة شعوري بالغثيان والدوار، وغام العالم في عينيّ، ثمّ انطفأ وأظلم، وغبت وأنا أسمع صوتًا في داخلي يهتف: لقد متّ. لكنّني سرعان ما أفقت على صفعات وماء بارد تدلقانه عليّ. رأيت وجه نوال ووجه أمّي يطلّان عليّ شاحبين وغائمين. كانت أمّي تبكي، وتتوسّل إليّ أن أنهض وأشرب كأس عصير. أسبندتني نوال وهي تهدّدني كأنّها تهدّد عائشة، باللّغة نفسها: «إذا لم تشرب العصير وتأكل هذه الشوربة، فسنأخذك فورًا إلى المستشفى، وهناك سيُطعمونك رغمًا عنك. وقد يسألون عن سرّ حالتك، وقد يسأل الناس عن سرّ مرضك ويربطونه بزواج عائشة السّريع والمفاجئ، وأنت تعلم مخيّلة الناس هنا!»

أجل، يا نوال! خاطبيني كما تخاطبين عائشة، فأنا مثلها، غبيّ وبلا عقل. خاطبيني بهذه اللّغة لأنّها تخيفني فعلًا، مثلما تخيف عائشة. لأنّني أخاف الموت، وأريد أن أعيش، إنّما بلا عائشة، بلا أيّ ذكرى لها في مخيّلتي. بينما هي موجودة، في الواقع وفي خيالي، وهي حامل منّي. كيف أعيش؟ كيف سأعيش؟

جلست أمّي إلى جانبي وأصرّت على إطعامي الشوربة بيدها. طعمها مُرٌّ، مثلُ أفكاري. لكنَّ أمّي رفضت أن تتركني في حالي. أصرّت على أن

أتناول الصحن كلَّه. فتَّتتْ قطع دجاج صغيرة ووضعتها في الملعقة، وهي ترجوني أن أنهض وأعود إلى الحياة، وألّا أقتلها وأموت. لكنَّني لا أموت، ولا أنتحر، ولست أدري ماذا أنتظر.

عندما تيَّقنتْ أمّي من أنَّني استردَدْتُ بعض قواي، تركتني في عهدة نوال. ولاعتقاد نوال أنَّها ستواسيني، راحت تحدِّثني عن عريس عائشة الأبلة مثلها:

ـ في عينيه بعضُ الحَوَل. كنت أظنّ أنَّه ينظر إليَّ، حينما دفعني الفضول لأجلس معهما لدقائق، لكنَّ أمّي أخبرتني بأنَّه كان ينظر إلى عائشة: بهيام! إنَّه سعيد جدًّا بها. وهي أيضًا باتت سعيدة به، بعد أن أقنعتها أمّي بأنَّك سافرت إلى عمَّان ومضطرّ إلى البقاء هناك، ولن تعود، وأنَّ هذا الشَّابَّ يحبُّها وسيُسعدها ويهتمّ بها ويدلِّلها.

فهمت حينها لماذا كانوا يتواطأون معي حينما أذهب إلى المرحاض، ويحتاطون كي لا أرى عائشة ولا تراني. ثمَّ تذكَّرت ـ هل نسيت؟ ـ أنَّها حامل، وأنَّني الآن دخلت في دائرة تربطني بأبلهين معًا: هي وعريسها، فهناك جنين في أحشائها. كلُّنا الأربعة أصبحنا نشكِّل مربّعًا، لا أعرف كيف أنتشل نفسي منه، ولا أعرف كيف أنساه.

حدَّقت نوال في وجهي كما لو أنَّها قرأت أفكاري، ثمَّ قالت:

ـ المسكينة، لقد ضربها أبي ضربًا مبرّحًا وتعمّد أن يركلها بقدميه على بطنها على أمل أن تجهض. لقد تألَّمت وبكت إلى درجة تقطّع القلب.

«لم أسمع صراخها!» هتفتُ باستغراب، في رغبة منّي في تكذيب الخبر، فصراخ مثل هذا لا بدّ من أن يصلني عبر الجدار. ردَّت نوال:

ـ لقد أغلقت أمّي فمها بيديها كي لا يجرَّ صراخُها الجيرانَ إلينا، لهذا لم يصدر عنها سوى أنين مكتوم.

«أكانت أمّي متواطئة مع أبي في ضربها ومحاولة إجهاضها بهذه الوسيلة؟» سألتُ نوال بذعر.

ـ لا، لكنَّها خافت من صراخها وانفضاح الأمر. كانت تغلق فمها، وتتوسَّل إلى أبي في الوقت نفسه أن يكفّ عن ضربها، وكنت أنا أيضًا أتوسَّل إليه أن يكفّ عنه. وحاولت منعه مرارًا، بيد أنَّه كان أقوى منّي ويدفعني بقوَّة عنه. لو كان فهد هنا لربَّما عاوننا عليه. لست أدري لماذا لم يحضر في هذا الأسبوع، بينما نحن في أشدّ الحاجة إليه.

مزَّقني ألم آخر، وانتابني ندم عارم لأنَّ هذه المسكينة كانت ضحيَّتي. أهي ضحيَّتي أم أنا ضحيَّتها؟ لا أعرف مَن منّا ضحيةُ الآخر؟ مَن هو المجرمُ فينا؟ ضحيَّةُ مَن نحن الاثنان؟ أتخيَّلها وأبي يضربها، وأشعر بركلاته تكسّر روحي وتفتّتها.

استمرَّت نوال:

ـ أقنعته أمّي، بعد عناء، بأنَّها في حال أجهضت بهذه الطريقة فقد تصاب بنزف، ونضطرّ إلى أخذها إلى المستشفى، فينفضح الأمر. وإذا لم نأخذها فقد تموت ونُتَّهم بقتلها، فضلًا عن الفضيحة. فأدرك الأمر وكفّ.

«ولم تجهض؟!» سألت بخيبة، كما لو أنَّ فعل أبي راقني. أريدها أن تجهض من دون أن تموت، ومن دون مستشفى، ومن دون فضيحة، ومن دون نزف وخطر. أريد لهذا الجنين أن يموت، أن يتفتَّت في داخلها ويسقط منها بصمت، كي أقوى على نسيانها ومحوها من ذاكرتي. قالت نوال:

ـ لا، بالطبع لا، فجسمها قويّ، وثمَّة طبقات دهن تحمي رحمها.

جاء أبي في المساء إلى غرفتي ليطمئنّ عليّ.

وقف بالقرب منّي، وسألني عن حالي بعد أن أخبروه بأنَّني فقدت الوعي. أجبته من دون أن أنظر إليه، بصوت محشرج، بأنَّني على ما يرام. قال

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

إنَّ الموضوع لا يستحقّ أن أموت من أجله. ثمَّ جلس وراح يبتسم، ويحقِّق معي بشأن الطريقة التي حدث بها الأمر. شعرت بضيق من أسئلته، ولم أعرف كيف أتهرَّب من الإجابة، وظلَّ يلحّ، إلى أن انتزع منِّي معلومة يعرفها: أنَّها هي التي جاءت إليَّ في اللَّيل، وتشمَّمتني، وقالت لي إنَّ رائحتي تعجبها.

ـ وبالطبع، لم تكذّب أنت خبرًا! «وطلعت زلمة من ظهر زلمة يا ملعون»!

وراح يقهقه بنشوة، مفتخرًا برجولتي التي له يدٌ فيها.

صعقني ذلك. لم أكن قد رأيته أو سمعته، من قبلُ في يوم من الأيَّام، يُعجَب أو يفتخر بفعل أقوم به ويُضحكه ويُسعده، مثل هذا الفعل. وبقيت مصعوقًا طوال اللَّيل، لأنَّني لم أعرف لحظتها لماذا يصلِّي أبي، ومن أين يستمدّ قِيَمَه، وما هي هذه القِيَم؟

رأيت عند آخر اللَّيل فراشةً عملاقة تحلّق قادمة من بعيد. كانت تقترب منِّي، وكنت أرى مكان عينيها فراغين مهولين، جعلاني أرتجف رعبًا. خيَّمت فوقي بجناحيها اللَّامتناهيين، فانطفأ شحوب النهار وأظلم. وما لبثتُ أن اكتشفت أنَّني أجلس على عتبة باب غرفتي في القرية، وقد انتبهت فجأة إلى أنَّني أجلس في العتمة، وأنَّ النهار انقضى، وأدركت ـ لأسباب غامضة ـ أنه لن يشرق ثانية.

استيقظت مرعوبًا، ورأيت جثَّة عجوز تتلوَّى أمامي. وفي مكان عينيها هوَّتان ينبعث منهما الظلام، وينتشر من حولي. سألني:

ـ متى ستنتهي هذه الحرب؟

❖❖❖

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

النَّهار الخامس

استيقظت في الحادية عشرة صباحًا، وهذا يعني أنَّني تأخَّرت عن موعد بدء العمل وتغيَّبت عنه. لا يُقلقني ذلك. لا أعرف متى غفوت، ربَّما بعد أذان الفجر بساعة، حينما أطمأننتُ إلى أنَّ النَّهار في الخارج بدأ يفيق، ورأيت خيوط ضوء شاحب تنسلّ من شقوق الباب. كانت غفوتي مثخنة بالكوابيس، لهذا أشعر بنفسي كأنَّني لم أنم. لكنَّني أنهض من الفراش مجبَرًا بسبب الجوع.

أعددتُ نفسي بسرعة للخروج وأنا أسمع في داخلي صوتًا حزينًا ومنهَكًا يقول: أريد أن أخرج من المسرح؛ من هذه الغرفة التي بلا نافذة، إلى شارع تسطع فيه الشَّمس البيضاء الباردة، أسير فيه متأبِّطًا ذراعَ الحقيقة الباردة؛ تلك البرودة الأليفة، التي تجعل جسدي الهزيل يرتعش. الحقيقة التي أعرفها وتعرفني. الحقيقة الحزينة التي عاشت معي دومًا، ودومًا كنت أضمِّدها دائمًا بوهم النسيان والانتظار. أريد أن أكون حرًّا معها، وأن أذرف بفرح عميق، كلَّ دموعي التي تملأ صدري، وأنا أحتضنها، مثلما نحتضن العائد من سفر طويل وبعيد.

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

هزَّني هذا الصوت. لا أريد أن أموت. أريدكِ أن تعودي. لديَّ حَدْس بأنَّك ستعودين، إذ من غير المعقول أن تكوني على هذه الدَّرجة من القسوة. كرَّرت ذلك لنفسي، ولم أكفّ عن الانتظار.

اتَّجهت إلى وسط البلد ودخلت مطعمًا بائسًا. استوقفني عند بابه أحد المتسوّلين يستجدي منّي النقود لأنَّه جائع. دعوته لأن يدخل المطعم ويأكل معي. صعقه العرض، وقال بتردُّد إنَّه يفضّل أن أعطيه ثمن الطعام نقدًا. كنت أعرف السَّبب، فجميع المتسوّلين الذين دعوتهم من قبل ليأكلوا معي، كانوا يخشون الطرد بسبب هيئاتهم وقذارتهم. وكان بعضهم فعلًا يتعرَّض للطرد. قلت له مجتازًا حوارًا جرى مرارًا مع متسوّلين آخرين: «سأعطيك ثمن الطعام إن طردوك». دخل معي وجلس قبالتي إلى الطاولة متهيِّبًا النَّظر حوله. كان ينظر إلى سطح الطاولة القذر من دون أن يرفع رأسه. بدا مثل مذنب ذليل ومُهان، يعترف هو، قبل أن يعترف كلّ العالم، بذنبه، وها هو يجلس في انتظار إعلان العقاب. شحنني منظره بالغلّ تجاه هذا العالم، وفكَّرت في أنَّني، في حال طردوه، سأقف وأبصق على النادل وعلى مالك المطعم. سأبصق على الحاضرين وعلى الكون كلّه، بصقةً علنيَّة تخرج مدويَّة من فمي، وتعرّي عنجهيَّتهم وحقارتهم ولؤمهم. راقني هذا المشهد، إلى درجة أنَّني تمنَّيت لو يطردونه فعلًا، وندمت كلَّ النَّدم لأنَّني لم أفعل ذلك في المرَّات السَّابقة التي طردوا فيها متسوّلين آخرين دعوتهم. لكنَّ النادل جاء وسجّل طلبي، ولم يطرده. اكتفى بنظرة مزدرية سريعة، ألقاها على المتسوّل من طرف عينه، ثمَّ نقل بصره إليّ وفحصني بنظرة سريعة أخرى يملأها التعجُّب والحيرة، وذهب من غير أن يعلّق. وحينما أيقن رفيقي أنَّهم لن يطردوه، وأنَّ النادل سجَّل طلبي بلا احتجاج: طبقَي حمّص وكأسَي شاي، رفع رأسه وجال بنظره في المكان، ثمَّ أخرج يده التي أخفاها في جيبه ما إن دخلنا. كانت مقطوعة من عند الرسغ. قال لي إنَّه فقدها في حادث

مؤسف وهو يعمل في معمل في السعودية. فكّرت في أنّه يكذب وأنّهم قطعوها لأنّه سارق، بيد أنَّ الحقيقة لم تهمَّني، فلم أناقشه. ما إن وضعوا طبق الحمُّص أمامه، حتّى انقضّ عليه يأكل بنهم. كان يمضغ الطعام بفم مفتوح، وهو يدعو لي، ويشكرني، فيتساقط فتات الطعام من فمه. كان يأكل على نحو مقزِّز، لكنّني لم أقرف منه. كان منظره يندرج في سياق عالم كلُّ ما فيه مقزِّزٌ: المجرم فيه والضحية مقزِّزان بالقدر ذاته، لكنّني اعتدت على المشهد. قلت له إنّني لم أدعه بسبب شفقتي عليه، فسألني: «لماذا إذن»؟ أجبت: «لأنّني لم أرغب في الأكل وحيدًا!»، فأكّد لي أنّه مستعدّ دومًا لأن ينقذني من الوحدة. بقيت صامتًا، ولم أضحك كما توقّع، ودفعت في اتّجاهه طبق الحمُّص الذي كان أمامي. كان قد أتى على طبقه في دقائق قليلة، أمّا أنا، فأجبرت نفسي على أكل القليل من طبقي، وعجزت عن إكماله. رحت أحتسي الشاي وأنا أنظر عبر باب المطعم إلى الشارع، وإلى الناس الذين يروحون ويجيئون مسرعين على الرّصيف. في البعيد، وعند نهاية الجبل المطلّ على وسط البلد، كان طرف السّماء باهتَ الزرقة، وكان سرب من الحمام يلفّ ويدور فيها. وشيئًا فشيئًا لم أعد أرى لا الحمامَ ولا السّماءَ ولا البيوتَ المكوَّمة على الجبل. غرق ذلك كلُّه في ضباب، ثمَّ راح هذا الضَّباب يخاتل مخيِّلتي. راح يخدعني ويومئ إليَّ بأنَّ العالم ليس ضائعًا، وأنَّه يقبع هناك في هذا الغياب، وأنَّ في هذا الغياب ثمَّة سماءً، وثمَّة أسرابًا من الطُّيور تحلّق فيها، وثمَّة بيوتًا هانئة، وثمَّة أنثى جميلة، سمراء بعينين سوداوين وشعر طويل متموّج.

إنّه المشهد ذاته الذي دار في مخيِّلتي قبل عام وشهرين من الآن، بينما كنت أجلس في هذا المطعم ذاته.

لكنَّ هذا الاسترسال في الحلم بُتر وقتذاك فجأة، وفي ذهني دوّى ضجيج حادث سير! حادث توفي في إثره زوجها. يا للمصادفة الغريبة! قلت

في نفسي للمرَّة الألف ـ ربَّما ـ متوجِّسًا من هاجس لم ينفكّ يعذِّبني: إنَّني أقف مسلوب الإرادة أمام تكرار حتميّ لقصَّتي مع عائشة، لكن في هذه المرَّة مع امرأة جميلة وسعيدة، ألاحقها أنا.

نهضت، وخرجت من المطعم، وطفقت أسير، متَّجهًا إلى المكتبة، وقد أضعت تلك اللَّهفةَ التي كانت تحثّ قدمَيّ على المسير، مثلما أضعت ذلك الضَّباب الذي خاتلني، وخدعني وأومأ إليّ بأنَّ ثمَّة طيورًا، في مكان ما، تحلّق في السَّماء، فوق بيت تنتظرني فيه حبيبةٌ أخرى، ليس لها شَبَه بين النساء.

وصلت في ذلك النهار متأخِّرًا عن موعد وصولي التَّقليديّ إلى المكتبة. التقيتُها عند الباب. كنت داخلًا وهي خارجة. تردَّدتْ خطواتي، وتردَّدتْ خطواتها أيضًا. ثمَّ حدثتِ المفاجأة: اقتربت منِّي وسألتني إن كان في وسعنا أن نلتقي غدًا عند السَّاعة الثانية في مقهى قريب، فثمَّة حديث تريد أن تُجريه معي. صعقني العرض حتَّى إنَّني عجزت للحظات عن الردّ.

❖❖❖

ثارت في روحي عاصفةُ فرح، وحملتني، وأوشكت على الطيران، وأنا أسير عائدًا إلى شقَّتي في حيّ ماركا. حلّقت بخفَّة سحريَّة على متن إحساس رائع بالوصول. وشرع العالم من حولي بالاستيقاظ. نفض النهار الكآبةَ عن وجهه، ونظر إليّ عبر آلاف العيون كأنَّما يصافحني مهنِّئًا. وشاهدت الأشجار تنظر إليّ، والنوافذَ تنظر إليّ، والأبوابَ المفتوحة تنظر إليّ، والرَّصيفَ ينظر إليّ، والعابرين من جانبي ينظرون إليّ، وإشارةَ المرور تنظر إليّ، والطيورَ المتفرِّقة في السَّماء تنظر إليّ، والشمسَ المائلة نحو الغروب تنظر إليّ. شاهدت السَّماءَ ذاتها تصافحني، وتنظر إليّ.

جلست في اليوم التَّالي أنتظرها في المقهى منذ السَّاعة الواحدة. أحدّق في السَّاعة بين الدقيقة والأخرى، مستجديًا قدومَ الثانية. ثمَّ أسلّي

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

نفسي بالنَّظر إلى خيالاتي التي ترتسم فيها جلساتُنا التي لا بدّ من أنَّها ستتكرَّر في هذه المقاهي على الرَّصيف. هذه المقاهي والمطاعم التي أعرفها من بعيد، فأنا لا أدخلها. جيبي لا يسمح لي. أحيانًا أشتري فنجان قهوة من بائع متجوِّل، وأقف أراقب زبائن هذه الأماكن عن بعد. أراقب النساء الجميلات السَّعيدات، والرجالَ الذين يجلسون معهنّ باسترخاء لذيذ، وأحسدهم.

جاءت، وجاء على الفور النادلُ الذي كان يترقَّب قدومها معي، لأنَّني كنت أرفض أن أطلب شيئًا قبل ذلك، وطلب كلٌّ منَّا القهوة.

قالت:

ـ علمت من موظفة المكتبة بأنَّك تواظب على القدوم إليها منذ عامين، وتمضي فيها وقتًا طويلًا في القراءة.

راح قلبي ينبض بعنف، ليس لأنَّها بادرت ودعتني إلى هذا اللقاء فحسب، بل لأنها توفِّر عليّ، مرة أخرى، مشقَّةَ المبادرة، وتفتتح حديثًا يعجبني البدء به. وخفت أن تلحظ الرجفة في صوتي من شدَّة فرحي وارتباكي وأنا أجيبها:

ـ هذا صحيح.

ـ ألهذه الدرجة تهوى القراءة؟

أخذتُ نفسًا طويلًا من سيجارتي قبل أن أجيب عن سؤالها، على أمل السَّيطرة على اضطرابي. وانتبهت إلى أنَّها لم تبادر إلى لقائي فحسب، بل هي مهتمَّة بأمري أيضًا، على نحو حدا بها إلى سؤال موظَّفة المكتبة عنّي. وأفاق خوف مزمن ومستفحل يعشّش في أعماقي، وخُيِّل إليَّ أنَّني أقف على أعتاب لحظة سأشهد فيها ثانية، كيف تذبل الأحلام. لكنَّني حاولت نبذ هذا الهاجس. قلت:

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ـ نعم، لكن فضلًا عن القراءة، ومجّانيّتها التي توفّر عليّ ثمن الكتب، فإنّني أحظى هناك بفائدة أخرى، هي الدّفءُ في الشّتاء، بدلًا من التجمُّد بردًا في شقّتي البائسة، والبرودةُ في الصيف بدلًا من الاختناق من الحرّ، فالمكيّف في المكتبة يجعل الجوّ رائعًا صيفًا!

قالت مبتسمة، وسحرني البريق الذي توهّج في عينيها وهي تبتسم:

ـ يعني ثلاثة في واحد!

ـ بالضّبط!

ـ وماذا تقرأ؟

ـ الكتب التي تقدّم المعرفة!

ـ هذه إجابة فضفاضة، فكلّ الكتب تقدّم معرفة ما، حتّى كتب التنجيم.

ـ صحيح، كتب التنجيم أيضًا تقدّم معرفة ما، لكنّني لم أصل إليها بعد، ربّما في المرحلة القادمة قد ألجأ إلى قراءتها.

ـ لم أفهم. ماذا تقصد بكونك لم تصل إليها بعد؟

ـ إنّه اعتقاد تشكّلَ لديّ نتيجة ممارستي الطويلة للقراءة، فصار يبدو لي أنَّ ما نقرأه تحدّده حاجة روحيّة ما، أو على الأقلّ هذا ما بتُّ أنا شخصيًا أشعر به. باتت القراءة مثلَ الطعام الذي تحدّده حاجة الجسد؛ فحينما ينخفض ضغط الدم يشعر المرء بحاجة إلى الموالح. وحينما ينخفض مستوى السكر يشتهي الحلويّات. وهكذا من دون أن ندرك لماذا نشتهي في هذه اللّحظة هذا الطعامَ أو ذلك. أنا، على ما يبدو، بدأت أدرك حاجات روحي. أحيانًا تعذّبني أسئلة فأبحث عن أجوبتها في الفلسفة أو في الأدب، وأحيانًا أنكبّ على قراءة الكتب الفكريّة. وحينما أشعر بنفسي على حافّة الجنون، أبحث عن كتب علم النَّفس. ربّما في المرحلة القادمة، أحتاج إلى كتب التّنجيم والأبراج!

كانت تصغي باهتمام، وحينما أنهيت كلامي ظلّت صامتة للحظات، ثمّ قالت:

ـ هل لي بسؤال أطرحه عليك؟

ولم تنتظر كي أجيبها، بل أردفت سريعًا:

ـ لماذا لا تكفّ عن مراقبتي وتطاردني، وتلحق بي كلّما خرجت من المكتبة لأدخّن سيجارة؟

باغتتني بالسؤال. قذفت بي، في لحظة واحدة، من عالم الطمأنينة إلى لجّة القلق. واستفاق ثانية ذلك الرُّعبُ المزمن المعشِّش في داخلي، واتّسعت لوهلة عيناي وأنا أحدّق فيها مندهشًا. ارتبكتُ، وخُيِّل إليّ أنّها قرأت على مسمعي لائحةَ اتّهامي، وفكّرت في أنَّ الطريقة التي بدأت بها الحديث ليست سوى خديعة، وأنَّ العالم استدرجني مرّة أخرى إلى زاوية، وحصرني فيها، كي أرتكب خطيئة، لن أعرف كيف أنجو منها.

لم أدرِ بماذا أجيبها. لكنّني قرّرت في النهاية اللُّجوء إلى الوسيلة التي يلجأ إليها المذنبون في العادة: الكذب والتّمثيل. قلت:

ـ هل راقبتك فعلًا؟ أنا آسف جدًّا إن بدا لك سلوكي بهذا المعنى. لكنْ، معك حقّ، فقد اعتدت على التأمُّل في لوحة معلَّقة على الجدار خلف طاولتك. إنَّها لوحة جميلة لسلفادور دالي، تظهر فيها شابة تعطينا ظهرها وهي تقف إلى نافذة، تتّكئ على حافّتها وتتأمّل البحر الرماديّ أمامها. لقد اعتدت على التحديق فيها طويلًا كلّما تعبت من القراءة. إنّها معلّقة على الجدار خلفك بالضبط! لهذا ربّما بدا لك أنّني أنظر إليك، في حين كنت أنظر إلى تلك اللّوحة! أمّا مسألة اللّحاق بك، فثقي بأنّني لم أقصدها. إنّها الصُّدفة فحسب، هي التي جعلت مواعيد رغباتنا في التّدخين تتوافق! اعذريني إذا كنت أزعجتك، فأنا فعلًا لم أقصد.

مكتبة أحمد
telegram @ktabpdf

ـ دعني في هذه الحالة أنا أعتذر عن سوء الفهم!

قالت وهي تنظر إليّ بريبة، ثمّ ابتسمت، لكنَّ ابتسامتها كانت مصطنعة، فهمت منها أنَّها تحاول أن تداري بها إحساسًا بنوع من الإهانة التي عرَّضت لها كبرياءَها، حينما طرحت عليّ سؤالها، على نحو جعلني أشعر بضرورة تهوين الأمر عليها، قلت:

ـ لا، أرجوك. لا تعتذري، فأنا أتفهَّمك تمامًا، ولو كنت مكانك لفسرت الأمر بالطريقة ذاتها التي فسَّرتها به. أنا المذنب، وكنت سأتمنَّى العقاب لنفسي لولا أنَّني أجد عزاء في أنَّني لم أقصد إزعاجك. كنت فقط أفعل ما اعتدت على فعله منذ زمن طويل: تأمُّل تلك اللَّوحة المعلَّقة على الجدار خلفك، بين فترات القراءة. كان فكري يشرد معها وأنا أنظر إلى البحر كأنَّما أنظر بعيني تلك الشابة، وتخطر في بالي في كلّ مرَّة أفكارٌ جديدة، فأتساءل إن كانت الأفكار تتجدَّد لدى بطلة اللَّوحة بتجدُّد الأفكار في رأسي، أم أنَّها تظلّ تفكِّر في فكرة وحيدة ثابتة بثبات المشهد؟

كنت أدرك أنَّني أحاول أن أتفلسف في ردّي، استجابةً لجبني كي أنجو من التُّهمة، من جريمة مارستها بلا بصيرة. وكان يبدو لي أنَّني أتفوَّه بحماقات تبعث على الضحك والشَّفقة.

ـ أنا ممنونة جدًّا لأنَّك تتفهَّمني، لكن الغريب في الأمر، أنَّ اللَّوحة المعلَّقة على الجدار خلفي ليست لوحة دالي، بل هي لوحة أخرى!

وبرقت في ذهني، وصفعتني على الفور، معلومةٌ نسيتها نسيانًا مطلقًا وأنا أجلس قبالتها وأتأمَّل فيها: إنَّهم فعلًا غيَّروا تلك اللَّوحة قبل ظهورها في المكتبة بيوم أو يومين. ورحت هي تضحك ورحت أضحك معها، من دون أن أعثر على وسيلة تنجِّيني من العار، سوى هذا الضحك الأبله.

بعد الضحك، قالت:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ لا تقلقْ. حتى الكذب يخذلنا أحيانًا.

وأنقذتني بهذه الجملة، فقلت محاولًا مجاراة سخريَّتها: للأسف، هو كذلك.

وحدَّقتُ في الفراغ لوقت بدا لي طويلًا. كان ذهني فارغًا من أيِّ فكرة، ولم أعد أعرف ماذا أقول. وحين رفعت نظري عن الفراغ، رأيتها تحدّق فيَّ. سارعتْ إلى القول:

ـ سأكون واضحة وأطرح عليك السُّؤال الذي يعذّبني منذ اللَّحظة الأولى التي رأيتك فيها: أأنت حقًّا لا تعرفني؟

أجبتها باستهجان بالغ:

ـ لا! من أين لي أن أعرفك؟ هل يجب أن أعرفك؟! هل تعرفينني أنت؟

ظلَّت تنظر إلى وجهي للحظات، ثمَّ قالت:

ـ أجل! ظننت أنَّك عرفتني، لأنَّني أعرفك. أنت راعي، أليس كذلك؟

أكَّدتُ لها المعلومة ذاهلًا وخائفًا! فقالت:

ـ لقد حدَّثني أحمد عنك مرارًا. وكنت رأيتك من بعيد في مرَّتين معه. ثمَّ إنَّك موجود في إحدى صوره التي أحتفظ بها.

ـ أنت زوجته؟!

سألت بصوت خرج من حنجرتي بصعوبة.

ـ أظنّ أنّ كلمة «أرملته» تصلح أكثر.

احتويت رأسي بيدي، وانعقد لساني تمامًا. تبخَّر البحر الذي كنت أتخيَّل أنَّني أُبحر فيه قبل أن تأتي، وسقط المجذاف من يدي، ووجدت

نفسي غارقًا في الرّمال. وفي هذه الرّمال الصّفراء القاحلة، كان أحمد يقف غريبًا يختنق وهو يستجدي النجدة، مثلي تمامًا.

اللّعنة تعرف طريقها إليّ. فكّرت في ذلك وأنا مشنوق بالصّمت الذي جثم على المكان، وعيناك تنظران إليّ وأنا أحدّق في العدم. العدم ذاته الذي يجتاحني كلّما صادفت أحمد على حافّة طريق من طرق ذاكرتي. كان يقف على حوافّ كلّ تلك الطرق صارخًا بصوت مخنوق، كذلك الصّوت الذي نراه في الأحلام: نرى الفم مفتوحًا والوجه مرعوبًا، ولا نسمع الصّوت بل نراه. كان لا يكفّ عن الصراخ: أخشى الاغتيال.

قلت أخيرًا:

ـ لم أكن أعرف، فلست أذكر أنّنا التقينا في أثناء حياته. عرفتك فقط من خلال أحاديثه عنك. وفي المرّة الوحيدة التي ذهبت فيها إلى بيت أهلك كي أطمئنّ على الطفلين وعليك، اعتذرت أمُّك عن دعوتي إلى الدخول. وطلبت منّي ألّا أعود، كي لا أنكأ جرحك.

ـ صحيح، أخبرتني بذلك!

ـ كنت تعرفينني! لهذا إذن رمقتني بتلك النّظرات الطويلة المتفحّصة؟!

ـ كان الأمر تلقائيًا. وقعت عيناي فجأة عليك في المكتبة، ولم أتذكّرك على الفور. فكما تعلم، مضى على الحادثة خمسُ سنين. لهذا ظلّ الفضول يلحّ عليّ ويشدّ نظري إليك، إلى أن تذكّرتك.

حدّقتُ في العدم، وأنا أرمق حلمًا بعيدًا يسقط من أعالي روحي مدويًّا، ويركد في أعماقها خاملًا وعليلًا، كما لو أنّ طلقة صيّاد ماهر قنصته.

«لكن، لماذا لم تخبريني بذلك فورًا؟» سألتها باستغراب.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ـ لا أدري. انتظرت أن تكفّ عن ملاحقتي، أو أن تتذكّرني وتبادر إلى الكلام، لكنَّك لم تفعل، وبقيتَ مصرًا على ملاحقتي، فقرَّرتُ أن أفهم سرّ ما يجري.

بلَّمتُ ثانية وحدَّقت في الفراغ، إذن إنَّها المرأة ذاتها التي لطالما عذَّبني الفضول لرؤيتها، وتجنَّبت ذلك. إذن إنَّها المرأة التي كرهتها وحقدت عليها، وتمنَّيت أن ألتقيها، فقط كي أفرّغ حنقي العظيم عليها، وأُغرقها بكلّ الآلام التي مزَّقت قلبي على أحمد، وكادت تودي بي إلى الجنون. كم تمنَّيت لها أن تغرق في النَّدم؛ ندمٍ طويل متواصل لا ينتهي كالجحيم، تحترق فيه وتموت، ثمَّ تحيا، ثمَّ تحترق، ثمَّ تموت، ثمَّ تحيا. وهكذا على مدى الحياة. إنَّها هي ذاتها، إذن؟ يا للمصادفة الخبيثة. يا للجنون. هي ذاتها، التي لم أكفّ مذ رأيتها، عن الحلم بها!

«هي الفراشة يا صديقي»، سمعت مازنًا يقول لي.

قالت: أقدّر أنَّ الأمر فاجأك.

ـ أكثر ممَّا تتصوَّرين! أكثر ممَّا أتصوَّر أنا نفسي!

وحدَّقتُ في الفراغ ثانية، كأنَّني تعرَّضت لزلزال، وخيِّل إليَّ أنَّني أسير متعثِّرًا، وعلى وشك السُّقوط بين أنقاض الأحلام المنهارة وغبار الأحقاد القديمة الراكدة.

قالت بدهشة وهي تنظر إليَّ بفزع:

ـ يا إلهي! إنَّك تحدِّق في الفراغ، بالنَّظرة نفسها التي كان يحدِّق فيها أحمد، كلَّما شرد ذهنه!

«حقًّا؟» سألتها بتعجُّب، ونظرت في عينيها، مستلذًا، لذَّةً مريرة، بتدقيق المعلومة وتذكيرها بها. قلت: كان يحدِّق برعب، أليس كذلك؟

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ظلَّت صامتة. وكنت على وشكّ أن أضيف أنَّ هذا الرعب كان يفتك به، ليس خوفًا من الديون، بل من هجرانها له. وهجرَتْه. لكنَّني تذكَّرت فجأة ما أخبرني به البوّاب، فقلت باستغراب:

ـ صحيح: أخبرني بواب العمارة التي تعملين فيها بأنَّ زوجك مات منذ أعوام قليلة في حادث سير مؤسف. غريب! أهذا ما تخبرين الناس به؟

ـ لا أحبّ قول الحقيقة، وخصوصًا أنَّ لا شأن للغرباء بها. ما شأنهم كيف مات؟ لم أجد حاجة إلى أن يعرف الغرباء التفاصيل، لأنَّهم لن يكفّوا عن الثرثرة. قلت في نفسي إنَّ الموت في حادث سير لا يثير الأسئلة. لهذا أقول ذلك.

وكنت على وشك أن أردّ: إنَّ الموت في حادث سير يُعفينا من التفاصيل، ثمَّ إنَّ القضاء والقدر يُريحان الضمير أيضًا! لكنَّني في اللَّحظة الأخيرة أحجمت. لم أعرف ما هي القوَّة التي لجمت لساني وكبحت جماح تلك الرَّغبة التي لطالما كانت متأهِّبة لإدانتها. قوَّة اندفعت من بين الأنقاض. كأنَّ الحلم راح يصرخ خوفًا من انهيارات جديدة، يفقد بفعلها الأملَ تمامًا ويستسلم للموت، وأستسلم معه أنا أيضًا. قلت، بعد لحظات صمت:

ـ ربما تكونين محقَّة، فالناس فضوليُّون جدًّا وثرثارون.

وشعرت وأنا أقول ذلك باحتقار لنفسي التي شدَّت الحبل وجذبتني إليها، بينما كان أحمد على الطرف الآخر من الحبل يحدِّق فيَّ، بخيبة وأسى موجعين.

سألتها عما آلت إليه أحوالها وأحوال الطفلين بعد غيابه. أخبرتني بأنَّها تعيش مع والديها، وأنَّها رفضت الزواج كي لا تخسر الطفلين ويخسرانها بعد فقدان أبيهما، وخصوصًا أنَّ كلّ الذين يتقدَّمون لها يشترطون أن تتخلَّى عنهما. وأخبرتني أيضًا عن أَبَوَيْ أحمد اللَّذين عالجهما الإحساس بالذَّنب

وردّ إليهما بعض إنسانيتيهما، فصارا يساعدانها أحيانًا ببعض النقود لتربية الطفلين. أمّا هي، فقد قرّرت، في هذا العام، فضلًا عن عملها لدى طبيب، إكمالَ دراستها الجامعيّة في عملية تجسير لدراستها السّابقة في المعهد المتوسّط، فتدرس عامين آخرين وتصبح شهادتها جامعيّة. لهذا، هي تأتي إلى المكتبة لتستثمر استراحة الغداء حينما يكون دوامها لدى الطبيب كاملًا، ذلك بأنّها تعمل في بعض الأيّام في الصّباح فقط، وتذهب بعد الظهر إلى الجامعة. قالت إنّها قرّرت ألّا تتّكل على أحد، وأن تخوض هذه الحياة وحيدة في تربية طفليها، فلا تتعرّض ثانية للنكبات.

لم تكن تحدّثني عن أحمد، بل عن السّنوات الخمس التي أمضتها من دونه. لكن أحمد كان حاضرًا. كان كامنًا في حرّ الظهيرة، وفي عبق النبتة المزهرة إلى جانبنا؛ في ضجيج السيّارات، وفي خطى العابرين على الشارع؛ في صوت فيروز الذي يسيل في المكان ويخبره بأنّهم «راحوا يرعوا غنمهن، والعشب فوق ضلوعي». كان هو تلك الصرخةَ الصّامتة المتوحّشة، الكامنةَ في قلب كلّ شيء يحيط بنا، مانحةً إيّاه ذلك الإيقاعَ الحزين، الذي يمنحه المطر لأفكارنا حينما نراقبه من خلف النافذة.

كان أحمد حاضرًا في عينَيّ، أراه أينما اتّجه فكري، فأسأل نفسي: إلى أين ستمشي خطواتي الآن، وماذا ستنتظر؟ وكانت مسحة الحزن التي شعّت في عينيها تضفي على وجهها جمالًا بديعًا.

جاء النادل وسألنا إن كنّا نريد طلب شيء آخر، فسألتني.

ـ هل ترغب في الأكل؟

ـ لست جائعًا. في العموم أكلي قليل جدًّا، لسوء إمكانيّاتي وسوء شهيّتي!

ـ هذا واضح من جسدك النّحيل. أأنت تعيش وحيدًا؟

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ أجل، أعيش وحيدًا في شقَّة صغيرة، بائسة وحقيرة، في حيّ ماركا، تُطلّ نوافذها على خلفيَّة العمارة المجاورة لها، حيث أرى كلَّما نظرت من نافذة الغرفة أو نافذة المطبخ، أنابيبَ التمديدات الصّحيَّة، وأشمّ رائحة المجاري.

❖❖❖

اللَّيلة الخامسة

كنت أركض من جهة إلى أخرى داخل غرفتي مرعوبًا، فقد كان هناك من يطاردني، وكلَّما مررت من عند الباب المغلق طرقته بيدي، وصرخت طالبًا النجدة. كان هناك خلف الباب في الخارج، شخصٌ يقف ويحاول فتحه لينقذني. لكن لا أنا ولا هو كنَّا نستطيع فتح الباب. ولم أكن أرى الشخص الذي يطاردني، لأنَّ ذلك كان يحدث في العتمة. عتمة مطبقة، أركض متخبِّطًا فيها، مذعورًا من السقوط في لحظة ما، في قبضته. ثمَّ انفتح الباب فجأة. كانت الشمس في الخارج ساطعة، وكلّ الأشياء تشعّ، كما لو أنَّها هي التي تضيء. ارتميت في حضن الشخص الذي كان في الخارج، لاهثًا. قال لي: «لا تَخَفْ. ابقَ هنا وانتظرني». كان ينوي دخول الغرفة كي يعارك مَن في داخلها. كان واثقًا بانتصاره عليه. لكنْ، ليس هذا ما فاجأني، فقد اكتشفتُ حينما ابتعدت عن حضنه أنَّ هذا الشَّخص هو أنا.

ثمَّ انتبهت، عبر الضوء الذي تدفَّق إلى داخل الغرفة، إلى أنَّ من كان هناك، وكان يطاردني، وظلّ ماكثًا في الداخل، في انتظار المعركة، متهيِّئًا للانتصار فيها، هو أيضًا أنا. وكنت أشعر بالرُّعب، وأحاول ثنيَ مَن في الضوء،

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

ثنيي أنا، عن الدخول في معركة مع مَن كان يقف في الظَّلام، معي أنا، لأنَّني كنت على يقين خفيّ، وقاهر، بأنَّ مَن في الظلام سينتصر حتمًا.

أفقت لاهثًا وجسدي يرتجف ويتصبَّب عرقًا. رأيت في العتمة العجوز يتلوّى، ثمّ كفّ فجأةً، وراح يحدّق فيّ.

هي زوجة أحمد، إذن؟!

إذن، هي زوجة أحمد! لا تعجبني كلمة أرملته. لقد كان اسمها دومًا في ذهني زوجتَه. المرأة التي كان يعشقها، وينساب الكلام على لسانه كالشِّعر حينما يتحدَّث عنها، وخذلَتْه. مرَّ على الحادثة خمسُ سنين، وظننت أنَّني شُفيت منها، لكنَّني أدرك الآن أنَّني لم أُشف ولن أُشفى أبدًا. تمامًا مثلما لم أُشفَ ولن أُشفى من عائشة.

كنت أمشي مجتازًا بِرَك المياة التي خلّفها مطر أواخر أيلول. أستنشق الهواء الرَّطب المضمَّخ برائحة المطر، وأرفع نظري لأراقب الغيوم الصَّغيرة في السَّماء، وهي تمرّ بالشمس، تغطِّيها للحظات، وتبتعد فينفجر في السَّماء ضوءٌ ساطع يجعلها أشدّ زرقة. أمشي هاربًا من ظلّ فكرة تخيّم فوقي، ولا تزول: ثمَّة بطن ينتفخ الآن شيئًا فشيئًا، وسيأتي يوم ما في الربيع المقبل، يُولَد فيه طفل أنا أبوه. أنا الذي كنت أحلم بأنَّني سأبدأ في الرَّبيع بحزم حقائبي استعدادًا لترك هذه القرية كي أكمل دراستي الجامعيَّة. وها أنا سأظلّ فيها. ستظلّ الخطيئة تربطني بها: خطيئة تنمو على هيئة طفل.

يوم ذاك، وجدت أمّي في البيت تلطم وتبكي.

«ما الذي حدث؟» سألتها بقلق.

«لقد ماتت عائشة!» قالت وهي تغرز نظرة عينيها الباكيتين في روحي كسهم مسموم.

انعقد لساني وأنا أحدّق فيها. أوّلُ فكرة جالت في خاطري وأحرقتني هي أنَّها ماتت بسبب رغبتي العميقة في اختفائها. كأنَّ ثمَّة قوّة غامضة استجابت لهذه الرَّغبة. لكنَّ أمّي أخبرتني، عبر دموعها، بأنَّها ماتت بسبب موت الجنين في بطنها منذ زمن، ثمَّ إصابتها بنزف لأيَّام لم تعلن عنه، ربَّما لاعتقادها أنها تمرّ في الحيض، إلى أن اكتشفوها مرميَّةً في غرفتها على الأرض مغمًى عليها. ماتت في المستشفى. وازداد نحيب أمّي: «لقد قتل الجنينَ أبوكَ بركلاته ورفسه في بطنها». وعاد ألم أمّي يلتهب وهي تكرّر: «ربّاه، ارحمنا واغفر لنا هذا العذاب الذي أوقعناه بهذه المسكينة! ربّاه ارحمنا واغفر لنا!» وكان صوتها وابتهالاتها التي تكرّرها بلا انقطاع وهي ترتدي ملابسها، تجعل جسدي يرتعد، وأكاد أسقط على الأرض، فتهاويت جالسًا.

ـ ارحميني يا أمّي.

ـ أمّا هي، فلم يرحمها أحدٌ يا بنيّ.

«وأنا، أنا القاتل، مَن سيرحمني يا أمّي؟» تهاويت على الأرض في غرفتي، وتلوَّيت وتكوَّرت، ونزَتْ روحي منّي، وتقلَّصتُ واضمحللتُ وجففتُ، من دون أن تفارقني صورةُ عائشة حينما رأيتها للمرَّة الأخيرة: تسقي الأشجار، ثمَّ تستند إلى إحداها، ثمَّ تجلس شيئًا فشيئًا، ومن خلفها هضابٌ جرداء ضبابيَّة غارقة في غبار يسكن الهواء. رأيتها مستمرّة في الجلوس، ثمَّ رأيت قدميها تغوصان في الأرض، ثمَّ يغوص وسطُها، وشيئًا فشيئًا يغيب رأسُها أيضًا في داخل الأرض.

كنت أنتحب ندمًا وعارًا وألمًا من أنّني كنت وأبي القاتلين، وكنت أسمع بعيدًا في أعماقي، صوتًا يضحك ويقول لي: لقد نجوت.

أظنّ أنّه الصَّوت ذاته الذي كان أبي يسمعه في اللَّحظة نفسها. لكن أبي لم يكن يبكي مثلي. كانت ظلال تلك الضحكة ترتسم في عينيه، وهو يستعجل أمّي كي يذهبا إلى بيت العزاء.

مزّقتُ قماش المخدة بأسناني. أنا وأبي القاتلان. أنا وهو استبحنا هذه المسكينة. ما الذي يميّزني منه؟ أمزّق وجهي بأظافري، ولا ينفكّ ذلك الصّوت يهتف في داخلي بهدوء: لقد نجوت. وكان صوت أمّي، في أثناء ذلك كلّه، يتماوج مع الهواء، يبرق مع أحزمة الضوء، ويغدو شاحبًا كظلّ غيمة، منتشرًا فوق هذه الأرض البليدة: «ربّاه، ارحمنا واغفر لنا ذنوبنا وما ألحقناه بهذه المسكينة من عذاب».

مَن أنا؟ ما أنا؟

«أنت ظلّي على هذه الأرض».

إنّه صوت الشيطان. أنا ظلّ الشيطان على هذه الأرض؛ ظلٌّ تائه مخنوق في جلده، لا يكفّ عن البحث عن إله ينقذه.

❖❖❖

عدتُ حاملًا ثلاث كراتين ثقيلة بعد غياب طال نحو سبعة أعوام عن القرية وعن بيت أبي، . توقّفت السّيّارة أمام البيت، وهرع أخي الذي يصغرني لمساعدتي. «لست زائرًا، بل عدت لأقيم ريثما يعيّنونني»، قلت للكلب العجوز الذي سار نحوي بتثاقل الشيخوخة. كان دومًا يشيّعني حتّى منتصف الطريق إلى المدرسة، مثلما يهرع إلى استقبالي حينما يلمحني قادمًا من بعيد.

لقد بات الآن عجوزًا لا يكاد يمشي. قلت ذلك أيضًا لأشجار بستان أبي المغبرّة. كأنّني أنشد المؤازرة. كأنّني أبحث عمّا يمكن الانتماء إليه هنا.

وكان أبي يقف في مدخل البيت ينظر إليّ من بعيد بازدراء، إذ كان يملك كلّ الأدلة الدامغة على فشلي: فها أنا أعود بعد ثلاثة أعوام أمضيتها بعد التخرّج من الجامعة، يحدوني أمل أحمق في تجميع مبلغ من المال

يساعدني على استئناف الدراسات العليا التي انتسبت إليها في السنة الأولى بعد التخرُّج، لكنَّني قطعتها بسبب ضيق الحال، ورفض أبي دفع قرش واحد من أقساط الجامعة. وهكذا أمضيت عامين متسكِّعًا في شوارع عمَّان، متنقلًا بين أحيائها البائسة، أمارس أعمالًا متفرّقة وغير دائمة، على أمل أن يعيِّنوني مدرِّسًا، أو أن أعثر على عمل آخر، ثابت يُعيلني.

كنت أنفق جزءًا من النقود القليلة التي أتقاضاها، على الكتب، وفي أحيان قليلة، حينما يستبدّ بي اليأس، أبيح لنفسي ترفَ شرب الخمرة الرخيصة، ثمَّ أُمضي كثيرًا من الأيَّام جائعًا إلى أن أجد من يعطف عليّ ويسلّفني النقود، فراحت الديون تتراكم عليّ.

صُعق أبي حينما لم يعثر في الكراتين التي جئت بها، على شيء غير الكتب. وبالإضافة إلى هذه الكراتين، كنت أحمل على كاهلي مبالغ من الديون المستحقَّة التي لم يخطر في بالي أن أُعلمه بها. لكنَّني في لحظة انفعال، وقتَ الغروب، وكنت جالسًا فيها قبالة أمِّي على المصطبة وهي تكسّر كرات الجميد[1] بحجر، صارحتها بمجمل الحقيقة المريعة. فعلت ذلك، لا طمعًا بالمساعدة، فقد كنت أدرك أنَّ أمِّي لا تملك قرشًا يسعها أن تقدِّمه إليَّ، بل لأبرِّر لها عجزي عن تقديم أيِّ قرش إليها. كانت تشكو إليّ حاجتها إلى بعض الأشياء الخاصَّة، فسألتها لماذا لا تطلب ثمنها من أبي. قالت:

ـ لا أريد. فأبوك... كما تعلم، تُثقل كاهلَه مصاريفُ البيت.

---

(١) الجميد هو كرات تُصنع من اللّبن ويضاف إليها الملح وتوضع في الشمس حتَّى تجفّ وتتصلَّب، ثمَّ تُحفظ. تُستعمل في طهو الطبق الشعبيّ الأردنيّ «المنسف»، بعد تكسيرها وتذويبها في الماء، ثمَّ غليها مع اللّحم. وكثيرًا ما يستعملها الفقراء في أطباق أخرى مع البرغل من دون اللّحم.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

كنت أعلم ما هي الكلمة التي دارت في خلدها وأحجمت عن نطقها: بخيل.

حدّقتُ في وجه أمّي شاردَ الفكر. يا للمسكينة، كم تحمَّلت قسوته وبخله. آلمتني شكواها، وأخجلتني من عجزي، ولم أصادف في ذهني عذرًا أردّ به سوى الحقيقة. أخبرتها بأنَّ جيبي يعاني نقصًا، وأنّني لا أملك إلَّا الدُّيون «يا أمّي».

لا أعرف لماذا نقلت أمّي إليه هذه المعلومة. ربَّما تصوَّرتْ أنّه قد يحنّ عليّ، ويساعدني! ثمَّ إنّني لم أعرف كيف نقلتها إليه، وبأيّ أسلوب. لكنْ، ما شأن اللُّغة والأسلوب هنا؟ كانت المعلومة، أيًّا تكن الطريقة التي صيغت بها، كفيلةً بجعله يفقد صوابه.

كانت السَّاعة تقارب التَّاسعة ليلًا، حينما اقتحم الغرفة التي كنت أستلقي فيها أمسك بيدي كتابًا، واندفع هاجمًا عليّ. انتزع الكتاب من يدي وصرخ في وجهي:

ـ ديون أيُّها الكلب! أهذا ما قدرت على جنيه يا فاشل: ديون؟ وتريد منّي بكلّ وقاحة أن أسدّدها؟ أنا من سيعلّمك كيف تسدّد الدُّيون! الدُّيون التي اشتريت بها كتبًا، وعدت مختالًا، كما لو أنّك عدت بثروة! سأريك ماذا سأفعل بهذه الثروة. أنا من سيريك!

وطفق يمزّق صفحات الكتاب ويرميها في وجهي، وأنا أحدّق فيه بعينين شاخصتين، صامتًا كقتيل.

كنت في غرفتي القديمة ذاتها، لكن بابها لم يعد خارجيًّا، فقد أغلقه أبي وفتح لها بابًا داخليًّا، بعد أن اقتطع مساحة منها ومن الغرف المجاورة لها، وشقّ ممرًّا بينها.

وقفت، بعد خروجه، قرب النافذة أنظر إلى الشارع الذي كنت قديمًا أروح وأجيء فيه لساعات مع أصدقائي. لقد كان شارعًا آخر، أراه الآن بعيدًا وغارقًا في ظلام اللّيل والذاكرة. أراني أسير فيه أناقش مع أصدقائي بحماسة المراهقين، من دون الاعتماد على أيِّ خلفيّات معرفيّة، أسئلةً عنِ الأرض والسّماء. لست أدري من أين كنت أستمدّ وقتذاك، تلك الثّقةَ العمياء بالنّفس، والإحساسَ بفخر، لا لشيء، وإنّما فقط لأنّني أنا.

ابتعدت عن النافذة ولملمت صفحات الكتاب الممزّقة، وطويتها داخله، على أمل أن أصلحها في ما بعد. ذكّرني فعل أبي هذا، بأوّل كتب اشتريتها من عمّان ومزّقها. فَقَدَ عقله حينما اكتشف كتاب «نقد الفكر الدّينيّ»، وراح يبرطم والزبد يتطاير من فمه، كما لو أنّه قبض على الشيطان ذاته، وقطّعه إربًا إربًا.

كنت حينها أحاول أن أنهض من آثار قصّتي المدمّرة مع عائشة، باحثًا بين الكتب التي اشتريتها آنذاك، عن كتاب يشرح لي من هو، وما هو الإنسان؟ من هو أنا؟ وما زلت أبحث.

حينما رفعت نظري عن الكتاب واجهتني المرآة. هي ذاتها أيضًا، تلك الممحُوَّةُ الطلاء من الخلف ومكسورةُ الزوايا. رأيت انعكاس وجهي فيها متشظّيًا، هزيلًا ويائسًا. وتذكّرت أنّني كنت ذات يوم أرى هذا الوجه واضحًا ومبتسمًا بزهوٍ أخرق يثير الآن ضحكي، بعد أن اكتشفت أنَّ تلك الصُّورة المتشظّيّة أصدَقُ نبوءةً من خيالي.

❖❖❖

كان يتناهى إلى سمعي عبر النافذة، ما بين الصحو والغياب، صوتٌ يتردّد بإيقاع رتيب: ترخ.. ترخ.. ترخ. رأيت في مخيّلتي ظلّي ممدّدًا أمامي على رصيف ما، ومن خلفي شمسٌ مائلة إلى الغروب، ورجلٌ خمسينيّ

في رداء برتقاليّ اللّون يكنّس الرَّصيف بمكنسة طويلة العصا. تردَّدتُ أمامه في الانحناء لالتقاط عقب سيجارة ما زالت قابلة للتَّدخين. ترخ.. ترخ.. ترخ. استمرّ الرجل بالكنس. ثمّ تشوّشَ هذا الإيقاعُ الرّتيب بدخول صوت رجل يتحدَّث عن الشمس والمحبّة. انتزعني صوتُه الجهوريُّ من النعاس وأفقت، وأدركت أنَّ أختي الصُّغرى تكنّس الأرض الترابيّة في الخارج، إلى جانب نافذتي. بقيت للحظات أصغي إلى صوت المذيع في الراديو الذي وضعته أختي على حافّة نافذتي. صوت جهوريّ مبحوح لا يناسب النصّ الإنشائيّ المبتذل والركيك، والذي يتغزّل فيه بالشمس والطبيعة والناس. يقول إنَّ اللّـه حَبَا هذه الأرضَ تحديدًا، من دون غيرها، بالجمال والغنى والتنوُّع، فهناك الجبال وهناك الوديان والسُّهول. مثلما حَبَا أهل هذه الأرض تحديدًا، بخصال الكرم والشهامة والمحبّة والنخوة التي تفيض في كلّ القلوب.

حدَّقت في السّقف، وحطّ شيئًا فشيئًا ثقلٌ في عينيّ، فغبت ثانية ورأيت نفسي أسير تائهًا في سكّة لا أدري من أين تبدأ، ولا إلى أين تمضي.

ورأيت حينما فتحت عينيّ، أمّي واقفةً عند الباب، تحمل في يدها طبقًا مستديرًا. سقط في تلك الثانية القصيرة ضوءُ الشمس الداخل من النافذة على وجهها الأسمر، فشعَّ ولم أرَ تفاصيله. وسمعت في هذه اللّحظة قرقعةً ماء في الخارج، يتدفّق من حنفية ويملأ وعاءً معدنيًّا، وسمعت صوت أبي صارخًا مقرّعًا أحدًا ما.

ـ يجب أن تنهض، وتأكل شيئًا.

ففرَّ النوم من عينيّ. جلست أمّي إلى جانبي على طرف الفرشة التي أنام عليها، ورأيت وجهها وقد هجره الضياء، وجهًا شاحبًا، وجفنا عينيها مسودّان ومنتفخان. لقد بكت كثيرًا.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

وضعتِ الطبق على الأرض: عليه صحنُ لبن، وقطعةُ خبز وإبريقُ شاي وكأس.

ـ لماذا بكيتِ يا أمّي؟.

ـ بكيت عليك ومن أجلك. يؤلمني كيف يعاملك. تؤلمني حالك. طوال الأمس وأنت تغلق على نفسك الباب، ممدّدًا كخرقة قماش، ولم تأكل شيئًا. انظر كيف بتَّ. تكاد تتلاشى.

تناولت علبة السجائر وأشعلت سيجارة. لم آبه لقلق أمّي من تدخيني، ولا لقلقها من أنّني أدخّن بفم لم يدخله أيّ شراب أو طعام بعد. قلت لها إنّني اعتدت على الجوع، وإنَّ أيّامًا كثيرة كانت تمرّ بي في أثناء السنوات الماضية وأنا في عمّان، لم يكن يدخل فيها أحشائيَ أيُّ طعام، وإنّني كنت أحيا على الماء وأدخّن ما إن أفيق.

لا أدري لماذا أخبرتها بذلك، وأنا أدرك أنَّ هذه المعلومة ستعذّبها. هل أريدها أن تتعذَّب من أجلي؟ أم أريدها أن تشفق عليّ فحسب، وتقولَ لي، فأصدِّقها، إنّني بريء ولست المسؤولَ عن مأساتي، وإنّني الضحية؟

نظرت إليَّ بشفقة وعطف ودارَتْ دموعَها، وهي تقول:

ـ أظنّ أنّه جوع إجباريّ، فلعلك لم تكن تجد ما تتناوله! أمّا هنا، فأنت تعزف بإرادتك عن الطعام.

ـ أجل، كان جوعًا إجباريًا، لكن، ليس هذا ما قصدتُه. قصدتُ أنّني اعتدت على الجوع. وها أنا كما ترين حيٌّ يُرزَق أمامك. كأنّني محصّن ضدّ الموت، فلا تخافي عليّ، لو كنت سأموت من قلّة الأكل لمتُّ منذ زمن. المهمّ، لا أريدك أن تبكي من أجلي، فحياتك معه ليست أسهل من حياتي!

ـ هذا صحيح، لكنَّ حياتي مضت ولا أمل فيها بعد. لا أريد أن يحطّمك، فوق ما عرّضتك له الحياة.

وتنهّدت ثمَّ أضافت: يجب أن تأكل، كي تقوى على النهوض. ثمَّ إنَّه يريد منك أن تسقي الأشجار، فاليوم وصلتنا المياه. ومن الأفضل أن تفعل حتى لا تنشب بينكما مشكلة جديدة، أنت في غنًى عنها.

استغربتُ أمر هذا الرجل: أليس لديه ضميرٌ يعذّبه؟ أهانني ليلةَ أوَّل من أمس كما لو كنت لا أزال غلامًا صغيرًا، ومزَّق الكتاب الذي في يديّ، ويبتدع اليوم لي أعمالًا، كما لو كنت عبدًا عنده؟! فقالت أمّي إنَّه أفاق في صباح الأمس وفي باله أمرٌ واحد: أن يحرق كراتين الكتب التي جلبتها معك.

ذُعرت وارتجفت يدي وسقطت منها السيجارة وأنا أهبّ جالسًا: لا تقولي إنَّه فعل!

ـ لم يفعل. منعته. قلت له إنَّ هذه الكتب يمكن أن تُباع فتسدِّد ديونك بثمنها. فأعجبه رأيي وتراجع عن نواياه.

أدهشتني فكرة أمّي الشيطانيّة. لقد أنقذت الكتبَ من نيرانه. يا إلهي، كم كنت ممنونًا لها، حتَّى إنَّني حضنتها وقبّلت رأسها.

ـ لكن أخبريني: كيف خطرت هذه الفكرة في رأسك الجميل يا أمّي؟

ـ أليس في وسعك بيعُها حقًّا؟ فكلّ شيء يُشترى يمكن أن يباع أيضًا، ولو بسعر أقل!

أجابتني باستغراب. فأدركت أنْ ليس الشيطان هو من ساعد أمّي على ابتداع فكرة يغازل بها بخلَ أبي، ويكبح يديه قبل أن تمتدًا إلى الكتب، بل جهلُها وبساطتها. فكلّ شيء يُشترى هنا يمكن أن يُباع، إلّا الكتب يا أمّي.

❖❖❖

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

عفّر قدمَيّ ترابُ البستان وأنا أمشي بين الأشجار، مثلما عفّرتني الإهانةُ والندم. تتفتَّت روحي ويضيع فتاتها في ضباب شعور غامض بمجهول ما، يمّم مصيري نحوه بإقدام: نحو اللّاشيء.

يثير إعجابي أبي، بشرّه وقسوته وتسلُّطه وبخله وأنانيَّته. يسطو على الحياة ويطأ عنقَها من دون أن يكلّف نفسه مشقَّة وعيها. ينتزع وجوده فيها بالقوَّة غيرَ عابئ بأسئلتها. ويا له من سعيد، على النقيض منّي، أنا الذي لا يكفّ عن أن يتوه في الأسئلة، وفي العبث.

حينما وصلت إلى آخر البستان، فتح أخي الأصغر الحنفيَّة فتدفَّق الماء من الأنبوب البلاستيكيّ. إنَّه أنبوب آخر، وليس ذلك الذي استعملتْه عائشة في آخر مرَّة رأيتها فيها. يُتعبني التفكير، ويُتعبني الصَّمت. لا أحادث إلّا نفسي. أعقدُ لها محاكمات أُبرّئها فيها تارة وأُجرّمها في أخرى. لا أكفّ عن العواء، وفمي مغلق.

هربت من التفكير إلى الأشجار. تعجبني مهمَّة سقيها. أسلّط الماء على الأرض حول شجرة المشمش، ويُريعني الغبار المتراكم على أوراقها، فأجول بنظري على بقيَّة الشجر. أوراقها جميعًا مغبّرة وشاحبة وكئيبة. أتمنَّى لو تجتاح السَّماءَ الآن غيومٌ داكنة تغمر الأرض والأشجار بوابل من المطر وتغسلها، لكنَّني لا أرى في السَّماء غمامةً واحدة. لا أرى سوى شمس حارقة، تسلّط ألسنة لهبها عليّ في النَّهار وفي اللَّيل، وتجفّفني وتعفّرني باليأس، فأسلّط الماء على غصون الشجرة لأغسل أوراقها.

ـ ما الذي تفعله بالماء؟ لماذا ترشّه في الهواء؟

جاءني صوته من بعيد، محتدًّا، وهو يتَّجه نحوي. قدماه لا تمشيان، بل تحرثان الأرض مثيرتين غبارَها، كأنَّ الأرض تتألَّم من خطوه. كأنَّه حاضر في كلّ زمان ومكان، ولا شيء يغيب عن ناظريه.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

ـ حينما تدفع ثمن الماء من جيبك، اتركْ يدك تَسْهُ كما تشاء. أمّا هنا، فيجب عليك أن تكون حريصًا، لأنَّ جبينك لم ينِدّ عن قطرة عرق واحدة في سبيل هذا الماء.

وصمت قليلًا وهو يقف إلى جانبي، ثمَّ أضاف: هذه الكتب يجب عليك أن تبيعها وتستردّ ثمنها. سأحرقها إن لم تفعل.

ـ سأفعل! سأبيعها.

ـ وهل ثمَّة مُشترٍ؟

ـ هذا أمر سهل، المهمّ أن أنقلها ثانية إلى عمّان!

انحنى على الأرض وتناول قطعة معدنيَّة كانت أشعَّة الشمس تسقط عليها فتلمع، فَرَكَها بيده، وتفحّصها، وحينما تيّقن من أنَّها نحاسيَّة رماها على الأرض. وقال بنبرة متهكِّمة:

ـ إذن، هناك مخبولون آخرون، غيرك، يشترون الكتب! لكن، أخبرني، بما أنَّك عشت في عمَّان وتعرف طباع أهلها، أهم حقًّا يبذِّرون أموالهم في الهواء؟

كان سمع أنَّهم كثيرًا ما يأكلون في المطاعم، بدلًا من أن يطبخوا الطعام في بيوتهم، ويشترون أشياء كثيرة عديمة الفائدة، ويكدِّسونها في تلك البيوت، ويُكثرون من شراء الملابس والأحذية، إلى درجة أنَّهم يخصِّصون لها غرفًا في منازلهم، فالخزائن لم تعد تكفي. «لا أفهم كيف يمكن لإنسان عاقل أن يبذّر نقوده على الأحذية والملابس. لو اضطرّ الإنسان إلى أن يغيِّر ملابسه كلّ يوم من أيَّام الأسبوع لاحتاج إلى سبعة أثواب، ولنقل عشرة، بل عشرين، وهذا في حدّ ذاته كثير، فما الداعي إلى مئة قطعة؟ هذا ما أكَّده لي أحدهم حينما كان يشتغل بترميم عُطْل في أحد بيوتهم. أَقسم إنَّه لم يرَ

في البيت خزانة، ثمَّ سرعان ما صُعق حينما رأى غرفة كاملة تصلح لعائلة مخصَّصة للملابس والأحذية».

ثمَّ اتَّهمني بأنَّني مثلهم: «أنفقتَ ما جنيت من أموال على كتب! بل استدنتَ النقود من أجل شراء كتب أخرى. هل ثمَّة جنون أكثر من هذا؟» كان يسترسل في الكلام وأنا صامت. وما لبث أن شرع يحقِّق معي ليعرف سعر الكتاب الواحد كي يحسب ثمن مجموع الكتب. ولم تُجْدِ مماطلتي، وأفصحت في نهاية المطاف عن رقم خفّضته كثيرًا كي لا يستفزّه. «ثلاثة دنانير». وحسب الرقم سريعًا في رأسه، ثمَّ هتف:

ـ يا ابن الـ... تشتري كتبًا بثلاثمئة دينار! يا للجنون. يا للخبل! يا للحماقة! ماذا أقول؟ ماذا أقول؟ لكن في كلّ حال. هذه النقود يجب أن تُستَرَدّ! أتسمعني؟ يجب أن تستردّها!

وعدته بأن أفعل، وظلّ يرمقني بنظرات حاقدة، وشعرت بأنَّه يودّ لو يمزِّقني، لكنَّه تمالك نفسه، وأخذ يقترح ما يجب عليّ فعله بالنقود التي سأستردّها من ثمن الكتب: أن أشتري نعجتين أو ثلاثًا، أرعاها مع بقيَّة الأغنام، وتعود عليَّ ببعض الفائدة، ريثما يعيّنونني في وزارة التربية!

انفجرت في ضحك هستيريّ. نسيت وجوده إلى جانبي. نسيت مهابتي له وخوفي منه، كأنَّني كنت ثملًا. انفلت أنبوب الماء من يدي ورحتُ أمشي مبتعدًا عنه لا أستطيع مقاومة عاصفة الضحك. وكان هو قد قدَّر سبب ضحكي، فراح يقرّعني ويشتمني لأنَّني أستخفّ بالأغنام ورعيها، ووجد في ذلك مدخلًا لاستحضار كسلي واستهانتي بالعمل وبالنقود وبالصلاة وبالتواصل مع الناس، وبعيش الحياة كما يعيشها سائر خلق اللّـه الطبيعيّين.

استمرّ في تقريعه، وضحكي يتفاقم، فلا أستطيع التوقُّف، من دون أن أحدِّد موطن الطرافة في كلامه: أهو اعتقاده وتصديقه كذبة سهولة بيع

الكتب؟ أم اعتقادُه أنَّني سأبيعها بثمن يكفل شراء نعجتين أو ثلاث؟ أم شراءُ النعاج؟ أم تعويلُه على أنَّني سأعمل راعيًا لأغنامه ريثما يعيّنونني مدرِّسًا في إحدى المدارس؟ أم لأنَّه يجب عليّ أن أحيا كسائر خلق اللّـه الطبيعيّين، كأخي الأكبر الشرطيّ: أبني بيتًا وأتزوَّج وأصلِّي وأرتدي ثوبًا طويلًا أبيض، أذهب به في أيَّام الجمعة إلى المسجد، ثمَّ أعود إلى البيت أتناول الغداء، ثمَّ أنام وأفيق، وأترصَّد ولدًا من أولادي إن كان يهدر الماء، الذي أدفع ثمنه من جيبي، على غسل أوراق شجرة مغبرّة، لا يهطل عليها المطر ولا يغسلها. بدا ذلك كلُّه ساخرًا على نحو لا يمكن احتماله. بدا ذلك كلُّه شبيهًا بمهزلة فكاهية تجعلنا ننفجر في الضحك، وحينما ينتهي الضحك تنتابنا رغبة في النحيب.

لا أريد البقاء هنا.

❖❖❖❖

تتثاءب القرية من حولي بكسل في حمَّى الظهيرة. تحتمي بيوتها بنبات الصبَّار الذي يمدّ صفائحه من فوق الأسيجة كأنَّما يمدّ آلاف الألسنة المشوّكة. هذه القرية الخاضعة للقَدَر، والتي تحمد ربَّها ليلًا ونهارًا على المحن التي تلمّ بها، ويخاف أهلُها اللّـهَ، ولا يكفُّون عن الصلاة، وعن الدُّعاء، كي ينجوا من مجهول لا يعلمه غيره، ولن ينقذهم منه إلَّا هو.

هنا، حيث يتعفَّن الهواء من فرط سكونه؛ هنا حيث أعيا الجدران أن تُصغي إلى الأصوات ذاتها والهواجسِ ذاتِها والمشاحناتِ ذاتِها والصلواتِ ذاتِها؛ هنا حيث يفيض الضِّيق ويخنقك ويقدِّمك وليمة للغثيان؛ هنا حيث لا يزهر شيء سوى الأوهام والمخاوف؛ هنا حيث يطغى على الأفكار طنينُ الذباب والفراغُ والضجر؛ هنا حيث السَّماءُ تلوّح بأسواط ملتهبة منذرة بالعقاب؛ هنا حيث يعشش الجهل ويترعرع على ضفاف وديان جافَّة؛ هنا

حيث ترتعش الأحلام والآمال في العتمة مذعورةً من الضوء؛ هنا حيث عائشة، وحيث أبي.

حاولت على مدار أيَّام، العثورَ على سيَّارة أو شاحنة صغيرة أعيد فيها ثانيةً شحنَ كلّ الكتب دفعة واحدة، إلى عمّان بسعر رخيص، ولم أفلح. وركبت في النهاية حافلةً تُقلّ المسافرين إلى المدينة القريبة، وكان في وسعي ركوبُ حافلة أخرى منها تُقلّني إلى عمّان. انطلقت الحافلة في طريق ضيّق بين هضاب وسهول جرداء، تتخلّلها بيوت محاطة ببعض الأشجار. وكانت تظهرُ، بين الحين والآخر، قطعانُ أغنام ترعى. لا يزال الوقت صباحًا باكرًا. وكنت أنظر إلى جانب الطريق شاردَ الذِّهن، أفكِّر في الرعيان والناس الذين يعيشون هنا، وكيف يعجز أيّ منهم، مثلما يعجز أبي، عن فهم سيكولوجيا أهل المدن. لكن أبي لا يفهم هذه السيكولوجيا، ليس بسبب قرويّته وبداوته فحسب، بل أيضًا بسبب بخله وجشعه وأنانيَّته. لا يفهم أيَّ حماقة تدفعهم إلى أن يبذّروا نقودهم على أشياء عديمة الفائدة: الملابسِ والأحذيةِ والأكلِ في المطاعم، والتحفِ، والكتبِ وغيرها من التفاهات. فالنقود يجب أن تُستثمر ليس في المتعة والترف، بل كي تُنتج نقودًا أخرى، وكي تكدَّس وتخبَّأ ـ في مكان لا تطاله حتَّى يدُ الشيطان ـ ليوم وحدَه اللّٰهُ يعرف متى سيحلّ.

واصلتُ النَّظر عبر النافذة. لقد تباعدت الهضاب وباتت الطريق تحفّ بجبال صخريَّة شاهقة. خفَّف السَّائق سرعة حافلته وهو ينعطف بها بحذر مع التواءات الطريق الضيِّقة. باتت نافذتي تطلّ على واد سحيق يستحيل على كائن حيّ أن يبقى في قيد الحياة إن سقط فيه. «لكنَّني فيه»، فكَّرت. أنا أرقد في قاع الحضيض. أأنا حيّ؟ تخيَّلت نفسي في قاع الوادي أنظر إلى الأعلى ولا تطال عيناي قممَ الجبال. فقط أرى جدرانًا صخريَّة قاسية شاهقة العلو، تنتصب إلى جانبي، عموديَّةً. أمامي وخلفي ليس سوى مسرب مرصوف

بالحجارة يتلوّى. مسرب تتدفّق فيه المياه شتاءً، مندفعة في اتّجاه البحر الميّت. أشعر بطعم الملح في فمي وأنا ميّت، ولا أكفّ عن الغرق.

ثمّ غلبني نعاس فأغمضت عينيّ، وغبت في إغفاءة لا أدري كم من الوقت طالت. وفي اللّحظة التي فتحت فيها عينيّ ونظرت من النافذة، رأيت بساتين وأحراجًا صار الطريق يتخلّلها. رطوبةُ الصّباح لا تزال عالقة في الجوّ، ونسمات الهواء داعبت أشجار ليمون مرّت بالقرب من نافذتي، فحشرجت، وهبتْ منها رائحةٌ تشبه أنثى، عبرت في مخيّلتي ورشقتني بنظرة، فبلّلني حلم. لاح لي ذلك الحلم كسراب. نظرت إلى كرتونة الكتب المركونة على المقعد المجاور لي: تجلس إلى جانبي ككائن حيّ؛ كائنٍ مذعور، ومطارَد، تتعقّبه يدا مجرم يتّهمه ويلقي على عاتقه أوزار جريمته. كنت قلت لأبي إنّني سأبيع الكتب على مراحل. وهكذا، حملت كرتونة وأبقيت في البيت اثنتين، تحت سلّم الدرج، وتحت رعايته، فقد كان قَلِقًا من أن تلتهمهما الفئران فلا تعودا صالحتين للبيع. لهذا، وضع بنفسه سمًّا للفئران بين الكراتين، ومن حولها. كم أسعدني أنّ كذبة بيعها انطلتْ عليه.

مددتُ يدي إلى الكرتونة، وتناولت الكتاب الذي أحبّه: «أسطورة جلجامش». هذه الملحمة التي سحرتني. فتحته وقلّبت الصفحات، باحثًا عن مقطع لطالما توقّفت عنده. المقطع الذي يخصّ أنكيدو والعاهرة:

«فأسفرت البغيّ عن نهديها وكشفت عورتها، وتمتّع أنكيدو بمفاتن جسدها

نضّت عنها ثيابها فوقع عليها

وعلّمت الوحش الغرّ فنَّ المرأة

فانجذب إليها وتعلّق بها. ومكث أنكيدو يتّصل بالبغيّ ستّةَ أيّام وسبعَ ليال

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

وكلَّمت البغيُّ أنكيدو وقالت له: صرت تحوز على الحكمة يا أنكيدو فعلامَ تجول في الصحراء معَ الحيوان».

أنا أنكيدو، والبغيُّ هي عائشة. لكنَّ الأمر لم يكن كذلك، بل على نحو نقيض. لم يكن أنكيدو متوحّشًا يعيش في البراري، يأكل العشب مع الظباء، ويشرب الماء مع الحيوانات، بل كان شابًّا حالمًا يحفر الأفق بعينيه، يجلس على عتبة باب غرفة، متوثّبًا لأن يقفز إلى هذه الحياة، ويحقّق غايات عظيمة وُلد من أجلها، لا يعوّقه شيء سوى المرور البطيء للزّمن. لكن تلك البغيّ، هي التي جاءته من حيث تسرح الوحوش في البراري. كشفت له عن جسدها وتشمَّمتْه كما تفعل الوحوش، وعلّمت ذلك الغرَّ سرَّ الغريزة وسطوتَها، واكتشف معها ذلك الشابُ، الوحشَ الحيوانيَّ القابعَ في داخله. لقد سلبتْه الحكمةَ، وتركتْه أرضًا خرابًا لا يعرف مَن هو وما هو، ولماذا هو.

تذكَّرتُ تلك الأيَّامَ وتلك الصراعاتِ الأليمةَ التي عشتها وأنا أشعر بنفسي كأنَّني اثنان: واحد ليليٌّ، وآخرُ نهاريٌّ، لكن من دون أن أدري: أيٌّ منهما هو أنا: أذلك المتهوّرُ الشَّبِقُ ليلًا، أم الضعيفُ الحزين المعذَّب نهارًا؟ أيٌّ منهما هو أنا: الوحشُ الذي مزَّقت عائشة عنه النقابَ، أم الإنسانُ الذي أريد أن أكونه؟

كنت جزءًا من حلقة تحرّكها قوى قاهرةٌ. يحرّكها القَدَر أو الطبيعة، وأدّيت فيها دوري من دون أن يكون لي فيها أيُّ قرار. لكنْ، ألم يكن صمتي وموافقتي على مضاجعتها قرارًا؟ لماذا لا أكفّ عن أن أبحث عن مذنبين آخرين؟ كان الأمر يعود إليّ، وصمتُّ، ووافقتُ عليه.

هل وافقت حقًّا؟ أظنّ أنّني كنت أَسيرَ قوّة عمياء انتصرت عليّ وجعلتني أخرسَ، بل أترقَّب لحظة اندساسها في الفراش إلى جانبي، بلهفة، لتكشف لي عن جسدها، كأنّما تكشف عن جسد الحقيقة: إنَّ في داخلي وحشًا غير

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

خاضع للتدجين أو الترويض، لا شيء يميِّزه من الحيوان. كانت إرادتي في اللَّيل تغيب، تغيب تمامًا، وتحلُّ محلَّها قوَّةٌ أخرى، عنيفة، وجشعة، ومتوثِّبة، وطاغية، ومن دون عقل. قوَّة كامنة في جسدي، هزمتني، ومزَّقت صورة ذلك الإنسان الذي كنت أظنُّه أنا.

إنَّ البغيَّ لم تُكسبْك الحكمةَ يا أنكيدو كما ظننتَ. لم تعلِّمك كيف تكون إنسانًا، بل جاءت إليك لتسلبك الوهم، والحلم، ولتذكِّرك بأنَّك لست إنسانًا، فبتَّ تجول في الصحراء مع الحيوان.

لا أجد منِّي سوى صورة قديمة وممزَّقة، ملقاةٍ في سراديب ذاكرتي، وفي حال يُرثى لها، كما لو أنَّ أياديَ كثيرة نكّلتْ بها. كأنَّني فجأة أضعتُني.

❖❖❖

النّهار السّادس

اليوم أيضًا تغيَّبتُ عن العمل. يبدو لي أنَّني أنحدر بتسارع نحو الحضيض، من دون أن أقوى على مقاومة القوّة التي تدفعني إلى الأسفل. هذا سيِّئ للغاية. اشتريت زجاجة ماء وعلبة سجائر، وقرَّرت أن أؤجِّل الأكل قليلًا، فلا شهيَّة لديّ.

باغتتني فجأة بوقُ سيَّارة، ممزِّقًا بومضةٍ استرسالَ الضياع. اكتشفت نفسي أقف في منتصف الشارع، كأنَّني سقطت من الفضاء. لم أعرف ماذا عليّ أن أفعل، وإلى أيّ رصيف أتَّجه: أأَعود أدراجي إلى الرّصيف الذي خلفي، أم أكمل طريقي إلى الرّصيف المقابل؟ كانا، كلاهما، رصيفين أرضيَّين، يمشي عليهما الأناس ذواتُهم، وتحدُّهما العماراتُ ذاتها، ويفترشهما الغبارُ ذاته، وينخرهما الوهمُ ذاته، وفوقهما تمتدّ السّماءُ ذاتها، تلك التي لم تنظر إليّ يومًا كي تشيح بوجهها عنّي في ما بعد.

عاد بوق السَّيَّارة يزعق، وأطلّ سائقها من النافذة، وصرخ بكلام ما، فجفلتُ ثانية وركضت إلى الأمام. وقفت لاهثًا على رصيف دوّار فيه بعضُ الأشجار والمقاعد. جلست. كنت لا أزال أرتجف. لماذا ارتعبت من

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

السّيّارة التي كانت على وشك أن تدهسني، كأنّني سأخسر حياة حافلة بالمسرّات؟ لا أدري.

أعجبني الجلوس في الهواء الطلق. العالم كلُّه مفتوح حولي، وليس ثمّة جدران. العالم كلُّه نافذة كبيرة، لا أعرف على ماذا تطلّ، غير أنّه يروق لي الجلوس عندها. شربت ما تبقّى في الزجاجة من ماء وأشعلت سيجارة.

جاء إليّ طفلٌ بأسمال رثّة، قذرة، وتوسّل إليّ إعطاءَه النقود. عيناه جميلتان وطيّبتان. في جيبي عشرة دنانير، يجب أن تكفيني حتّى نهاية الشهر، وليس في وسعي أن أضحّي بقرش منها للمتسوّلين، لكنّني سألته:

ـ لماذا تريد النقود؟

ـ لأنّني جائع.

ـ لتنتظرني إذن... غِبْ قليلًا وعُدْ، لأنّني أيضًا جائع، لكنّني للأسف متعب جدًّا في هذه اللّحظة، سآخذك معي بعد أن أرتاح قليلًا وأشتري لك ساندويشة.

ـ أعطني ثمنها وسأشتريها بنفسي.

ـ ليس معي سوى عشرة دنانير وهي قطعة واحدة.

ـ أعطني إيّاها، سأشتري ساندويشة، وأعيد إليك الباقي.

ضحكت، وقلت له إنّ هذه النقود هي كلُّ ما أملك، وبالتالي لا أملك أيّ فرصة لمغامرة أختبره فيها. فقال مؤكّدًا:

ـ سأعيد إليك الباقي.

حدّقت فيه للحظات، والرّغبة تشتعل في داخلي في أن أعطيه النقود وأُقْدِمَ على هذه المغامرة. لا أدري ما الذي كنت أتحرّق إلى اختباره بالضبط، وعلى استعداد لأن أضحّي من أجل معرفته بكلّ ثروتي: صدقُ هذا الطفل المتسوّل الذي يؤكّد لي عقلي أنّه سيأخذ النقود ويهرب، أم

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

كذبُه الذي سيعجّل نهايتي؟ لست أدري أيّ نتيجة كنت أرغب في الوصول إليها أكثر. كنت يائسًا وفي حاجة إلى ركلة ما، ربَّما على قفاي، تجعلني أتدحرج بسرعة أكبر نحو الهاوية التي أمضي إليها في كلّ الأحوال.

أعطيته النقود.

على مقعد قريب، يجلس عجوز، نحيلُ الجسد، محنيُّ الظهر ويحمل عكّازًا. كان يراقبنا ويتنصت إلى حوارنا بفضول. وحينما رأى الطفل يأخذ النقود وينطلق مسرعًا، ظلَّ ينظر ناحيته إلى أن غاب عن الأنظار. رمقني، بعد ذلك، بنظرة متأمّلة، ثمَّ عاد ينظر في الفراغ.

أجل، أيُّها العجوز المحنيُّ الظهر، ، لقد ارتكبتُ للتوّ حماقة جمَّة. لعلَّك الآن تقهقه ضاحكًا في سرّك على شدّة غبائي. حدَّقت في الأرض. أنا أيضًا أضحك. يا للعنة. إن لم يعد فسأضطرّ فورًا إلى التسوُّل كي أحصل على لقمة ما. دهمني فجأة الندم. فكَّرت في أن أنهض سريعًا وألحق بالطفل، غير أنَّ قوَّة سمَّرتني في مكاني؛ قوَّة الرَّغبة في معرفة نتيجة الاختبار. كأنَّني مقامر ينتظر انتهاء دوران الروليت ليعرف إن كانت ستعطيه كلّ شيء، أم ستسلبه كلّ شيء.

غير أنَّ الحقيقة ليست كذلك. إنَّها مجرَّد عشرة دنانير ستكفيني فقط أيَّامًا قليلة. وإن خسرتُها، فكلّ ما سأخسره هو شَبَعُ أيَّام قليلة. يا للحماقة التي تعجَّلت في ارتكابها. إنَّ ما أملكه تافه، وخسارتي أيضًا تافهة. انتابتني لامبالاة تجاه كلّ شيء.

يستحضر ذهني مشهدًا كنت أسير فيه في وسط البلد ذات يوم بعيد، ولا يوجد في جيبي سوى عشرة دنانير استدنتُها من صديق، كي تعيلني ريثما أعثر على عمل ما. كان يوم جمعة.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

أسير في وسط عمّان من دون هدف. عاطل عن العمل ومتعَب وجائع. أفكّر في الطعام، مثلَ أيّ حيوان جائع. أفكّر في القيمة التي ينطوي عليها وجودي: هل أدرك على وجه اليقين مَن أنا؟ لماذا أنا؟

في جيبي تختبئ تلك الورقة النقديَّة. تختبئ عن يدي التي تمتدّ وتتحسَّسها بين الحين والآخر، فأنقذها وأنا أنتزع يدي من الجيب مثلما ينتزع المرء نفسه من إغراءات الجنون. استسلمت في نهاية المطاف وانسقتُ خلف قدميّ، ودخلت أوّل حانة صادفتني. كانت صغيرة وقذرة وبلا هواء. وكان هواؤها ضائعًا في سُحُب دخان كثيف، ينفثه سكارى من حثالة الناس؛ سكارى رِثاثُ المظهر ترقد في نظراتهم أحقادٌ آسنة، ووجوهُهم متعبة. جلست وطلبت ربع لتر عرق، وطبقَ مخلّلات وبعضَ البطاطا المقليَّة. شربت ودخَّنت وأكلت مسترقًا النَّظرَ، في بعض الأحيان، إلى الوجوه من حولي. إلى الطاولة التي إلى جانبي، كان يجلس رجل ثمل، يبدو من هندامه أنَّه مصريٌّ. حينما تناهى إلى داخل الحانة صوتُ أذان العصر، نظر الرجل إليَّ، ثمَّ قال بلهجة مصريَّة، إن يده التي تمسك بالكأس، ترتعش بقوَّة كلَّما سمع صوت الأذان، لهذا صار يتوقَّف عن الشرب إلى أن ينتهي الأذان! علّقت باستطراف قائلًا:

ـ يا رجل، أتعلم بأنَّ الأذان، بسبب اختلاف التوقيت بين المدن، مستمرٌّ على مدار أربع وعشرين ساعة؟ يعني لن تضبط معك أبدًا!

أثار ردّي عاصفة من الضحك. المصريُّ نفسه انفجر في الضحك، ثمَّ قال:

ـ إنَّ يدي ترتجف بحسب توقيت الأذان في المدينة التي أقيم بها. لقد اختبرت ذلك بنفسي. كنت في إجازة في مصر. وتذكَّرت وأنا أشرب، أنَّ الأذان يُرفع في تلك اللَّحظة في عمّان، وانتبهت إلى أن يدي لا ترتعش!

فضحكت بصوت عال. كانت معلومةُ أنَّ الأذان مستمرّ على مدار الدقيقة على هذه الأرض، قد فاجأتْ أحدهم، بل أذهلته، وبقي لدقائق يحاول استيعابها وهو يحقّق معي، على نحو اضطرّني إلى أن أشرح له ارتباط الأذان بحركة الشمس، ووقت غروبها. وبما أنَّ هذا الوقت يختلف بين مدينة وأخرى، فهذا يعني أنَّ الأذان، ما إن ينتهي في هذه المدينة حتَّى يبدأ في المدينة التي تجاورها على خطّ العرض. نظر إليّ نظرة عميقة وصارمة وقال:

ـ أتعتقد أنّني غبيّ لا أفهم؟ أنا أفهم كلّ ما تقوله. لقد فهمت المسألة منذ اللّحظة الأولى.

ـ لماذا تسألني إذن؟

ـ لأنّني اكتشفت هذه الكارثة: الأذان مستمرّ على مدار الساعة! يا لها من كارثة!

وظلَّ يردّد ذلك وهو يشرب من دون أن أفهم، أو يشرح هو، أين تكمن الكارثة تحديدًا: أفي الأذان نفسه، أم في اكتشافه أنّه، في كلّ لحظة يشرب فيها، يكون ثمّة أذان في مكان ما على هذه الأرض يدوّي في الفضاء؟ لم أستطع الوصول إلى نتيجة لأنّه استمرّ صامتًا محدّقًا في الفراغ، يردّد بين الحين والآخر: «كارثة! كارثة بحقّ!».

دفعني ذلك إلى أن أسأله إن كان يؤمن باللّـه، فأدهشه سؤالي، وقال لي إنّه يؤمن به إيمانًا شديدًا. وعلى نحو غريب، جذب هذا الموضوع البقيّة، فاشتركوا في النقاش. وقف أحدهم مترنّحًا وأقسم، بتأتأة، إنّه جاء إلى هنا بعد أن صلّى اليوم صلاة الجمعة في المسجد. «لماذا صلّيت؟» سأله آخر بشيء من السخرية، فقال: «كي أكفّر عن هذا!» وأشار إلى الكأس التي في يده، وهو يضحك. فسألته: «ولماذا تكفّر؟ فما الذي يضير اللّـهَ في شربك؟»

ـ أنا أيضًا أفكِّر في هذا الأمر أحيانًا، ولا أجد له جوابًا. فعلًا، ما الذي يضيره في أن أشرب؟ بمَ أؤذيه؟ لكن اللّـه مسألة صعبة، وهو لا يحبّ الأسئلة، لهذا من الأفضل أن أشرب، وأصلّي له الجمعة في المسجد، من دون أسئلة.

راح البقيَّة يضحكون ويسخرون منه ومن صلاته؛ يضحكون بينما تغوص أعينهم في الكآبة والمخاوف والضياع.

ثمَّ هبَّ رجل قاسي الملامح، ويبدو مجرمًا، وخطر في بالي أنَّه لو صادفني في زقاق مظلم ليلًا، لسحب عليّ سكّينًا، وربَّما قتلني من أجل دينار. هبّ واقفًا، وهتف بانفعال:

ـ يا أخوان، ما بالكم تضحكون، وما هذا الذي تقولونه عن اللّـه؟ يجب أن تتذكَّروا أنَّ اللّـه ليس هتلر، وليس خرّيج سجون، ولا يرسم على ذراعه وشمًا. إنَّ اللّـه شيء مختلف. نحن فقط لا نعرفه!

فصمتوا مؤيِّدين، وبعضهم صفَّق له، ورفع الكأس بصحَّته.

غمرتني سعادة غريبة وأنا أجلس مع هؤلاء البؤساء؛ مع تلك الأرواح الملعونة التي لن تحظى بالخلاص حتَّى لو صلّت لله ليلًا ونهارًا؛ الأرواح المهمَّشة الصامتة؛ أنبياء البؤس والألم والجوع والضياع؛ أنبياء من دون آلهة. ألم أكن واحدًا منهم، تائهًا كأنَّما التيه والضياع خُلقا من أجلي؟ ألا أكفّ عن استجداء الحياة مثلهم؟

اختلفت حالتي حينما خرجت من الحانة، فما إن تنفَّست الهواء حتَّى تحوَّل استرخائي وسعادتي إلى صُداع عنيف. جلست على حافَّة الرَّصيف، واحتويت رأسي بين كفَيّ. وحينما رفعته، وجدت الرجل المصريّ يجلس إلى جانبي صامتًا، وظلّ صامتًا وبقيت أنا صامتًا. كنَّا فقط نحدِّق في المارّة،

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

أو في الهواء. نهض بعد ساعة ومدّ يده إليَّ، فنهضت وصافحته، من دون أن يتفوّه أيّ منّا بكلمة.

التقيته بعد عدَّة أيَّام بصدفة محض في وسط البلد، فأقبل عليّ مرحِّبًا ومصافحًا كما لو كنَّا صديقين قديمين. دعاني يومها إلى الغداء في بيته. لم أعرف إن كان فعل ذلك من قبيل المجاملة، أم كان صادقًا في دعوته، لكنَّ هذا الأمر لم يُقلقني لأنَّ الجوع كان يعذِّبني، فقد كان مضى يومان لم أتناول خلالهما إلَّا شذرات طعام. لهذا وافقت على دعوته بسرور، وبلا تردُّد.

في بيته... أهو بيت؟! أقول ذلك مجازًا. إنَّها غرفة في كراج أحد بيوت عمّان الغربية، يعيش فيها مع زوجته وطفليه، ويعمل حارسًا لتلك العمارة. كانت زوجته قد حضَّرت الكشري، فأكلت من دون وعي أو بصيرة، كما يأكل حمار جائع. حتَّى إنَّ معدتي، التي لم تعتَدْ كمّيَّة الطعام هذه، نكّلت بي لاحقًا وهي تتفجَّر ألمًا. وكنت انتبهت في لحظة لزوجته التي تنظر إليَّ باستغراب وكره، بينما هو مُحرَج منها. كففتُ عن الأكل فورًا. وخجلت، وندمت، وسألت نفسي باستغراب: ما الذي جاء بي إلى هنا لأشارك هذه العائلة البائسة في طعامها القليل؟ كأنَّ ذلك حدث من دون علمي. إنَّه الجوع! الجوع الذي أكرهه.

لكنَّني، كي أداوي ضغينة محتملة في قلب هذا الرجل تجاهي، وكي أردّ له جميله، سارعت في أوَّل فرصة لاحت لي ودعوته إلى الحانة لنشرب معًا على حسابي. وصرنا بعدها صديقين.

لهذا، لم أتردَّد في الذهاب إليه هو تحديدًا، حينما حملت كرتونة الكتب إلى عمّان، كي أخبِّئها لديه.

رحَّب بي حينما رآني واقفًا خلف الباب، ثمَّ نظر باستغراب إلى الكرتونة الكبيرة المركونة على الأرض إلى جانبي. قلت له إنَّها مجموعة

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

من الكتب أملكها، ولا أدري أين أضعها، فهي مهمَّة جدًّا ولا أريد التفريط بها «هل تجد لها مكانًا تحفظها فيه إلى حين؟» فوعدني بأن يحفظها لي في الحجرة المخصَّصة لمحرِّكات تدفئة البيت. شكرته من قلبي وانطلقت.

بعث في داخلي نجاحي في إنقاذ كرتونة الكتب الأولى، حالةً من السكون الجميل. كأنَّني أنقذت متَّهَمًا بجريمة عظمى من حكم محقّق بالإعدام حرقًا. انتابني إحساس، وأنا أمشي، بأنَّني قادر على فعل شيء، وأنَّ في وسعي النجاةَ من مستنقع اليأس الموحل والذي أغرق فيه. فكَّرت في أنَّ ذاتي المنهَكة والمتهالكة ستنهض. وغمرتني نشوة لذيذة سَرَتْ في عروق جسدي الهزيل.

انطلقتُ أمشي بحماسة صوب بيت صديق، لعلَّه يُسلّفني مبلغًا من المال، أقول لأبي إنَّني استلمته جزءًا من ثمن الكتب. فكَّرت في ذلك، وفي خيالي كان يلوح كأسُ عرق، أحتسيه محتفلًا بإنقاذ جزء من الكتب، ومحتفلًا أيضًا بوجودي في عمّان. فقد مرّ شهر على فراقنا. هذه المدينة التي عاندتني وجوَّعتني، ولم تُشفِني من عائشة، لكنَّني أحبّها. أحبّ شوارعها وبيوتها ونساءها اللّواتي أراقبهنَّ من بعيد. أحبّ ليلَها وصخبها ومشرّديها ومتسوّليها. هذه المدينة التي منحتني وهمَ الحرِّيَّة. قبل أن أرحل منها، كنت على استعداد لأن أجلس على قارعة الطريق، أمسح الأحذية في مقابل أن أبقى فيها، لكنَّها لم ترحمْني. وأوصدتْ، كحبيبة مغرورة ومتعنِّتة، كلّ أبوابها في وجهي، ونبذتني، وقالت لي: عُدْ إلى بيت أبيك. وها أنا أغفر لها، وتنتابني السعادة لوجودي فيها ثانية؛ سعيد بتنفُّس هوائها السَّاخن والذي يحرق رئتَيَّ، لكن لا بأس بما أنَّه لا يحمل في طيّاته أنفاسَ أبي؛ أو لعلّي أعتقد أنَّه لا يحمل أنفاس أبي! في كلّ الأحوال، يروق لي هذا الاعتقاد، لأنَّ هذه الشوارع التي لا تعبأ بخطوك، ولا تسألك إلى أين تمضي، وأنت تتسكَّع على أرصفتها من دون غاية، وتلك السَّماءَ البعيدة التي تمطر في

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

أيّام الشتاء بغزارة وتغمرك بوابل من الحزن، وتلك اللّياليَ التي تعبق فيها، وتباغتك، على حين غرّة، رائحةُ ياسمين في أثناء بحثك عن فكرة تبرّر الألم، ونظرات تلك النوافذ المضاءة في المساءات، والتي تومئ إليك بحياة أخرى وأنت تحدّثها عن غربتك، كلّ ذلك كان يكتسح روحي محرّضًا أشباحَ الأحلام فيها على النهوض.

كان الجوّ حارًّا، وجسدي يتصبّب عرقًا وحلمًا: سأطلب من صديقي ثلاثين دينارًا. مبلغ تافه، بالنسبة إليه في كلّ حال. لقد صار يمارس التجارة، بعد أن اهتدى إلى طريق الصواب وبات إنسانًا صالحًا، كسائر خلق اللّـه الطبيعيّين: كفَّ عن شرب الخمرة، وتزوّج قبل عام من امرأة متديّنة، لا تحبّ، كما لا يحبّ هو، أن تظهر للغرباء.

تذكّرتُ الطالبة التي وقع في عشقها ونحن في السّنة الثالثة من الجامعة. كان مذهولًا بجمالها وجرأتها وثقافتها، وخصوصًا أنّها عادةً ما تحمل معها كتابَ «النبيّ» لجبران خليل جبران. كان صاحبي يطلب منّي أن أكتب إليها رسائل حبّ على لسانه، ردًّا على رسائل الغرام التي تكتبها إليه. اعترف لي بأنّ هذه الرّسائل في غاية الشاعريّة، تجعله يخشى، في حال عدم ردّه، أن يبدو ذلك تعبيرًا عن نقص في حبّه وبلاغته.

اشترطتُ في البداية قراءة رسائلها. وجدتها رسائل إنشائيّة إلى درجة ما، لكنّ فيها بعضَ التّعابير والصُّور الجميلة. لم تكن في نظري مثقّفة بالمستوى الذي يراها فيه صديقي، بيد أنّ رأيي في ثقافتها لم يمنع قلمي من التدفُّق هيامًا، حتّى إنّ صديقي دُهش من صدق المشاعر التي فاضت على الورقة وعمقها، كما لو أنّني فتحت أبواب قلبه وقرأت ما خُطّ فيه من عشق. أظنّ أنّني لحظتها فتحت أبواب قلبي أنا، وقرأت فيه عشقي أنا. فلطالما تخيّلتها معي في ليالي اليأس، تضيء لي شموعها وتدفئني بكلمة حنان فأرتعش دفئًا. لطالما وهبتني في تلك اللّيالي معنًى للوجود، وألهمتني

الحكمة التي أنشدها. لم أَطُلْها. لم أفكّر أصلًا في الوصول إليها. كنت خائفًا دومًا منها ومن كلّ النّساء. لكن تلك الرّسالة التي كتبتها على لسان صديقي كانت فاتحة لرسائل غرام أخرى كتبتها على ألسنة عشّاق آخرين في مقابل أجر زهيد: وجبة غداء، أو كأس شاي، أو علبة سجائر. يا لي من تافه!

وجدت نفسي أمام العمارة التي يقطن فيها صديقي. أعجبتني البرودة والرّطوبة في مدخلها. وقفت قليلًا في بهو السّلم، أمسح العرق عن وجهي ورقبتي، وأحضّر في ذهني الكلامَ الذي سأقوله. لقد سلّفني النقود في مرّات عدّة قبل هذه، لكنّه طيّب ويكنّ لي المودّة، على الرّغم من أنّه بات إنسانًا صالحًا، ولا يعجبه ضياعي، ولم تعد تعجبه أفكاري. كنت أشعر بالعطش الشديد، وبالجوع أيضًا. وكانت تطفو في الهواء الراكد في البهو، روائحُ طعام شهيّ؛ رائحة دجاج مشويّ. صعدت السُّلّم ومعدتي تتلوّى جوعًا ولعابي يكاد يسيل من فمي. فتح صديقي الباب ورحّب بي، ودعاني إلى الدخول، لكنّني رفضت كي لا أزعج زوجته، فهي لا تحبّني. طلبت منه كأس ماء فغاب، وظلّت رائحة الدجاج تعذّبني. كانت تنبعث من بيته، تنسلّ من شقّ الباب، وترتسم في الهواء على شكل طبق فيه دجاجٌ محمرّ اللّون تتخلّله قطع البطاطا. صورةٌ جعلت معدتي تعوي. شربت الماء ودعاني صديقي ثانية إلى الدخول وتناول الطعام معهم، فزعمت أنّني تناولت غدائي للتوّ، ولست جائعًا أبدًا، بينما شهوة الاعتراف بجوعي تعذّبني. واعترفتُ، بدلًا من ذلك، بحاجتي إلى المال. وعدته بردّ هذا المبلغ مع المبالغ التي استدنتها منه في السّابق من أوّل مرتّب أستلمه، ما إن يعيّنوني مدرّسًا. ضحك صديقي، وأعطاني في النهاية عشرين دينارًا، معتذرًا ومبرّرًا بأنّ مصاريف العائلة والطفل الذي رُزق به مؤخّرًا تُثقل كاهله.

❖❖❖

اشتريت في طريقي ساندويش شاورما، وتلذَّذت بطعمه وأنا أمشي في شوارع اللويبدة. بيوت قديمة وجميلة محاطة بالحدائق، وأسيجة يكسوها الياسمين. ليس في وسعي تخيُّلُ الحياة فيها. يبدو الأمر عسيرًا تمامًا مثل صعوبة تخيُّل الجنَّة. مَن هؤلاء المحظوظون الذين يعيشون فيها؟ كيف يعيشون؟ ما طعم القهوة التي يشربونها في الصَّباح، في تلك الشُّرفات المرتفعة عن الأرض عدَّةَ درجات، تزيّنها من الجوانب أصصُ الورود؟ ما شكل المرأة التي تسقي هذه الورود؟ أيُّ سعادة تغمرها هي وأفراد عائلتها؟ هل يعذِّبهم شيء ما؟ هل تعذِّبهم أسئلة تشبه تلك التي لا أكفّ عن طرحها على نفسي؟ هل ينقصهم شيء ما؟ ماذا يمكن أن ينقصهم؟ هل يمكن لإنسان ينقصه شيء ما، يعذبه شيء ما، سؤالٌ ما، أن ينتبه لورقة شاذَّة، نَمَتْ في شجرة الصنوبر تلك، فيأخذ المقصّ ويقصّها ليظلّ شكل الشجرة هرميًّا لا تشوِّهه النتوءات؟

انتابني فجأة حزنٌ على أشجار الصَّنوبر التي يقلّمونها لتَّتخذ أشكالًا هندسيَّة. يا إلهي! تخيَّلت معاناة هذه الأشجار. تخيَّلت ألمها، وهم يقصّون أغصانها ويسجنونها في الشكل الذي يشاؤونه. تخيَّلت توقها إلى الحرِّيَّة، وإلى النموّ وإطلاق أغصانها في الاتِّجاهات كلّها، باحثةً عن الشمس والهواء.

أنا شجرة صنوبر ضحيَّة للمقصّ، أو لساطور هَوَتْ عليّ به عائشة ذاتَ يوم وقطعت أغصاني. لكنَّني لا أزيِّن حديقة، بل أنمو في طرف مزرعة أبي، من دون أن يحيد ناظراه عنّي، كي لا أجرؤ على النموّ ثانية وأشوّه غابة أعشابه الضارَّة.

صادفتني حانةٌ صغيرة تبيع الخمرة فدخلتها. صَعُب عليَّ تحديدُ جنس البائع للوهلة الأولى: أهو رجل أم امرأة؟ شعرُه قصير، وجذعُه الفوقيُّ أعرضُ من نصفه التحتيّ، ومؤخّرتُه ضامرة وقدماه نحيلتان، وله صدر يكاد يكون صدر امرأة لولا صغرُه، ووجهُه ناعم ولا أثر فيه لذقن محلوق. كان

يحمل سيجارة بيده، ويدخّن بشراهة. وإلى جانبه مسجّلة صغيرة، كانت أم كلثوم تغنّي فيها بصوت منخفض: كلّ ليلة وكلّ يوم. ألقيت التحيَّة فأجابني صوت نسائيّ. إنَّها امرأة إذن! ضحكتْ ما إن سمعت لهجتي، وسألتني:

ـ كيف أخدمك أيُّها البدويّ الجميل؟

ـ هاتي لي كأسًا من الخمرة أيَّتها المرأة الجميلة!

أعجبها غزلي، فضحكت مقهقهة وقالت:

ـ أشكرك على هذا الكذب الجميل!

ـ لماذا تقولين ذلك؟

ـ لأن لديّ مرآة، وهي للأسف صادقة ولا تكذب. كلَّما نظرت إليها انتابني الرُّعب وسألتها بدهشة: مَن هذه المصيبة؟ أليس لديك أشكال أخرى غير هذه النسخة؟ لقد مللتُها! والكارثة أنَّها تستجيب وتقدِّم في اليوم التَّالي شكلًا مختلفًا قليلًا، لكنَّه أكثر سوءًا من الذي سبقه!

قالت ذلك بتلقائيَّة وهي تضحك، كأنَّما تتحدَّث عن شخص آخر وليس عن نفسها. وخطر في بالي أنَّها تقول ذلك لكلّ مُشترٍ يتبادل معها الحديث. أسلوبٌ ذكيٌّ وجميل، يحوِّل البشاعة إلى مادَّة للتندُّر والسُّخرية، فيصبح من الممكن التعايشُ معها، واحتمالُها، وقد ينساها المشتري وتنساها، ربَّما، هي ذاتها. تهكُّمها الحرّ على ذاتها جعلني أرى الجمال فعلًا. يفتنني الصّدق، تسحرني السُّخرية من الحقيقة. مع أنَّني قرأت خلف هذه السُّخرية حزنًا عميقًا. إنَّها امرأة تعيسة تعبّر عن ألمها بالضحك. تعترف بالحقيقة أمام أيّ عابر سبيل، كأنَّها بذلك تنتقم من هذه الحقيقة، وتضحك عليها وتمرّغها بالسُّخرية المُرَّة. قلت:

ـ أنت جميلة فعلًا. ثقي بأنَّني لا أكذب.

فكفَّت عن الضحك وأخذت نَفَسًا عميقًا من سيجارتها قبل أن تسحقها في المنفضة، بينما عيناها تتأمَّلانني. نفثت الدُّخان ثمَّ سألت:

ـ حسنًا، أيّ نوع من الخمرة تريد أيُّها البدويُّ الجميل؟

ـ أرخص الأنواع، فأنا لا أملك المال. أريد زجاجة عرق.

«بدويٌّ فقير يطلب الخمرة. لنرَ ماذا لدينا هنا؟» قالت وهي تعطيني ظهرها وتتفحَّص زجاجات على رفّ منخفض.

سألت وهي تضع على الطاولة الزجاجةَ التي تناولتها:

ـ لكنْ، ما الذي جاء بك إلينا أيُّها البدويّ؟

ـ سُرياليَّة الحياة!

فانفجرت في الضحك، وسألتها وأنا أضحك معها:

ـ ما الذي يُضحكك هكذا؟

ـ اعذرني. لكن الأمر يبدو طريفًا جدًّا: بدويٌّ يعرف كلمات غريبة كالمثقَّفين! سُر...؟! أَعِدْ من فضلك الكلمة التي قلتها!

ـ سرياليَّة الحياة.

ـ وماذا تعني هذه الكلمة؟

ـ تعني غرابة الحياة ولاواقعيَّتَها، إلى درجة تبدو فيها أشبه بالخيال والحلم. ليس حلم اليقظة، بل الحلم الذي نراه في نومنا.

ـ سُرياليَّة! كلمة جميلة. لها موسيقى اللُّغة الفرنسيَّة.

ـ هذا صحيح، فقد ابتكرها الفرنسيُّون.

فسألتني بدهشة شديدة: أتعرف الفرنسيَّة؟

ـ لا... لا أعرف سوى العربيَّة، لكنَّني أعرف أصل بعض المصطلحات غير العربيَّة.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

فنظرتْ إليَّ بدهشة، وضحكت. وقالت، وهي تضحك وتتناول منِّي ثمن الزجاجة:

ـ إنَّ أمرك غريب حقًّا أيُّها البدويُّ. أمرك سرياليّ!

ـ وما هو الغريب في نظرك؟

ـ لا أدري. ربَّما لأنَّني لم أصادف من قبل بدويًّا لا يملك المال، ويبدو البؤس عليه، ويشرب الخمرة، ويعرف السُّرياليَّة!

ضحكتُ وخامرتني رغبةٌ في الثرثرة. ثمَّة شخصيَّات لا أدري ما الذي يميِّزها من غيرها، تثير رغبتي في الكلام. ربَّما هو إحساس خفيّ ينتابني بأنَّها تجيد الإصغاء، تجيد الفهم، تجيد التعاطف معك، وتنحاز إليك كضحيَّة بريئة نُكّل بها.

قلت للمرأة الطَّيِّبة، مالكة الحانة، إنَّني أهوى القراءة، وأصرف كثيرًا من النقود، على حساب معدتي، من أجل شراء الكتب. لكنَّ الكارثة أنَّ عدوّ أبي الأوَّل هو الكتب. فهو يحتقر المعرفة، ويعتقد أنَّ الكتاب الوحيد الجدير بالقراءة والحفظ هو القرآنُ فقط، ولا شيء غيره. حدَّثتها كيف عدت إلى القرية قبل نحو الشهر، بعد غياب سبع سنين، لا أحمل سوى الكتب والديون، وكيف كان أبي على وشك أن يحرقها، لولا فكرة خطرت في بال أمِّي بأن أبيعها، فوافق ونصحني بأن أشتري بثمنها نعجتين أرعاهما مع بقية أغنامه، وكيف جئت اليوم إلى عمَّان ووضعت هذه الكرتونة في عهدة حارس مصريّ، تعرَّفت إليه ذات يوم في إحدى حانات وسط البلد، فخبَّأ لي الكتب في حجرة محرِّكات التدفئة. وها أنا أشعر بالبهجة لنجاحي في إنقاذ الكتب، ولهذا قرَّرت أن أحتفل باحتساء كأس من الخمرة.

ـ اسمع: مع أنَّ الشرب هنا ممنوع، فليس مخوَّلًا لنا في هذا الحانة ـ المتجر سوى بيع الخمرة، لكنَّني سأخرق القانون، فليذهب القانون إلى

جهنّم. سأشرب معك كأسًا بهذه المناسبة. سأشرب في صحّة الكتب، عدوّة أبيك، التي أنقذتها.

وأخرجت زجاجة مفتوحة من أسفل الكاونتر، فهمت أنّها تشرب منها في السّرّ، وسكبتْ كأسًا لي، وكأسًا لها، ثمّ أضافت إليهما الماء. قلت لها إنّ في وسعي أن أشرب من زجاجتي، لكنّها أصرّت قائلة: أَبقِها لك لتشربها في وقت آخر. أسعدني ذلك كثيرًا: أن تبقى زجاجتي كاملة أشرب منها في آخر اللّيل بعد أن ينام أهلي. شكرتها بامتنان، وخصوصًا أنّها قالت لي إنّ في وسعها أن تحتفظ لي بكرتونتَي الكتب اللّتين لم أنقذهما بعد، في حال لم أعثر على مخبأ آخر لهما. وواصلنا الحديث وهي تسكب لي ولها، ونشرب معًا. وانطلق لساني يحدّثها عن أمجاد فقري، وقصصه الطريفة، وهي تضحك وتدخّن بشراهة، وتسألني:

ـ ما الكلمة التي قلتها؟ لقد نسيتها سريعًا، فذاكرتي سيّئة.

ـ سُرياليّة.

ـ أجل، سُرياليّة. يا لك من بدويّ سُرياليّ!

❖❖❖

تلفّتُّ حولي. مرّ ما يقارب ربع ساعة ولم يَعُدِ الطفل. أظنّ أنّه فعلها وهرب. كان العجوز النّحيل الذي يحمل عكّازًا، لا يزال جالسًا في مكانه. ينظر أحيانًا إليّ. تقول نظراته لي أيضًا: لا داعي للانتظار أيُّها الأحمق، فلقد تعرّضت للنّصب من قبل طفل متسوّل صغير. في هذه اللّحظة، رأيت الطفل عائدًا يركض. كان يحمل كيسًا بيده. اقترب منّي لاهثًا. أعطاني في البداية بقيّة النقود: ثمانيّة دنانير وبعض القروش. وأعطاني أيضًا ساندويش وزجاجة عصير صغيرة. قال لي إنّه قرّر أن يشتري لي الطعام أيضًا بما أنّني جائع ومتعب ومتكاسل عن المشي.

«لكن، لماذا قرّرت أنّني سآكل ساندويش فلافل. ربّما كنت أريد أن أتناول شيئًا آخر؟» سألته، وما زلت مأخوذًا بنتيجة الاختبار.

- لكنّك قلت إنّك لا تملك سوى عشرة دنانير.

ومضى الطفل وهو ينزع الورق عن ساندويشه ويأكلها بنهم. لست أدري إلى أين تدفعني هذه الرّكلة. انتابتني سعادة بالغة لأنّ الطفل عاد؛ ليس فقط لأنّه أعاد إليّ النقود، بل لأنّ ثمّة إحساسًا غمرني بأنّني قد أنجو من هذه الهوّة. هوّتي أنا... نذالتي أنا... توحُّشي أنا... وربّما أقوى على التمرُّد على الحياة، بالحياة نفسها وليس بالموت. أريد أن أؤمن بأنّ في وسع الخير أن ينتصر. رأيت فجأة العجوز يتعكّز على عصاه، محنيَّ الظهر مقتربًا ببطء منّي. وقال لي:

- أنا أيضًا كنت أخشى ألّا يعود، لكنّه عاد. من الجيّد أنّك وثقت به.

ومضَ، فورًا، في ذهني الكابوسُ الذي رأيته في اللّيلة السّابقة. ولسبب ما، رحت أحدّث العجوز عنه، كأنّني أعرفه. ربّما كنت أريد أن أحدّث أيّ أحد، بعد أن تعبت من الثرثرة مع نفسي فقط. قلت:

- كنت أعتقد قديمًا أنّ الإنسان اثنان، لكنّني اكتشفت مؤخّرًا أنّه ثلاثة!

فراح يضحك، وجلس إلى جانبي قائلًا: «اشرحها لي». قلت:

- كنت أظنّ أنّ الإنسان اثنان يتصارعان. الأوّل شرير ومنحاز إلى ذاته ورغباته، ويسعى إلى تحقيقها حتّى لو اضطرّ إلى تجاوز الحدود، وربّما قد يُقْدِم على الجريمة، بل إنّه مستعدّ أيضًا، في حال شعر بخطر ما يهدّد حياته، لتحمُّل الذلّ والإهانة؛ مستعدّ للانحطاط، كي لا يموت. والثاني هو الخيّر الذي لا يكفّ عن وضع القيود ويحاول فرضها على الأوّل، كي يهذّبه،

ويجعل منه إنسانًا متمسّكًا بالأخلاق والكرامة والأنفة، وهو مستعدّ للموت كي لا يتخلّى عن عزّة نفسه و...

سألني العجوز مقاطعًا بفضول:

«والثالث مَن؟» فقلت:

ـ إنّه ذلك الذي يقف بينهما. يرى الاثنين عن بُعد. يرى كيف يشطُّ الأوّل بأنانيّته ووضاعته، وكيف لا يتوقّف الثاني عن وضع القيود والإدانة والمحاكمة. أمّا هو، فضحيّةُ الاثنين معًا: ضحيّةُ أنانيّة الأوّل وتوحّشه، وضحيّةُ الإدانة والمحاكمة المتواصلة من الثاني. إنّي أراه واقفًا في الظلّ معذّبًا بينهما. هذا ما رأيته في ليلة الأمس في الحلم: كنت هاربًا من شخص يلاحقني داخل غرفة مظلمة ومغلقة. في الخارج، في الضوء، كان ثمّة شخص يريد إنقاذي والتّصدّي للشخص الذي يلاحقني في الداخل. الثلاثة كانوا أنا.

فقال العجوز:

ـ كأنّني أنا هو ذاك الثالث! كلّما تقدّم بي العمر وانحنى ظهري أكثر، اكتشف أنّني ذلك الثالث.

❖❖❖

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

اللّيلة السّادسة

سرعان ما تعافيت من أوهام الخير؛ من وهم عينين بريئتين وصادقتين في وجه طفل رثّ، قذر ومتسوّل. كنت دخلت دكّانًا لأشتري منها بعض الخبز والشاي والسُّكر. وشاهدت تلفازًا معلّقًا بالقرب من البائع. ورأيت في مقابل عينَي الطفل المتسوّل مشهدًا لأناس بملابس وأقنعة سوداء تغطّي وجوههم، يحملون السّكانين كي يقطعوا بها رؤوس آخرين يجلسون أمامهم بملابس برتقاليّة، على شاطئ بحر، حيث الأمواج تتلاطم وتموت على الرّمال والحجارة. كان البائع يتابع المشهد باهتمام. أمّا أنا، فلم يُشعرني المشهد ذاته بالخوف ولا الإدانة أو التعاطف، بل بالخزي.

عدت إلى الغرفة وأنا أتخيّل نفسي بملابس سوداء. أبي أيضًا كان بملابس سوداء. وكانت عائشة ترتدي الملابس البرتقاليّة. وكنّا نتناوب عليها أنا وأبي: ينزع من رقبتها سلسلتَها الذهبيّة ثمّ يرفس بطنها، فتئنُّ، ويحين دوري فأضاجعها. وإذ ذاك تضحك في وجهي. كانت بلهاء بلا عقل. أمّا أنا وأبي، فكنّا بعقل.

فجأة، يخطر في بالي أنَّ مأساة الإنسان هي عقله، فبفضل ذكائه اكتشف الإنسان الشَّرّ، وفاق بوحشيَّته كلَّ الكائنات الأخرى. عقل يبرِّر الشرّ بمسوّغات نكذب بها على أنفسنا كي تغدو الحقيقة قابلة للاحتمال. عقل يستثمر الغباء والبله. عقل يبتدع أوهامًا تنقذه من الموت والعدم. عقل يقتل الآخر في سبيل الوهم. عقل يمسح يديه من الدِّماء ثمَّ يلقي على كتفه قماش قصيدة، يتغنَّى فيها بإنسانيَّته.

تتدفَّق في رأسي صور حروب قديمة وحروب راهنة. إنَّها الحرب ذاتها، تتلوَّى كأفعى عابرة صحراء الزَّمن. في غبارِها تلمح حطام مدنٍ. تلمح دمارًا وأناسًا تتناثر أشلاؤهم أرقامًا في كتب التاريخ، وحشود غفيرة معفَّرة بالهياج والنقمة تمور ككتلة واحدة. أيادٍ طويلة تمتدّ من خارج الحدود لتسرق وتنهب وتمزّق ولا تشبع، وجياع صغار ببطون منتفخة، وفي القرب أياد قصيرة تأمرك: «أن أعطني ما لديك خاوة»، وسيوف لقطع الرؤوس، ومصائد معتقدات للجم الألسن، وخرابات مقفرة تهيم بها أشباح لا زالت معذَّبة بوهم العدالة. أحزان ومآسي وضغائن وآلام تنزف وصراعات تدكّ الأرض. اجترارات متواصلة للصراع الغريزيّ من أجل البقاء. هو ذاته الذي كان في البدء، لكن العقل طوَّر آلته، وكتب من أجله موسيقى الانتصارات، واخترع في سبيله لغة شاسعة يحلّق فيها المرء مصدِّقًا أنَّ بوسعها أن تعينه على استيطان السماء.

على الضِّفة الأخرى لدفق هذه الصُّور التي تجسّد الإنسانيَّة، أرى بيتًا من قصب تعصف به الرِّيح، ورجل نحيل وهزيل ينظر إلى اللَّيل عبر نافذة صغيرة، محاولًا أن يمنح هذا الوجود معنى لا تشوبه الدِّماء. محاولًا أن يرى انعكاس صورته في الظلام خلف زجاج النَّافذة: إنسانًا يلهث راكضًا من زاوية إلى أخرى في أرض المعركة، ململمًا فتات أرواح لينسجها ويستنبط منها نبضًا جديدًا، يضخّ أغنية أخرى في رحلة عبوره من العدم وإلى العدم.

تواصل هذه الصُّور النبض في رأسي إلى أن أسقط في النوم.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

سقطتُ. كنت أمشي، وعصفت بي فجأة قوَّةٌ غامضة ودفعتني بقسوة، فهويت بتسارع شديد. ورأيت، في ومضة خيال خاطفة، وأنا أهوي، كيف سترتطم قدماي بالأرض؛ كيف سيرتطم جذعي وبطني وصدري؛ كيف سيرتطم وجهي بأسفلت الشَّارع. رأيت وجهي محطَّمًا إلى درجة يصعب التَّعرُّف إليه فيها. بيد أنَّ ذلك لم يؤرِّقني. ما أقلقني هو أبي الذي كان يقف على بعد مسافة منِّي يراقبني مبتهجًا، مرتديًا ملابسَ سوداء وقناعًا أسود. لكن، قبل أن أصل، وقبل أن أرقد ساكنًا على أسفلت الشارع، امتدَّت يدا عجوز ما وتلقَّفتاني. أمسكتا بي وأسندتاني. كنت مرعوبًا والعرق يتفصَّد من جسدي، إنَّما ليس من السُّقوط ذاته، بل من السُّؤال الذي رحت أطرحه، صارخًا بذعر على ذلك العجوز: هل رآني أبي؟ هل رآني أبي وأنا أسقط؟ هل رآني؟

أكَّد لي العجوز، غائم الملامح، أنَّ أحدًا لم يرني، ولاسيَّما أبي، فهو ليس موجودًا في المكان ليراني، بل إنَّه ليس موجودًا في الزَّمان حتَّى! «أبوك مات! لقد قتلتَه بيديكَ منذ زمن! أنسيتَ ذلك؟!». قال لي باستغراب. ولم أسمع ما قاله بأذنيَّ، بل بكامل جسدي. اخترقت كلّ كلمة نطق بها كيانيَ وهزَّته بعنف فارتعد. نظرت في وجه العجوز وكان وجهي أنا. كان وجه العجوز هو وجهي أنا.

فتحت عينيَّ واستيقظت من شدَّة الذُّهول والرعب، وبقيت للحظة أحدِّق أمامي، غير أنَّني لم أرَ شيئًا، ولم أسمع شيئًا. كأنَّني سقطت في هوَّة العدمِ؛ العدمِ الخاوي والفارغ من كلّ شيء سوى من جسدي الهزيل الذي لم يكفَّ عن أن يرتعد. لم أعرف إن كنت أرتعد من البرد القارس الذي كان يلفّني، أم من هول الكابوس الذي رأيته؟ كان جسدي مكشوفًا بلا غطاء، وكان الغطاء على بعد مسافة منِّي. نهضت بصعوبة. أشعلت ضوء الحمَّام، فأجفلني انفجار الضوء المباغت، كما لو كان صرخةً مدوِّيةً انطلقت من قلب الظَّلام، وأعمت بصيرتي. فتحت صنبور الماء. لم يكن حلقي وحده، بل

كياني كلّه كان جافًّا كصحراء. تخيّلت أنّني سأشرب خزّان الماء، لكنّني لم أشرب إلّا جرعةً صغيرة، فالماء كان باردًا جدًّا، والهواء باردًا، وجسدي يرتجف، ورأسي يؤلمني بشدّة، وفي لجّة الألم ثمّة من لا يزال يكرّر: أبوك مات. لقد قتلتَه بيديك. هل نسيت؟

أجل، أجل. قتلتُه! كيف أنسى؟ لقد قتلته. قلت في نفسي، وتهاويت.

❖❖❖

نظر أبي إليّ بريبة ودهشة حينما وضعوني بمعيّته في صندوق سيّارة الشرطة. صندوق يشبه الزنزانة الصغيرة. أراد الشرطيّ أن يضع القيد بيدَيْ أبي، فاعترضت. قلت له: ضعه في يدي أنا. فنظر إليّ أبي في ذهول، ولم يرفع نظره عنّي، بينما يرفض الشرطيّ عرضي، قائلًا إنّه لا يمكن لأحد غير أبي، أن يتحمّل مسؤوليّة فعلته. أشاح أبي بنظره عنّي وظلّ صامتًا والشرطيُّ يقيّد يديه. كنت أتصوّر أيَّ نقمة وأيَّ غضب وأيَّ أحساس بالإهانة تلتهب في داخله. يخالط ذلك دهشةٌ من موقفي. لقد هرعت لأفكّ الاشتباك بينه وبين بعض الرجال بعد أن قذف أحدهم بحجر وشجّ رأسه، فهجموا عليه، ووجدت نفسي أركض لأحميه.

كنت عائدًا من عمّان، أحمل بيدي زجاجة العرق. كنت سعيدًا لأنَّ مالكة الحانة ضيّفتني العرق مجانًا، وتركت لي هذه الزجاجة البيضاء ذخرًا لليلة سوداء. ما إن اقتربت من البيت حتّى رأيت أبي عند طرف البستان يتعارك مع بعض الرّجال. رميت زجاجة العرق الملفوفة بكيس أسود، على الأرض الترابيّة، وهرعت لنجدته. فهمت فيما بعد أنّهم أقرباء عائشة، وأنَّ سبب الخلاف هو ذاته الذي لم يُحسَم منذ سنين: بيتُها الذي يعدُّ أبي نفسه شريكًا فيه.

لماذا فعلتُ ذلك؟ سألت نفسي وأنا جالس قبالته في سيّارة الشرطة في طريقنا إلى السّجن. لماذا اندفعتُ على نحو تلقائيّ لنجدته؟ هل فقط

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

لأنَّه أبي البيولوجيّ ويتوجَّب عليَّ، أمام الناس الدِّفاعُ عنه؟ أم لنيل اعتراف منه بأنَّني لست فاشلًا، ولا جبانًا، ولا ضعيفًا، كما يصفني؟ أم طمعًا في رضاه عنِّي؟ هل حقًّا أطمع في نيل رضاه؟ أم لعلّي أردت تسجيل موقف أُحرجه به؟ أم لعلّي خشيت أن يلقي على عاتقي تهمةً جديدة: أنَّني رأيته يُضرَب وواصلت طريقي من دون أن أمدّ له يدي أؤازره وأهرع لنجدته، كما يفعل سائر الأبناء، كما يفعل سائر خلق اللّـه الطبيعيّين؟

في جدار السَّيَّارة طاقة صغيرة تطلّ على الظلام. أنظر إلى الظلام وأرى وجه عائشة، فأشيح بوجهي. «أبوكَ سرقها وأنت هتكت عرضها»، وها قد دخلتُ في عراك بسبب بيتها، مصطفًّا إلى جانب أبي.

لماذا عدت إلى هنا؟

كان أبي يجلس قبالتي مقيَّدَ اليدين، ويحوقل بين الحين والآخر ثمَّ يتنهَّد، ويجحظ بعينيه مغبونًا، تمزِّقه الأحقاد كذئب وقع في مصيدة. كنت أتصوَّر أيّ نار تضطرم في داخله، بعد أن اعتقلوه وقيَّدوه. انتابني إحساس بلذَّة رائعة استقيتها من مشهد ذُلِّه. لقد هرعت لنجدته كي أذلّه. أجل، لهذا السَّبب تحديدًا هرعت لنجدته. عزَّيت نفسي بهذا الاعتقاد. قلت:

ـ لقد هشَّمتَ رأس الشَّاب بالحجر، كان يمكن أن تقتله!

ـ كان هو البادئ. سألته كيف يستعمل الأرض المحيطة بالبيت قبل أن يُقسَّم على الورثة، وأنا منهم، فراح يشتمني شتائم بذيئة.

ـ لكنَّك في واقع الأمر لستَ وريثًا.

ـ بل وريث، ومسجّل في دائرة الأراضي!

ردَّ أبي بصوت عالٍ لا تشوبه رجفة شكّ وهو ينظر بعينيه المحتقنتين بالغضب إلى وجهي.

لم ينفكّ هذا الرجل، في يوم من الأيّام، يدهشني كيف يسطو على الحياة؛ كيف ينتزع منها عنوة كلّ ما يريده. يُدهشني يقينه بأنّ الحياة أرض ومال، وذاتُه التي يدافع عنها كما هي، بل هو مستعدّ للقتل من أجلها، كي لا يمثّل. كي يظلّ هو ذاته، بشرّه وقسوته وجشعه. وها قد دافعت معه عن هذه الذّات. لديّ رغبة في قتله، لكنّني بدلًا من ذلك أدافع عنه. يا لتفاهتي وجبني!

❖❖❖

صَفَقَ الشُّرطيُّ الباب بقوّة وحرّك المفتاح بالقفل وأحكم إغلاقه، فارتسم صوت صَفْق الباب وصرير المفتاح وهو يدور في القفل، على هيئة صدمة عميقة، دوّت في عينَيْ أبي وهما تتّسعان مذهولتين. كأنّه في هذه اللّحظة فقط، أدرك أنّهم كانوا يقودونه إلى السّجن فعلًا.

جلست في طرف الزنزانة مقرفصًا على الأرض، وظلّ هو واقفًا لدقيقتين ولا يزال مصدومًا. ثمّ جلس هو أيضًا. لم نتبادل كلمة واحدة طوال عشر دقائق. خيّم علينا صمت مطبق وكثيف، يطفو في الهواء ويحتلّ كلّ ذراته فيغدو ثقيلًا. أشعلت سيجارة من دون أن أقيم له اعتبارًا، فرمقني بنظرة طافحة بالاستهجان والغضب من وقاحتي. وقال بعد دقيقة:

ـ أولاد القحبة، لقد خطّطوا لسجني! أنا واثق بذلك! خطّطوا لذلك كلّه كي يثبتوا لي أنّي ضعيف، كي يذلّوني ويشوّهوا صورتي!

بدا لي للحظة في حال يُرثى لها. ليست حاله في تلك السّاعة فحسب، بل حاله في العموم: كم يعذّبه وهمُ تآمر الآخرين عليه، كي يشوّهوا صورته، ويُضعفوه ويُذلّوه. كم تُقلقه هذه الصُّورة. اكتشفت في تلك اللّحظة أنّ السّجن ـ أيِ انتزاعَ حرّيّته ـ أمرٌ لا يؤرّقه، بالقدر الذي تؤرّقه تبعات هذا السّجن على صورته، أمامي وأمام العالم. سألته بتهكُّم:

ـ هل خطّطوا لأن تقذف ابنهم بحجر في رأسه؟

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

ـ لقد اعتدوا بكلّ وقاحة على أرضي!

ـ لكنَّها ليست أرضك، ولم تكن في يوم كذلك. لا أفهم كيف تسطو على كلّ شيء تريده، وتأخذه بالقوة؟

ـ أنا لا أسطو، بل آخذ ما هو حقِّي! ما تعبتُ في سبيله. ولن أسمح لأحد بأن يأخذه منِّي.

ـ يعني أنَّ كلّ ما في وسعك أخذُه بالقوّة، يصبح حقَّك؟

ـ كل ما أعمل وأكِدُّ من أجل الحصول عليه يصبح حقِّي!

وضحكتُ ساخرًا وأشعلت سيجارة أخرى. ولكم استفزّه ضحكي وتدخيني أمامه ومخاطبتُه بصراحة لم يعهدها منِّي. هتف بي بغضب:

ـ وتسخر منِّي أيُّها الكلب السافل! في هذا البيت لي حقٌّ أكثر ممَّا لهم، أنا الذي استقبلتها في بيتي، وأطعمتها، وصرفت عليها، حينما أداروا وجوههم عنها. أمّا أنت، فلم تُقم اعتبارًا للشرف وتصرَّفت معها مثل أيّ سافل منحطّ.

أكملتُ السيجارة وأنا أحدِّق في الفراغ، وأرى عائشة تسأله بسذاجة مثيرة للشفقة: «يعني، ستردّ إليَّ الذهب حينما أتزوَّج؟». ثمَّ أراها تغيب في الأرض عند أسفل ساق شجرة الزيتون. «وهي، مَن سيرحمها يا بنيّ؟»

أطفأت السيجارة في أرض الزنزانة، وأخذت فرشة، مددتُها، ثمَّ استلقيت عليها معطيًا إيَّاه ظهري. لو أطلتُ مكوثي عشرَ دقائق أخرى عند مالكة الحانة لما كنتُ الآن هنا. لو تأخَّرتِ الحافلةُ التي استقللتُها في عمّان خمسَ دقائق، لما كنتُ الآن هنا. أشياء صغيرة وتافهة كان يمكن لها أن تقف حاجزًا أمام وجودي هنا. مثلما كان في وسع أشياء صغيرة وبسيطة أن تمنع حدوث قصَّتي مع عائشة: لو أبطأ ذلك السَّائق سرعة سيَّارته، أو لو أنَّني انتبهت للمسمار فلم أطأ عليه. لو لم يحدث شيء من ذلك لكانت عائشة حيَّة الآن، ولما بتُّ مجرمًا.

لا أدري لماذا انتابني إحساس بأنَّ هذه الأشياء لو لم تحدث، لكانت حدثت أشياء أخرى قادتني إلى المصير ذاته.

أريد أن أنام، لكنَّني لا أنام.

هو أيضًا لم ينم. كنت أسمع صوت أنفاسه يعلو ويهبط كأنَّه صوت أفكاره: السَّاحةِ الأخرى التي كان يخوض فيها معارك من أجل المال والحياة، وربَّما الآخرة أيضًا.

خرجنا في صباح اليوم التَّالي من السِّجن بفضل كفالة دفعها أخي الشرطيّ.

❖❖❖

ما إن فتحت نافذة غرفتي حتَّى راح يتناهى إليَّ عواءُ ذئب بعيد؛ عواءً حزين، ينتشر في عتمة اللَّيل وفي البراري. ذئب يعوي في وجه السَّماء المظلمة. لا يشكو، بل يحاكم هذا الوجود ويستجوبه، ويحقِّق معه، ويدينه بألم وعتاب حارّ. إنَّه يوقظ في الرُّوح تلك الرَّغبةَ الرهيبة في عتاب هذا الوجود على تستُّره على المعنى: معنى هذه العزلة المأساويَّة التي نحياها؛ معنى الألم الخالص الذي يلتهب في وجداننا. عواءٌ يُحدث فراغًا في الأعماق ويتركنا مذهولين أمام الحقيقة التي تتوهَّج فجأة، مثلما يتوهَّج الألم الحادّ من دون سابق إنذار: لا جدوى، ولا معنى.

كنت عثرت على زجاجة العرق سليمةً ملقية تحت إحدى الأشجار. جلبت من المطبخ زجاجة ماء، وكأسًا، وبعضَ الخبز، فلم أعثر على شيءٍ آخر أتناوله مع المشروب. رحت أشرب العرق وأنا أدخِّن، وفي ذهني تطفو أحداث المساء. في المسرحية الأخرى التي كنت ممثِّلًا فيها على الرَّغم منِّي. الصلح العشائريّ، الذي جرى مع أقرباء عائشة، بخصوص إيذاء أبي أحدَ أبنائهم. نفاق وتملُّق غلّفا لساعةٍ الرَّغبةَ في ابتزاز المال، والصراع على أرض بيت لم أجد أنَّ أحدًا منهم له الحقُّ فيه.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

ما لي ولهم جميعًا؟ لماذا دافعت عن هذا الرجل الذي هو أبي؟ لماذا كنت بينهم؟ لماذا أحيا في لجّة هذا الهراء كلّه؟

أجفلني فجأة بابُ الغرفة ينفتح. ورأيت عنده أبي. كان ينوي الدخول، لكنَّ مشهد الكأس والزجاجة أمامي شلَّ خطواته، فظلَّ واقفًا عند الباب يحدّق فيَّ وفي الزجاجة مصعوقًا، وأنا أحدّق فيه بدهشة.

ـ هكذا إذن: تسكر؟

سأل، وهو في غاية الذهول والغضب، وسار مسرعًا نحو الزجاجة، تناولها ورماها من النافذة بانفعال. لم يكن قد تبقى فيها، لحسن الحظّ، سوى القليل جدًّا. وسمعت عبر النافذة صوت ارتطامها بحجر وتكسُّرها. قال بصوت حادّ:

ـ اسمع، فلتعلم بأنّني لم آتِ لأتشاجر معك، لكنَّك مبدع في اختلاق أسباب للشجار؛ مبدع في ارتكاب الرذائل. إنَّ هذا لَعجيبٌ حقًّا! لا شيء يعدلك. لا شيء يغيّرك. ستظلّ ساقطًا، فاشلًا، ولن تفلح في شيء. لا أمل فيك. لا أمل على الإطلاق!

لم أُجبه.

ـ لقد جئت أسألك إن كنت بعتَ الكتب في مشوارك إلى عمّان في الأمس؟

ـ أجل، بعتها.

ـ وبسعر جيّد؟

ـ بثلثي السّعر الذي اشتريتها به.

ـ لم أرَ معك في الأمس أيَّ نقود تُذكر حينما فتّشونا في الشرطة؟

ـ سأستلم ثمنها فيما بعد. أعطوني اليوم دفعة أولى والباقي سيدفعونه لاحقًا.

ـ وذهبتَ فورًا وشربت الخمرة بالدفعة الأولى، وموَّلت نفسك بالمشروب بما تبقّى منها!

فاشل وكذّاب! طوال عمرك فاشلٌ وكذّاب وساقط!

وخرج صافقًا البابَ خلفه، فهزّني صوته كأنّه باب سجني.

❖❖❖

قادتني مالكة الحانة إلى باب يُفضي إلى مخزن الحانة، وقالت: ضع الكرتونتين تحت هذا الرفّ، وكن مطمئنًّا، ففي هذا المكان أصبحت كتبك في مأمن، فلستُ أظنّ أنّ يدَي أبيك ستطالانها هنا.

وحينما انتهيت من تخبئة الكرتونتين، أضافت قائلة: صحيح أنّني لا أحبّ القراءة، بل إنّني لم أقرأ في حياتي، مرغَمة، إلّا الكتبَ المدرسيّة، لكنّني مع ذلك أحترم الذين يقرأون، فهم يعقّدون الحياة على نحو جميل. على نحو سُر... ها، قد نسيت الكلمة ثانية، فأكملتها: سُرياليّ!

وضحكتُ بسخريّة كئيبة، ثمّ قلت إنّ السُرياليّ الحقيقيّ هو قصّةُ هذه الكتب، التي يجب عليّ أن أحملها من مكان إلى آخر كي أخفيها عن ناظرَي أبي، وأنقذها من نيرانه، كما لو كنتُ مجرمًا حقيقيًّا. لقد أفقت اليوم باكرًا، بفعل هاجس سوداويّ: إنّ أبي، بعد أن قبض عليّ بالأمس أشرب العرق، لا بدّ من أنّه سينتقم؛ سينتقم من الكتب. نهضت مرعوبًا وقمت بجولة استطلاعيّة داخل البيت الغارق في الصّمت، وسرعان ما لمحته، وأنا أمرّ من أمام باب المضافة المفتوح، جالسًا في جانب منها، يقرأ كتابًا! فتوقّفت، وعدت بخطاي إلى الخلف، ووقفت عند الباب أحدّق فيه مذهولًا: كان منظره غريبًا للغاية، كمعجزة من خارج الزّمن. يجلس على الأرض بثوبه الطويل وعباءته، يقرأ كتابًا مفتوحًا بين يديه. وانبعثت من هذا المشهد

هالةٌ من قدسيَّة غامضة ومرعبة، هزَّتني، كأنَّني أمام جنيٍّ استحضره خيالي من اللَّاوعي: ذلك الذي يزعمون في الحكايات أنَّهم رأوه فجرًا جالسًا في صدر البيت يقرأ في كتاب. فجأة، انتبه لحضوري، فرمقني بنظرات حاقدة، كأنَّما يحدِّق في مجرم. أغلق الكتاب، ونهض، وسار عدَّة خطوات مسرعة، وحينما صار قربي توقَّف، ورفع الكتاب في وجهي، كأنَّه يُشهر دليلًا دامغًا على جريمتي، مصرِّحًا بحزم: «سأحرق هذه الكتب!». بقيت متسمِّرًا في مكاني، مذهولًا. ثمَّ لحقت به، وهو يحمل كرتونة كتب. اشتعلت حينذاك المشكلة. حاولت أن أنتزع الكرتونة من بين يديه، لكنَّه دفعني فوقعت على الأرض، ثمَّ نهضت، ولحقت به. وعلا صراخنا في خارج البيت. كنت أحاول انتزاع الكرتونة من بين يديه، وهو يصرخ بأعلى صوته. أيقظ كلّ من في البيت. كانت فضيحة كبيرة حدثت أمام بيتنا، على مرأى من كلّ مَن كان في الشارع. توقَّف في إثرها جارُنا مالكُ محلّ الدجاج، عن فتح محلّه، وهرع نحونا، ثمَّ هرع جارُنا الآخر مالكُ البقالة، وهرع جاران آخران. كلّهم حاولوا أن يفكُّوا اشتباكنا من دون أن يفهموا سبب الشجار. توقَّف أبي لاهثًا. وضع الكرتونة على الأرض بين قدميه، وحاول أن يشرح سرّ غضبه للرجال، قائلًا إنَّ هذه الكتب هي سبب البلاء، وإنَّ الشيطان ذاته يختبئ داخلها، وإنَّ حالي لن تنعدل إلَّا إذا تخلَّص منها فورًا وأحرقها، بينما أنا أتوسَّل إليه مخاطبًا جشعه للمال، مؤكِّدًا أنَّني أنوي بيعها كي أستردّ ثمنها، وأنَّني أتعهَّد أمام جيراننا الشهود، أن أتنازل له عن هذا الثمن. وتساءل جارنا الأميّ، مالكُ محلّ الدجاج، عمّا إذا كان ما يقوله أبي صحيحًا، لكن أبي لم يُعطِني فرصة الإجابة، وأصرّ على أن يثبت له أنَّ ما يقوله هو الحقيقة عينها، وراح يبحث بتوتُّر عن كتاب محدَّد، إلى أن عثر عليه. وهو الكتاب الذي كان يقرأه: كتاب ألبير كامو، «الإنسان المتمرِّد». راح يتصفَّحه بسرعه وهو يلعق إصبعه مغرقًا إيَّاها باللُّعاب، ويقلّب الصفحات، إلى أن عثر على

صفحة يتحدَّث فيها ألبير كامو عن مسألة التَّمرُّد على الآلهة، وشرع يقرأ فقرة لجيراننا الرجال، الذين لم يُنهِ أيّ منهم تعليمَه، ويتَّفقون معه سلفًا على أنَّ الكتب مضيعة للمال والوقت. لقد شرعوا يصغون إلى أبي بوجوه مكفهرّة، يحاولون فهم شيء ممَّا يقول، إنَّما بلا جدوى. ولم أعرف، وأنا أحدِّق فيهم، هل أنفجر بالضحك أم بالبكاء. لكنَّني بقيت صامتًا مؤجِّلًا يأسي وضحكي، أستمع جادًّا إلى الفقرة التي يقرأها أبي. وحينما انتهى، سألهم عن رأيهم فيما سمعوا، فأفتى جارنا مالك البقالة، بالأمر، قائلًا باختصار إنَّ ما سمعه حرام ولا يُرضي اللّـه! فمددت يدي كي أصافحه قائلًا إنَّ رأيه صائب جدًّا. فمدّ يده بعفويَّة وصافحني بافتخار، واستطعت بشقّ النَّفس لحظتها تمالكَ ضحكي والمحافظةَ على جدّيَّة ملامحي، وأنا أؤكِّد له أنَّني أتَّفق معه تمامًا، وأنَّني لم أقرأ هذا الكتاب، ولو كنت أعرف أنَّ كامو يقول هذا الهراء فيه، لما كنت اشتريته. لهذا أنا أريد نقل هذه الكتب إلى عمّان من أجل بيعها، أي التخلُّص منها، بينما أبي يصرخ في جارنا، مؤكِّدًا له أنَّني أسخر منه، لكنَّني رحت أحلف أغلظ الأيمان بأنَّني سأبيع هذه الكتب، وأنَّني سأنقد جارنا - مالكَ محلّ الدجاج الذي يملك بيك آب صغيرًا - مبلغًا وقدره إذا ساعدني على نقلها، وأنَّني، كوني مقبلًا على الوظيفة واستلام راتب شهريّ، فإنَّ حالي ستنعدل ولن أشتري كتبًا مرَّة أخرى، ولذلك أطالب بحقِّي في منحي فرصةً أثبت فيها حسن نيَّاتي.

كان لكلامي تأثير إيجابيّ بالغ في جارنا - وخصوصًا وعدي له بمبلغ وقدره - فراح يقنع أبي بأن يتركني أنا والكتب وشأننا، وهكذا فعل بقيَّة جيراننا الرجال، ولاسيَّما أنَّني أقنعتهم بأن في وسعي بيع الكتب واسترداد ثمنها، فرأوا أنَّ في حرقها حماقةً وحرقًا للمال. وكانت عزيمة أبي قد ثبطت، فراح يلعنني ويلعن «كانو» على اليوم الذي كان وكنت أنا فيه أيضًا.

بربّك، هل ثمَّة سُرياليَّة تفوق ذلك؟!

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

كانت صديقتي، مالكة الحانة، تضحك. وحينما توقَّفت عن الضحك، بقينا لفترة صامتين يحدِّق أحدنا في الآخر، ثمَّ قالت لي:

ـ لكن، قل لي: هل تساعدك هذه الكتب فعلًا على مواجهة الحياة؟

يا للسُّؤال. يا للسُّؤال! بقيت أحدِّق فيها ذاهلًا كأنَّها طرحت عليّ سؤالًا مزَّق في لحظة ستارةً فبانت كواليسُ مظلمة من شدَّة الفوضى التي تعمّها والغبار. أجبتها وما زلت أبحلق فيها ذاهلًا:

ـ لا. لم تساعدني! فلغاية اللَّحظة ما زلت أُمنى بالفشل!

ـ لماذا، إذن، تخوض من أجلها كلَّ هذه الصراعات؟

ـ لأنَّني لا أملك سلاحًا آخر أواجه به أبي. هل ثمَّة ما تنصحينني به؟ أنا لا أمزح. أنا جادّ في سؤالي.

ـ لقد بدا لي ذات لحظة أنَّ صراعك مع الحياة، وليس مع أبيك تحديدًا!

ـ هذا صحيح. أنا لغاية اللَّحظة لا أعرف كيف أحيا هذه الحياة، ولماذا أحياها.

ـ وهل أجابتك الكتب؟

ـ لا، لم أعثر في أيّ منها على إجابة شافيَّة.

ـ لماذا، إذن، تحملها على ظهرك مثل الذي يحمل همًّا؟

ـ لا أدري، ربَّما خوفًا، في حال تخلَّيتُ عنها، من مواجهة الحقيقة: العبثِ واللَّامعنى.

ـ وما الجدوى من حمل كتب وقراءتِها، ما دامت لا تغيِّر هذه الحقيقة؟ لماذا لا تبحث عن فعل يبعث على الأمل وينقذك؟

أجبتها ساخرًا: ها أنت تتحدَّثين مثل أبي. بقي أن تنصحيني برعي الأغنام والصلاة، فهذان الفعلان في نظره كفيلان بتوفير الطمأنينة في الحياة والآخرة.

ـ مَن يدري؟ لعلَّه محقّ!

ـ ربَّما.

عدت إلى القرية، وأنا شارد الذهن في هذه الـ «ربَّما»، ووجدت في البيت أبي ينتظرني:

ـ لم أكن أعلم بأنَّ الخمَّارات تشتري الكتب!

حدَّقت فيه مندهشًا، واصطنعت مظهر الجاهل تمامًا بما يقول، وسألت باستغراب مصطنع بدقّة: «خمَّارة تبيع فيها الخمرةَ امرأةٌ؟!» أجابني: «لقد رآها جارنا بعينيه، ورآك وأنت تضع الكرتونتين داخل خمّارتها».

وأغرقت في تمثيل جهلي بالأمر، واستهجنت ما يقول، مؤكِّدًا أنَّني طوال سنوات وجودي في عمّان لم أرَ امرأة تبيع الخمرة.

ـ إذن، تعرف كلّ الخمارات؟!

لم يصدِّق نفيي، لكن هذه الحيثيَّة لم تكن مهمَّة في تلك السَّاعة. المهمّ هو أن أثبت له أنَّني بعت الكتب، حتَّى لو كان للشيطان، وأن أقنعه بأنَّني سأستلم ثمنها لاحقًا.

متى سينتهي هذا الجحيم؟ كنت أسأل نفسي وأنا أدخل معه في شجار جديد، وصراخ جديد، متلقيًا وابلَ الشتائم ذاتَه.

انتهى، أو خُيِّل إليَّ أنَّ هذا الجحيم انتهى، بأسرع ممَّا كنت أتوقَّع. ففي اليوم التالي، أيقظتني أمِّي في السَّاعة الثامنة صباحًا، بلسان متلعثم من شدَّة الفرح: «لقد عيَّنوك. لقد عيَّنوك!» كانت تلك من الأيَّام النادرة التي يشتري أبي فيها الجريدة كي يتأكَّد بعينيه من وجود اسمي فيها، بعد أن زفّ إليه جارُنا هذه البشرى. رأيت الصَّباح عالقًا بأهداب البيوت وبصوت زغاريد أمِّي. أخذت الجريدة من أبي. وفعلًا قرأت اسمي في قائمة المعيّنين: في مدينة الزرقاء.

النّهار السّابع

تغيَّبتُ عن العمل لليوم الثالث على التوالي. يا للرّوعة! خاطبت نفسي وأنا أقاوم الصُّداع. وما لبثت أن هاجمَتْني مشاهدُ من الكابوس الذي رأيته في نومي. انتابني الذُّعر كما لو أنّني لا أزال أسقط؛ كما لو أنّني قتلت أبي فعلًا؛ كما لو أنّني عجوز ميّت أحدّق فيَّ.

فراشة - كالرصاصة - تحوم حولي، وعيناك تحدّقان فيَّ، وأنا أحدّق في العدم.

لم يُقلقني تغيُّبي عن العمل. ما أقلقني هو أنَّ نقودي تنفد بتسارع كبير. كان تبقّى معي من يوم الأمس خمسةُ دنانير فقط. صنعت شايًا وأكلت معه قليلًا من الخبز، ثمّ خرجت هاربًا من الغرفة. إلى أين؟ لا أعرف. تسكّعت في الشوارع، ثمَّ شعرت بالجوع. اشتريت قطعتي معجنات بالسبانخ في سبيل التّغيير، ومعهما زجاجة ماء صغيرة. في المحصّلة، تبقّى لديّ ثلاثةُ دنانير. جلست على أحد المقاعد أمام المطعم الصغير، أقضم قطعة المعجّنات بملل. كيف سأحيا بقيّة هذا الشهر بثلاثة دنانير فقط؟ فَلْأَمُتْ جوعًا. الأمر سيّان. لن أذلّ نفسي ثانية لأحد.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

كنت أبلع الطعام بصعوبة، ومع كلّ لقمة يزداد ألم رأسي. لا أحبّ عمليّة الأكل: أن أقضم الطعام ثمّ ألوكه ثمّ أمضغه؛ أمضغه طويلًا وبملل، ثمّ أبلعه. أبلعه دومًا بصعوبة. وكنتُ، بعد كلّ لقمة أشرب الماء لأدفعها عنوة إلى جوفي. كيف أكفُّ عن السُّقوط؟ كيف أكفُّ عن انتظارك؟

توقّفت عن الأكل، وجعلت أراقب المارّة. كلُّهم يمرُّون من أمامي إلّا أنتِ! يصدمني ويفاجئني انتظارُك فأشعر بالفجيعة ذاتها من حقيقة تتكرَّر في كلّ لحظة: أنَّك غائبة ولن تمرّي.

نظرت إلى الجهة الأخرى من رصيف الشارع. رنوت طويلًا إلى الرَّصيف الآخر. استجديت مرورك فيه. قلت في نفسي: فلتعبري على الرَّصيف الآخر، وليبقَ هذا الشارع ممتدًّا بيننا، ولأبقَ عاجزًا عن عبوره إليك. لكنْ مرّي! بقيتُ أرنو طويلًا ولم تمرّي.

نهضت، وما إن سرتُ عدّة خطوات حتّى وقف أمامي شابٌّ، لا أدري من أين ظهر، معترضًا طريقي. على وجهه ندبةُ جرح طويل تمتدّ من بداية أذنه حتّى طرف فمه. وقف أمامي، وبدا أنّه ينظر إليّ، لكنّ عينيه لم تكونا مستقرَّتين على نقطة محدَّدة، بل ظلَّتا متحرّكتين تلقيان عليّ نظرة زئبقيّة، لا تثبت في مكان. قال لي بنبرة آمرة: «أعطني دينارًا»، فحدَّقت فيه مبتسمًا، ثمَّ سألته بهدوء وببرود، وأنا أتأمَّل الندبة التي تسم وجهه: «لماذا يجب عليّ أن أعطيك دينارًا؟»، فالتمع بريق في عينيه القلقتين، كأنَّما السُّؤال أسعده وهو يجيبني: «هكذا: خاوة!» استوقفتني إجابته وأعجبتني، فقلت: «أنا مستعدّ لأن أعطيك ثلاثة دنانير، وصدّقني أنَّها كلّ وآخر ما أملك حتّى نهاية هذا الشهر، لكن بشرط: أن تعلّمني كيف أصل إلى هذه المرحلة التي وصلت أنت إليها، وبتَّ تطلب خاوة!». كنت جادًّا في عرضي، وكنت فعلًا مستعدًّا لأن أضحّي بكلّ ما أملك في مقابل أن يعلّمني هو، أو أيُّ شخص آخر في هذه الدُّنيا، كيف في وسعي أن أقف في وجه هذه الحياة وآمرها بأن تعطيني

ما لديها خاوة! لكنَّ هذا السُّؤال فاجأه، وتحوَّل البريق الذي التمع قبل قليل في عينيه القلقتين غير المستقرَّتين، إلى دهشة بالغة، كأنَّه تلقى صفعة من جهة لم يحسب لها حسابًا. حتَّى إنَّ الدهشة التي ألمّت به أدهشتني. ثبتَتْ نظرتُه وهو يتفرَّس في وجهي للحظات، وأنا أنظر إليه. مددت يدي إلى جيبي أنوي إخراج النقود، وأنا أقول: «هل تفعل وتعلِّمني كيف أطلب خاوة؟»، بيد أنَّه صرخ فيَّ فجأة: «اغرب عن وجهي. لا أريد منك شيئًا». هتف بذلك وغرب هو عن وجهي. مضى وهو يلعن ويشتم شتائم بذيئة لا أدري إلى من كان يوجِّهها.

كيف أحظى بكِ خاوة؟

يبدو لي أنَّ أحمد كان يطرح السُّؤال ذاته، لكنَّه في المحصلة تمرَّد على التَّوسُّل، وعلى الانتظار.

❖❖❖

يُدهشني أنَّ ما يقارب ستّ سنين مرت على اليوم الذي تعرَّفت فيه إلى أحمد، وما زالت تفاصيل تلك الأشهر التي أمضيناها معًا حاضرة في ذاكرتي كنبض متواصل لوجع مزمن. تعرَّفت إليه ذات يوم خميس. كنت أسير في الشارع باحثًا عن حانة سمعت بعض زملائي المدرّسين يذكرونها باستنكار، إذ كان يجب ـ في نظرهم ـ فعلُ شيء ما من أجل إغلاقها سريعًا.

لم أعثر عليها في الشارع الذي قالوا إنَّها تقع فيه، وإذ أوشكت على اليأس قرَّرت سؤال عجوز، يجلس على طرف الرَّصيف، رثّ المظهر ويبدو متشرِّدًا. هو الوحيد الذي تجرَّأت على التَّفكير في سؤاله. اقتربت منه وسألته بصوت منخفض إن كان يعرف وجود حانة في هذا الشارع. نظر إليَّ باستغراب، ثمَّ قال:

ـ ها هي. لقد وصلت!

وأشار إلى باب بالقرب منه، لا يوحي أبدًا بأنَّه مدخل حانة، بقدر ما يوحي بأنَّه باب بيت. ثمَّ إنَّه لم تكن هناك أيّ لافتة فوق الباب تؤكّد أنَّ هذا المكان هو حانة. اقتربت من الباب الخشبيّ القديم، والذي كان أحد شقَّيه مفتوحًا: بالفعل، في الداخل كانت هناك طاولات وكراسيّ وبار، وأم كلثوم تغني «فات الميعاد»، إنَّما بصوت منخفض. كأنَّ هذا المكان يعترف بأنَّه يرتكب خطيئة، لهذا يتكتَّم ويمارس وجوده في السّرّ. نويت الدُّخول، لكن العجوز الجالس أمامها استوقفني وطلب منّي أن أضيّفه كأس عرق. وعلى الرَّغم من قلَّة قروشي، فإنَّني لم أقوَ على رفض طلبه، واشتريت له كأس عرق. شرب منه جرعة كبيرة، ثمَّ مسح فمه بطرف كمّه، وقال:

ـ لولا هذه الحربُ لما استجديت أحدًا!

كنت أعطيته ظهري عائدًا إلى الدَّاخل، لكنَّني ما إنَّ سمعته يقول ذلك حتَّى توقَّفت، وعدت إليه، وسألته بفضول، أيّ حرب يقصد، فأجابني:

ـ هذه الحرب الدَّائرة منذ القِدَم. غريب! ألا تدري عنها؟

ـ لا... لا أدري!

ـ إنَّها الحرب التي جرت في الأمس، وها هي تشتعل الآن، وستظلّ تشتعل غدًا!

أخبرَني بأنَّه شارك في معارك كثيرة، لكنَّ المشكلة تكمن في أنَّه سئم لأنَّ هذه الحرب لا تنتهي.

سألت مالك الحانة عنه، فأجابني بأنَّه دائم الجلوس هنا، يستجدي كلَّ داخل هذه الحانة كأسَ عرق، ولولا حديثه عن الحرب لما شكّ أحد في سويّة عقله. قال أيضًا إنَّه لم يحارب أبدًا، بل لم يغادر هذه المدينة ولو ليوم، وإنَّ كلّ الناس هنا يعرفونه: مات أهله وهو طفل، وعاش حياته بائسًا

ومتشرّدًا. وأضاف، بنبرة مستاءة، أنَّ الناس هنا يسمُّونه عجوز الحانة، لبقائه معظم وقته جالسًا أمامها. وتمنَّى لو أنَّه يختفي، أو يجد مكانًا آخر يجلس أمامه، إذ إنَّه يشفق عليه ولا يجسر على طرده.

شربت كأس جعة. كان باردًا ورائعًا، ثمَّ خرجت ناويًا العودة إلى القرية. رأيت عند الباب عجوز الحانة لا يزال جالسًا في مكانه. عدت أسأله:

ـ لكن، لماذا في رأيك، لا تنتهي هذه الحرب؟

ـ هذا هو السُّؤال الذي يعذِّبني ولا أستطيع أن أعثر له على جواب.

ـ ربَّما هو عقاب من اللّـه؟

طرحت السُّؤال، ليس تعبيرًا عن موقف أو رأي لي، بل في محاولة لفهم طبيعة موقفه ورأيه، لكنَّه أجاب:

ـ وأيّ مجد يبغيه اللَّـه من العقاب؟ أيّ مجد؟! حسنًا: ها هو كتب علينا الحرب هنا، وسيكتب علينا الجحيم هناك، كلّ ذلك من أجل عقابنا واختبارنا. لكن، هل في وسعك أن تقول لي: أيُّ مجد سيحظى به اللّـه من هذا العقاب وهذه الاختبارات؟

أخرجت علبة السجائر وعرضت عليه سيجارة، فأخذها. أشعلتها له وأشعلت سيجارتي. لا أعرف أيّ مجد أيُّها العجوز. اقترحت عليه أن نكمل الحديث في الداخل، لكنَّه رفض خشية إزعاج مالك الحانة، فيطرده من الجلوس أمامها.

وبصق على الأرض، وقال لي إن قدمه تؤلمه وإنَّهم قد يقطعونها، وأضاف: «هذه آثار الحرب».

عدت إلى الحانة، اشتريت ربع زجاجة عرق ضيّفته منها كأسًا أخرى. وجلست أشرب وحيدًا. جلت بنظري في أرجاء الخمّارة: إنَّها مكان ضيّق، طاولاتها بلاستيكيَّة صغيرة، والجدران مدهونة بطلاء أبيض بات، بسبب

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

قِدَمه، شاحبًا. لا شيء يزيِّنها. مكان كئيب حقًّا، كآثم لا يعرف كيف ينجو من الشعور بالخطيئة والنَّدم. أشرب وأفكِّر في أنَّ هذه الحرب لا تروق لي، فلتذهب إلى الجحيم، إذ لا جدوى من خوضها. من الأجدى الاكتفاءُ بدور المتفرِّج. أفكِّر أيضًا في أنَّني، كمتفرِّج، لن أصفِّق لأحد يزعم الانتصار. لا يعجبني المخرج، ولا كاتبُ السِّيناريو، ولا الممثِّلون. كيف انساقوا إلى هذه اللُّعبة؟ مَن الذي اخترعها؟ مَن هو الذي أجبر ذلك الشَّابَّ الغرَّ على مضاجعة فتاة بلهاء، وليست جميلة، فماتت؟

شعرت فجأة ببعض المغص، وقلت في نفسي إنَّ من الأحرى لي أن أنشغل بهموم قولوني وإمساكي المزمن؛ أن أهتمّ بجسدي، بما أنَّه أنا، وليس ثمَّة أنا أخرى لي في واقع الأمر. إنَّ مشاكل جسدي هي حربي الوحيدة: أنا من يشنُّها وأنا ضحيَّتها. كان المشروب قد أدَّى وظيفة المليِّن. هرعت إلى الحمَّام وقضيت فيه وقتًا طويلًا ورائعًا. ودُهشت، على الرَّغم من أنَّني آكل قليلًا، كم أنَّني مليء بالخراء، وأنَّني أحمله معي وأسير به وأنام معه، كما لو أنَّني أحمل العالم وحروبه في داخلي، وأنَّ للتَّخلُّص منه لذَّةً لا تضاهى؛ لذَّة الإحساس بالخفَّة، تلك التي تجعل جسدك مبتهجًا بإنجازه، كما لو كانت حربًا انتصر فيها انتصارًا مجيدًا.

ثمَّ خطر في بالي أنَّ حالة الإمساك التي تصيب الجسد، تقابلها حالةُ إمساك روحيّ. أفكِّر في أنَّني أسير وأنام مع أفكاري، وإحباطي، وهزائمي، ويأسي، وأسئلتي، من دون أن أدري كيف أصرفها، وهل سيأتي يوم أشعر فيه بمثل هذه المتعة الهائلة وأنا أتخلَّص منها؟ بدت لي هذه الفكرة مريعة: إن الهزائم واليأس والأسئلة لا تُهضَم، وليس لها فضلات يمكن تصريفها. تبقى كلُّها في داخلنا تتراكم يومًا بعد يوم، ويتفاقم يومًا بعد يوم إحساسُنا بالثقل، أيضًا كما لو أنَّك تحمل العالم في داخلك.

حينما خرجت من المرحاض، لفت انتباهيَ رجلٌ شابٌّ، يرتدي بذلة رماديَّة من النَّوع الرَّخيص، تبدو فارغة من شدَّة نحوله، وكان يضع ربطة عنق خمريَّة عليها رسومٌ باهته. كان ينظر حوله باحثًا عن طاولة فارغة يجلس إليها. لا أحبّ الذين يرتدون البذلات. إنَّهم يرسمون حول أنفسهم بهذا الزيّ هالةً من الرَّصانة التي تقف حاجزًا ما بينهم وبينك، وخصوصًا أنَّه يبدو لك أنَّها رصانة مزيَّفة. لكنَّني مع ذلك أشفقت عليه، ودعوته إلى الجلوس معي. عرّفني إلى نفسه: اسمه أحمد من أهل هذه المدينة، يعمل موظَّفًا في دائرة حكوميَّة فيها. وعرَّفته بدوري بنفسي، فسألني بنبرة ساخرة: «أَنقلوك إلى هنا عقابًا على ذنب ما؟»، فضحكت، لأنَّ الأمر فعلًا كان شبيهًا بالعقاب. قلت إنَّهم عيّنوني حديثًا، وإنَّ هذه هي أوَّل مرَّة أمارس فيها مهنة التدريس. «وكيف وجدتَها»، سألني، ولكم أسعدني هذا السُّؤال. لأنَّني كنت في حاجة ماسَّة إلى الثرثرة. لولا اللُّغةُ لكان الإنسان جُنّ. لقد مضت ثلاثة أسابيع لم أتكلَّم فيها إلَّا في المدرسة؛ كلامًا محدَّدًا لا يمتّ إليَّ بصلة. وفي البيت أيضًا، لا أتكلَّم. أعود متعبًا وأنزوي في غرفتي. كنت أعاني إمساكًا في معدتي وفي لساني، وقد ليّن العرق كلًّا منهما.

قلت له إنَّ التَّعليم عذاب محضّ، ولست أدري كيف سأستمرّ في هذه المهنة؛ فأنت مجبَر على أن تعلِّم تلاميذ مشاغبين مرغَمين على القدوم إلى مدرسة لا يشعرون بأيِّ ضرورة لها في حياتهم. حدَّثته عن يوم عملي الأوَّل؛ عن أوَّل يوم في حياتي أدخل فيه صفًّا، لا بصفة تلميذ بل بصفة مدرّس:

وقفت قرب الباب وأنا أرى مجموعة من التلاميذ اصطفُّوا أمام مقاعد الدراسة يرقصون الدبكة، أمَّا البقيَّة فكانوا يصفِّقون ويطبّلون ويغنُّون بأصوات جهوريَّة عالية، كأنَّني دخلت عرسًا. يا للجنون!

تنحنحت بصوت عال، وهتفت: انتباه، لكنَّ أحدًا لم يلتفت إليّ أو يسمعني أو يلاحظني. بقيت للحظات أراقبهم صامتًا، لا أدري ماذا أفعل. ثمَّ

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

خطر في بالي أنَّ أفضل ما يمكن فعله هو الانغماسُ معهم في هذا الجنون. اقتربت من الدابكين، شبكت يدي بيد آخر طالب، ورحت أدبك معهم.

نظر إليَّ الطالب الذي شبكت يدي بيده ببعض الاستغراب، لكن ذلك لم يشغله عن الاستمرار في الدبك. كان حجمي وطولي قريبين من حجومهم وأطوالهم. كنت في السَّادسة والعشرين من عمري، لكنَّني أبدو، بسبب الهموم والتجاعيد والشحوب تحت العينين، في عمر أكبر. لعل ذلك هو ما جعل قائد الدبكة المنهمك في القفز، بينما العرق يرشح من جبينه، يلمحني ذات لحظة، وينتبه لي. توقَّف فجأة لاهثًا وسألني: «من أنت»؟ «أنا معلِّمكم الجديد. أستاذ اللُّغة العربيَّة»، أجبته وأنا ألتقط أنفاسي بصعوبة. ساد الهدوء والصَّمت للحظات، تلاهما انفجار عاصفة من الضحك. وضحكت معهم، وهذا ما دفعهم إلى عدّي أبلهَ.

إنَّهم يستخفّون بالعلم والمعرفة إلى درجة مخيفة. أنظر إليهم وأسأل نفسي: هل ثمَّة من يريد أن يتعلَّم بينهم؟ هل ثمَّة من تعذّبه أسئلة المعرفة؟ لكنَّني أعود وأسأل نفسي: لكنْ، ما جدوى أسئلة المعرفة وأسئلة الفلسفة وأسئلة الفكر والسياسة وغيرها؟ ما جدوى أسئلة العقل، ما دامت سعادة المرء الغريزيَّة تزداد طرديًا كلَّما ازداد جهله؟ وهل ثمَّة سؤال بحثته الفلسفة أو بحثه الفكر أو الأدب أو أيُّ صنف من صنوف المعرفة، أكبرُ من سؤال السَّعادة؟ كلّ غايات الأسئلة الأخرى، كما يبدو لي، هي للإجابة عن سؤال وحيد: كيف يغدو الإنسان في نهاية المطاف سعيدًا ومتصالحًا مع وجوده. فما جدوى هذه الأسئلة، إذن، ما دام الجهل بها يوفِّر لنا هذه السَّعادة؟

«معك حقّ»! قال أحمد، وقد تلاشت آثار الضحك من وجهه وانطفأ فجأة، وبات من الصَّعب للمرء أن يلحظ ملمحًا في وجهه النَّحيل والشاحب، سوى عينيه، ليس لاتِّساعهما فحسب، بل أيضًا لأنَّ شيئًا ما، فظيعًا ومجهولًا،

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

يرتعد في أعماق المرء وهو يراهما في تلك اللّحظات، تبحلقان في الفراغ بنظرة مرعوبة تختزل ذلك الإحساس العميق بمأساويّة الحياة.

وبدا لي أنّه ليس من أصحاب البذلات الذين يعتنون بمظهرهم المزيّف، بقدر ما هو رجل حزين يهتمّ بأناقته. كأنّما يجلّ هذا الحزنَ، العميق والرّصين والصّامت.

رفع نظره عن الفراغ، قائلًا:

ـ أنا أيضًا أظنّ ذلك: فمن يفكّر في الأسئلة الكبيرة في هذا العالم فلا بدّ من أن يكون حزينًا.

ـ يا إلهي! لقد قلتَها يا صديقي. شكرًا لك. شكرًا جزيلًا لك!

هتفت بانفعال، ومددت يدي وصافحته، سعيدًا بالاستنتاج البليغ الذي توصّل إليه، وأعدتُ كلامه بإعجاب بالغ، كأنّني أردّد حكمة: من يدرك الأسئلة الكبيرة في هذا العالم فلا بدّ من أن يكون حزينًا! لهذا، أنا حزين يا رفيقي. بصحّتك.

ورفعت كأسي وشربت آخر جرعة فيها، ودعوته إلى شرب المزيد، لكنّه اعترف بأنّه جاء إلى هنا كي يشرب كأسًا واحدة، لأنّه لا يملك ثمن المزيد، فضيّفته على حسابي. دفعت آخر ما في جيبي ثمنَ نصف زجاجة عرق، ولم يبق معي إلّا قروشٌ قليلة جدًّا، ردّها لي صاحب الحانة، لن تكفي أجرة طريق عودتي إلى القرية، لكنّ هذا الأمر لم يقلقني. فلطالما تحرّرت تمامًا في لحظات كهذه من الخوف ومن الأمل، وبات العالم بالنسبة إليّ سيّان، سواء نمت ليلتي كالمتشرّدين في الشّارع أو عثرت على من يقلّني إلى القرية ونمت في بيت أبي. كنت أرى نفسي، كما هي في حقيقة الأمر: هامشيًّا وغريبًا، وليس ثمّة جدوى أو معنى لحياتي، مثلما ليس هناك أيّ جدوى أو معنى لموتي. كأنّني ميّت، أو كأنّني حيّ. لست على يقين من

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

أنَّني ميِّت، تمامًا مثلما لست على يقين من أنَّني حيّ. باختصار، أنا ذلك التائه في ظلال حرف التَّشبيه «كـ» الذي يمحو أيَّ أصالة للحقيقة.

«لتذهبْ هذه القرية إلى الجحيم!» قلت بصوت عال، وبطريقة مسرحيَّة. لقد حدث سابقًا أن نمت في الشارع بعد أن صرفت قروشي القليلة على كتاب وكأس خمرة. فأنا، يا رفيقي، لا أجد وسيلة أخرى أقاوم فيها ذلك الحزن.

«ماذا تفيد الشَّهادات ـ يسألني هؤلاء الخنازير ـ فها أنت تعلَّمت وحصلت على شهادة، وماذا صرتَ؟ مدرِّسًا براتب لن يُطعمك خبزًا، ولن يزوِّجك، ولن يبني لك بيتًا. أولاد القحبة، كم هم محقُّون! يقولون: إن لم تكن ذئبًا أكلتك الذئاب. تلك هي معاييرهم التي يتسلَّحون بها في مواجهة الحياة. إنَّهم ليسوا في حاجة إلى العلم والمعرفة، فجلُّ طموحهم أن يصبحوا ذئابًا.

ـ وزملاؤك المدرِّسون؟

ـ أوووه، هؤلاء كارثة أخرى. لم أعثر بينهم على واحد يمكن أن تعقد معه صداقة. كلّهم منافقون وسخيفون ومتديِّنون مزيَّفون، لا يفقهون شيئًا، ويتَّهمونني بالكفر.

ـ كيف توصَّلوا إلى ذلك؟ هل أبديتَ رأيًا في الدِّين أمامهم؟

ـ أبدًا، فأنا أتوخَّى الحذر في الحديث في هذه الأمور. فكما تعرف، الجميع هنا يترصَّدونك كي يتَّهموك بالكفر. لكنَّهم قرَّروا ذلك لأنَّني لا أصلِّي معهم، ولا يعجبهم أن أمرّ سريعًا على الموادّ الدينيَّة في المنهاج، وأجد مدخلًا خبيثًا ـ كما يقولون ـ لتحويل الدَّرس إلى نصوص أخرى ليست دينيَّة.

ـ وهل تفعل ذلك، أم أنَّهم يتجنُّون عليك؟

ـ أفعله.

ـ أأَنت كافرٌ إذن؟

ـ لست أدري. هل تدرك الحقيقة أنت؟

ـ لا، لا أدركها، لكنَّني أصلّي.

ـ خشيةَ اتِّهام الآخرين وأقاويلهم؟

ـ لا، بل أصلّي من أجل نفسي. مثلما أشرب الخمرة أيضًا. أصلّي وأشرب الخمرة بحثًا عن طَوق للنجاة؛ بحثًا عن معنى ما.

ـ وأيُّهما تنفع أكثر: الصلاة أم الخمرة؟

ـ كلتاهما. كلتاهما لا تنفع.

وضحكت. أمَّا هو، فراح مرَّة أخرى يحدِّق في الفراغ بعينين شاخصتين. شعرت برهبة غريبة وأنا أنظر إليه، وأرى ألمًا أصيلًا وعتيقًا للغاية في عينيه، كأنَّما هو نابع من ندم وجوديّ خالص، وليس من مآسي هذه الدُّنيا. سألته عن سرّ همومه، فرفع رأسه عن الفراغ قائلًا:

ـ إنَّها الغابة يا صديقي، تلك التي ذهب إليها جلجامش مع صديقه أنكيدو كي ينتصرا معًا على حارسها. كنت أعيش على هامشها، وفي يوم أغواني ذلك النداء في دخولها، فدخلتها يحدوني حلم متهوّر وأملٌ أحمقُ في أنَّني قد أعود منها بغنيمة تفتح أبواب الحياة، وتقول لي تفضَّل، وعش سعيدًا غير عابئ بهمّ اللُّقمة التي ستُطعمها لطفليك وزوجتك التي تحبّها، وتحبّك. لكنَّني خُدعت. تبيَّن لي أنَّني في الغابة، بيد أنَّني أنا الشجرةُ التي يقطعها الآخرون وقودًا لرخائهم. لست أدري من أين تأتي هذه القسوة؟ مَن هو الذي يعطي الحطّاب فأسًا ويجعل الشجرة عاجزة ساكنة بلا حراك؟ لماذا يحدث هذا الطوفان اليوميّ، فيغرق المعذَّبون وتمتزج أرواحهم بالطين، وينجو الأشرار ويحظون بالمباركة؟ هل تعرف لماذا تنحاز السَّماء إليهم؟

ـ إنَّها الحرب؛ الحرب ذاتها المستمرَّة منذ الأزل؛ الحرب التي تجري على الأرض ومع السَّماء.

ـ هل تحدَّثت مع عجوز الحانة؟

ـ أجل، يا له من حكيم رائع. أحبّ هؤلاء المتشرِّدين. كانوا دومًا أصدقائي. كانوا دومًا يقولون الحقيقة؛ تلك التي تجعلنا نتوقَّف فجأة عن المشي ونرغب في أن نلقي برؤوسنا إلى حائط يحدّ الطريق، ونجهش في البكاء. لكنَّنا نظلّ نمشي. بصحَّة العجوز يا صديقي.

«بصحَّة عجوز الحانة يا رفاق»! قلتها بصوت عال وأنا أقف، وأشعر بدُوار وبثمالة شديدة. استجاب روَّاد الحانة ورفعوا كؤوسهم. وطفقت أهذي وأنا مستلذّ بالثَّمالة والدُّوار، متخيِّلًا نفسي أمام جمهور غفير أدلي بخطبة مهمَّة بصوت عال وبانفعال، أدعوهم فيها إلى تنظيم مظاهرة حاشدة، لا تنطلق بعد صلاة الظهر من مسجد ما أو من مؤسَّسة حكوميَّة ما، بل تنطلق في ساعة الفجر من عند أكبر مزبلة في هذه المدينة. فما فعلنا في الحقيقة سوى ثورة على الزبالة: زبالة الفكر البشريّ؛ زبالة الوجود البشريّ.

وصرت أسمع ضحكًا مدوّيًا وتصفيقًا، وأرى أناسًا يتمايلون مقهقهين. ولم يزعجني ذلك، بل فاقم انفعالي وحماستي وهذري عن زبالة خلق اللَّـه الطبيعيِّين.

❖❖❖

أفقت في صباح اليوم التالي ووجدت نفسي في فراش لا أعرفه؛ في غرفة لا أعرفها؛ في بيت لا أعرفه. أين أنا، وكيف وصلت إلى هنا؟ لا أذكر. صداع شديد يؤلم رأسي، إلى درجة يبدو لي فيها أنَّ أيَّ محاولة للتفكير الجادّ أو التذكُّر تزيد في الألم. نهضت وسرت مترنِّحًا باحثًا عن المطبخ.

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

أخبرني أحمد بأنَّ هذه الشّقّة هي لصديق له اسمه مازن يعمل في هذه المدينة مهندسًا في أحد المصانع، ويسافر عادة في أيّام العطل إلى أهله في الشمال. لكنّه يُبقي لديه ـ أيّ لدى أحمد ـ مفتاحًا احتياطيًا للشّقّة. قال لي إنّه يظنّ أنّ مازنًا لن يمانع إن شاركته في استئجارها، ففي كلّ الأحوال إحدى غرفها فارغة وفائضة عن حاجته. كدت أطير من الفرح، ونسيت ألم رأسي. ثمّ رأيت نفسي من بعيد، وتعجّبت من انفعالاتي الشديدة، إذ تُفرحني أشياء بسيطة إلى درجة أبدو فيها كما لو أنّ أبواب العالم كلّها انفتحت لي. وتُحزنني الأشياء البسيطة، فأنتحب كالأطفال، وتُغضبني أشياء أخرى فأصرخ وأفقد أعصابي لأتفه الأسباب. أنا انفعالات محضٌ! أنا شخص متعطّش إلى الفرح، وفريسة مستباحة في كلّ لحظة للخيبة والخذلان.

تذكّرت، على نحو ضبابيّ، بينما كان أحمد يُعِدُّ القهوة، كيف كنت أخطب وأهذي وأهذر بالأمس أمام أناس لا أعرفهم، وأدلي بأفكار ارتجاليّة حمقاء لا أدري كيف خطرت لي. يا لسخافتي! يجدر القول إنّ لديّ ميولًا كبيرة إلى الجنون. يجب الاعتراف بذلك، والخمرة تكشفها. اعترفت بذلك لأحمد. لقد حدث لي ذلك من قبلُ مرارًا: أشرب حتّى الثّمالة، ثمّ أخطب بالناس كلامًا لا يثير سوى ضحكهم، وقد يأتي يوم لن أحتاج فيه إلى الخمرة كي أُجنّ. لكنّ هذا ليس بالأمر السيّئ. الجنون لا يخيفني. ما يخيفني أكثر هو أن أبقى محافظًا على عقلي مدركًا كلّ شيء، في عالم لا أمتّ إليه ولا يمتّ إليّ بأيّ صلة. «أنا مجنون مع وقف التنفيذ»، قلت.

ـ أما أنا فميّت مع وقف التفيذ.

سمعته يقول ذلك، وأنا أنظر من نافذة المطبخ إلى خرابة بيت محطّم، تطلّ عليها النافذة. كانت النفايات تتراكم في زواياها.

أصغيت إليه وأنا أفكّر في أنَّ هيئة هذا الرجل وشكلَه ونظرةَ عينيه، تتطابق تمامًا مع واقعه. إنَّه هو بكلّ شيء فيه، فلا شيء يشذّ عنه ويوحي بشخصيَّة أخرى. رجل مليء بالمشاكل والهموم والأحزان واليأس. لم أرَ في حياتي إنسانًا معذَّبًا مثله.

أغوته اكتتابات البورصة ودغدغت أحلامه بالرَّخاء، فأطلق هذه الأحلام في الهواء، مع أنَّه ظلّ ـ كما قال لي ـ يربطها بخيط كي لا تطير بعيدًا، لا خشيةً من انقطاع الخيط، بل لأنَّه ليس طمّاعًا ولا جشعًا. «كلّ ما كنت أريده هو حياةٌ أفضل قليلًا فحسب. دَخْلٌ يُخرجني من مستنقع البؤس والفقر، لأعيش الحياة من دون ذلّ».

يا له من مسكين حالم أحمق، انطلت عليه لعبة البورصة والاكتتابات، فرهن كلّ مرتّبه للبنك واشترى بالقرض الذي حصل عليه أسهمًا، وراح ينتظر أن يخرج المارد من المصباح ويقول له «شبّيك لبّيك، عبدك بين يديك». أراد أن يدخل الغابة حاملًا فأسًا، لكنَّه اكتشف أنَّه الشجرةُ وأنَّه الوقود لرخاء آخرين. خسر كلّ شيء في لحظة: مرتّبَه المرهون للبنك، وقرضًا لم يستلم منه قرشًا لأنَّه طار وتبخّر في الهواء ذات يوم مشمس، انهارت فيه بورصة العقارات في العالم، وانفقأت فقّاعتها.

قال لي إنَّ المشكلة ليست في الدُّيون فقط، «ولا في خسارتك الفادحة كلَّ شيء بين يوم وليلة، بل في خذلانك زوجتَك، فتسأل نفسك وأنت تنظر إليها، إن كان الحبّ وحده فحسب، قادرًا على رَتْق شقوق الحياة التي يمزِّقها الفقر والديون بلا رحمة. المشكلة في عيشك في غرفة في بيت أهلك مع أم مجنونة تكره زوجتك وتحمّلها مسؤوليَّة كلّ مصائبك، متذرِّعةً بأنَّه كان يجب عليها أن تمنعني من خوض تلك المقامرة، بدلًا من أن تشجّعني.

مكتبة أحمد
telegram @ktabpdf

المشكلة في اللّيالي التي يهجرك فيها النوم وأنت تبحث عن نافذة للخلاص؛ في عيون طفليك الصَّغيرين التي لا تجرؤ على النظر إليها لأنَّك أصبحت فجأة عبئًا عليهما، فيخطر في كلّ لحظة، في بالك، وأنت ترى طفلك الكبير ابن الأعوام الثلاثة، جالسًا في زاوية الغرفة، يأكل الخبز والشاي، فلا شيء آخر في وسعك أن تقدِّمه إليه، أن تسجد أمامه وأمام أخيه ابن العام، وتطلب منهما المغفرة لأنَّك أنجبتهما في هذا العالم، ولا شيء يسعك أن تورّثه لهما سوى جوعك وشقائك ومأساة وجودك».

لم أعرف بماذا أعلّق. إنَّ الإحساس بالعجز، حينما تقف على حافَّة شاطئ وترى أمامك، أنت الذي لا تجيد السّباحة، إنسانًا يغرق، ربَّما أشدُّ وطأةً من الإحساس بالعجز حينما تغرق أنت ذاتك. إحساس يشوبه الإثم لأنَّك واقف على الشاطئ في منأى عن الخطر. لكنْ، هل كنت فعلًا على الشاطئ؟ صحيح أنَّ ديوني لم تكن ترتقي إلى حجم ديون أحمد، ولم أكن مسؤولًا عن عائلة، غير أنَّني كنت أشعر بنفسي غريقًا ينتظر أحدًا ما ليلقي إليه بحبل النجاة.

قطع أحمد الصَّمت قائلًا إنَّه بات يخشى الاغتيال، فسألته بدهشة:

- مَن تتوقَّع أن يغتالك؟

- اللّـه!

أضحكتني إجابته. وجرى بيننا حديثٌ عن اللّـه ووجوده، قال لي في نهايته:

- المشكلة ليست في وجود اللّـه، بل في غيابه. هذا هو السُّؤال الذي يجب أن يشغلنا: لماذا اللّـه غائب؟

- كيف، إذن، تخشى أن يغتالك وأنت تعتقد أنَّه غائب؟

- تلك هي المشكلة، ذلك بأنَّه سيغتالني بغيابه.

❖❖❖

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

أخذت من البيت ملابسي القليلة وبعضَ أشيائي الخاصَّة، وحملتها في كيسين بلاستيكيِّين، وأنا أشعر بالسَّعادة لأنَّ مازنًا وافق على مشاركتي له في الشّقة، موفِّرًا عليّ مشقَّة السَّفر اليوميّ من القرية وإليها. وموفِّرًا عليّ مشقَّة الاستمرار في العيش في بيت أبي.

مررت في عمَّان بحانة صديقتي، وأخذت كرتونتَي الكتب. كنت أشعر بالإنهاك الشديد حينما جلست أخيرًا في الباص المتَّجه إلى الزرقاء. احتجّ السَّائق على كرتونتَي الكتب اللّتين شغلتا مقعدين، واستعاد هدوءه حينما دفعت له أجرتَهما. نظرت عبر نافذة الحافلة إلى الناس الذين يسيرون في الشوارع، وإلى الذين يركبون الحافلات، والذين ينتظرون الحافلات، وغبطتهم على السُّهولة الفطريَّة التي يواجهون بها هذه الحياة. لَمن الرَّائع أن تمرّ الأيَّام بسلاسة من دون أن تتعثَّر بالأسئلة. لكم غبطتهم على طمأنينتهم المنبثقة من استسلامهم للحقيقة، تلك الواضحة والصلبة، وليس ثمَّة ما يهدّد تصدُّعها. وفي وسع أيّ منهم، في اللّحظة التي يشاء، أن يستند إليها مثلما يستند إلى جدار. أنا أيضًا أريد حقيقة كهذه؛ أنا الذي أستند إلى الهواء. يغويني هذا الحلم: أن أشبههم؛ أن أغدو طبيعيًّا مثل سائر خلق اللّه الطبيعيِّين.

جاء راكب وأراد أن يضع إحدى الكرتونتين على الأرض، ليجلس على المقعد، فاعترضت لأنَّ هذا المقعد محجوز وأُجرته مدفوعة. تدخَّل السَّائق لمصلحة الراكب قائلًا: «افترضْ كرتونتك راكبًا واقفًا، فنحن نتقاضى أجرة الواقفين أيضًا». وفي النتيجة، باتت الكرتونتان مركونتين على أرضيَّة الباص، وسط ازدحام ركّاب يركلونهما بأقدامهم كلَّما تحرَّكوا.

فكَّرت في أنَّ أسوأ ما يمكن أن يحدث للمرء في هذه الحياة هو أن يكون شخصًا مهتمًّا بالثقافة، يعيش فقيرًا ومُعدَمًا في مجتمع رجعيّ ينبذه، لدى أبٍ يكره المعرفة وجَشِعٍ يُجلّ المال، ويحتال على الآخرين لينهبه

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

منهم، ويصلّي في الوقت ذاتِه، ولا يكفّ عن قراءة المواعظ؛ أن يكون مثلي أو مثل أحمد الذي يعشق الشعر والأدب، ويُغْرَمُ بالأسطورة، ويحفظ ملحمة جلجامش عن ظهر قلب، لكنّه لم يفقد ثقته باللّـه، يصلّي، وما زال يستجدي عدالته.

التقيت مازنًا عند باب البيت، فساعدني في حمل إحدى الكرتونتين. صعدت الدرج لاهثًا منهَكًا من التعب. كنت أحلم باللّحظة التي أصل فيها إلى الشّقّة، فأضع الكرتونتين في غرفتي وأرتمي على السّرير كقتيل. كانت الشمس تغيب وتأخذ معها نهارًا، هو آخرُ نهارات شقائي. هذا ما كنت أمنّي نفسي به.

حدّثت مازنًا عن صراعاتي مع أبي. سردت له قصصًا كان أبي يبدو فيها مثيرًا للشّفقة من شدّة جهله، وأنا مستلذّ بتصويره على نحو هزليّ ولا أمل في إنقاذه. كانت هذه الصّورة تبعث لديّ إحساسًا مبهجًا بالنّصر عليه، وخصوصًا أنّ كتبي كلّها لم تَعُدْ في مرمى نظره. استرسلت في الكلام، منتشيًا وغارقًا في مجد انتصاراتي وفي الانتقام منه.

أيُّ انتصارات؟ في واقع الأمر، كان هو المنتصرَ، وكنت أنا المهزومَ. كان شبح هذه الفكرة ـ الحقيقة، ينتصب أمامي ساخرًا منّي، ومن قصصي ومن صوتي، ومن ضحك مازن واستمتاعه بسردي. بيد أنّني كنت في تلك اللّحظات لامباليًا، وغيرَ مكترث لرؤية ما من شأنه أن ينغّص عليّ لذّة النّصر، وخصوصًا إذا كانت الحقيقةَ عينَها.

تساءل مازن عن السّبب الذي يجعلني أخوض هذه الصراعات من أجل لاشيء. نصحني بأن أريح رأسي وأن أصلّي مع أبي في المسجد يوم الجمعة، بما أنّ ذلك سيوفّر عليّ مشاكلَ أنا في غنًى عنها. فسألته بتعجُّب:

ـ أتفعل ذلك أنت؟

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

ـ أجل، أفعله.

ـ لتديُّنِك؟

«لا... بل من قبيل الاحتياط فقط»، ردَّ ضاحكًا.

ثمَّ جاء أحمد، ببذلته الرَّخيصة وربطة العنق. أخبرنا بأنَّ أمَّه اليوم افتعلت مشكلة مع زوجته، وطالبته بعدها بالرَّحيل والسَّكن في مكان آخر مع عائلته، مع أنَّها تعلم عِلْمَ اليقين بأنَّه لا يملك ثمن خيمة في العراء.

قال إنَّ المسرحيَّة تقترب من ذروتها الدراميَّة، وصمت. ذبُل وحدَّق في الفراغ بتلك النَّظرة المرعوبة، والتي تجعله محاطًا بهالة غامضة تبعث على الشعور بالرَّهبة، فتسأل نفسك وأنت تنظر إليه: أيُّ روح معذَّبة هذه؟ أيُّ مصباح يمكن أن يضيئها؟ قال:

ـ أطرح على نفسي في كلّ يوم السُّؤالَ ذاته: لماذا أقدمت على هذا الفعل؟ لماذا يحلم الناس بالثراء؟ أتذكَّر نفسي كلّ يوم وأنا منفعل، مصدِّقًا أنّ في وسعي أن أوجّه ضربة إلى القَدَر. لست أدري من أين جاءتني تلك الثِّقة بأنَّني سأنتصر على القَدَر في هذا التَّحدِّي.

وراح يضحك، إذ بدا له الأمر طريفًا. ظلّ يضحك للحظات وحيدًا ونحن ننظر إليه. أضاف بعد الضحك:

ـ لكنْ، لا. أتريدان معرفة الحقيقة؟ سأعترف بها لكما: المسألة لم تكن تحدِّيًا، بل رغبة عنيفة في جني المال بسرعة؛ في أن تنتزع هذا المال عنوةً، وبضربة واحدة من الحياة. لكنْ... يا للأسف، ثمَّة من كان ينصب لك الفخ. أنت تريد اصطياد الفرصة، لكنَّ الوهم هو الذي يصطادك. ومدَّ يده لامسًا ذراع مازن: هل تعرف كيف تصطاد الأوهامُ ضحاياها؟ كيف تختارهم؟

فأجابه مازن: هم الذين يختارونها، فهي تتعثَّر بهم في طريقها!

ردَّ أحمد: أنت محقّ، فلقد تعثَّر الوهم بي في طريقه، وما زال ابن القحبة يدحرجني!

وانفجز ثانية في الضحك. وفي هذه المرَّة ضحكنا معه.

فقال له مازن:

ـ إنَّها الرأسماليَّة يا عزيزي. تغريك بالرّبح السَّريع من دون جهد أو عمل. إنَّها تخدعك ببراعة كي تصدّق، وأنت ترى الأثرياء، وتتحسَّر على وضعك، وتتوهّم أنَّ في وسعك أن تصبح ثريًّا مثلهم بين يوم وليلة. لكنَّها خدعة، كي تُفقرَكَ أكثر، وتنهبَ منك ليس ما تملكه في هذه اللَّحظة فقط، بل ما ستملكه في المستقبل.

أيّدتُه باستغراب، فقد أدهشني فهمه العميق للرأسماليَّة. أيَّده أحمد أيضًا، قائلًا:

ـ أجل، إنَّها تبيعك الهواء وهي تقول لك، تعالَ، وابدأ الآن، فتنجرّ مثل المسحور إلى أن تسقط في فخّها، وحينذاك تسلبك كلّ شيء وتحطّمك. لقد باعتني الوهمَ وسلبتني كلَّ شيء؛ كلَّ شيء.

وأضاف مازن متهكّمًا:

ـ ما كان عليك أن تنساق إلى الطمع. كان يجب أن ترضى بما كتبه اللّـه لك، وأن تصدّق أنّ لا مال يُصنَع إلَّا بعرق الجبين والتعب.

ـ لكنَّني انسقت إلى هذه المقامرة، ليس بسبب الجشع، بل بسبب الحب. كنت أريد أن أكافئها على خيارها. لقد قالت لي إنَّها مستعدَّة لأن تعيش الفقر معي، وأردت أن أقدّم إليها شيئًا آخر غيرَ الفقر.

وحدَّثنا، واصفًا كيف تنظّف زوجته البيت وهي تغنّي. وكيف يعشق صوتها، الذي ينتشله من قاع الهموم، فيكتشف وهو يصغي إليها

أنَّ الجوهر الحقيقيّ للحياة، والذي نحفر عميقًا كي نصل إليه، إنَّما هو الموسيقى؛ هو هذا الصَّوتُ ذاته، لكنَّك لا تحتاج إلى حَفر وشقاء كي تصل إليه، لأنَّه يصدح من حولك. عليك أن تصغيَ فحسب؛ فيعيدَ إليك الأمل.

بدا لي كأنَّه جنديٌّ على الجبهة يحدِّث رفاقه عن معشوقته البعيدة. وتخيَّلتُها وهي تغنِّي. كان وجهها غائمًا، لكنَّ روحها بدَتْ لي كالموسيقى: لها جَرسٌ ساحر، فيه بحَّةٌ خفيفة تذكِّر بنايات ومواويل شجيَّة، تعنّ على البال وقت الغروب. أنا أيضًا كنت جنديًّا معفَّرًا بالهزيمة والحرمان والفشل، متعطِّشًا إلى الحبّ، وأريد امرأة مثلها، تردّ إليَّ الحكمة التي سلبتْها منِّي عائشة، فأحظى بأمل في انتصار ما على هذا العبث.

نظر إليّ مازن قائلًا:

ـ هل تعلم ما مشكلة هذا الرجل؟ إنَّها ليست الدُّيون ولا الفقر، إنَّها عشقُه زوجتَه! هل رأيت شخصًا من قبلُ يعشق زوجته، ويتحدَّث عنها بهذه اللُّغة؟ ها هو أمامك بلحمه ودمه: رجل يعشق زوجته!

بدا لي الأمر بالفعل غريبًا، وخصوصًا بعد أن طرحه مازن على ذلك النَّحو السَّاخر، وكان أحمد صامتًا ينظر إلينا بتلك النَّظرة الضائعة. قلت:

ـ أنا على قناعة بأنَّ الحبّ ما هو إلَّا كذبة جميلة يخدعنا بها الوجود كي يحافظ على خلوده. أنت في الحبّ تتواطأ ضدّ نفسك مع الطبيعة، وتساهم في انطلاء المؤامرة عليك، كي تنجب طفلًا، يحافظ على استمرار الحياة، وكي ينجب هو بدوره أطفالًا يحافظون على هذه الحياة.

لست أدري لماذا قلت ذلك. هل كنت أريد مواساة أحمد، أم أن أدمِّر تصوُّراتِه الرُّومانسيَّةَ والجميلةَ عن الحبّ؟ أم كنت أريد أن أحطِّم أملًا

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

ومضَ في خيالي: إذا كان أحمد عثر على هذه المرأة فإنَّ ثمَّة أملًا لي أيضًا؟ أم تعبيرًا عن غيرة خفيَّة لديّ من هذا الحبّ؟ لا أدري. غير أنَّ لذَّة غامضة كانت تفتك بي وأنا أعرّي هذه الحقيقة وأضعها أمام أحمد المعذّب والواقف على حافَّة الهاوية، وأمام نفسي أيضًا، كمستنقع لليأس.

ردَّ أحمد محتجًّا:

ـ لا أؤيّدك، فأنت تجرّد الإنسان من المشاعر ومن العقل، كما لو كان مجرّد جسد، يتصرَّف على نحو غرائزيّ بحت.

ـ ومَن هو إذن؟ مَن نحن، ولماذا نسعى إلى الثراء؟ أليس من أجل تلبية حاجات الجسد على نحو أفضل: تحسين نوعية طعامنا وشرابنا؛ تحسين نوعية ملابسنا؛ تحسين ظروف السَّكن وزيادة سعته؟ أليس من أجل شراء سيَّارة، كي لا تتعب أجسادنا في أثناء تنقُّلنا من مكان إلى آخر؟ وفي النهاية: أليس من أجل إرضاء الحبيب كي لا نخسره، ونخسر بالتالي شريكنا الجنسيّ؟ ما نحن سوى أجساد!

ـ والعقل؟ والمشاعر؟ والجمال والموسيقى والفنّ والأدب والفلسفة والعلم والدّين؟ ما كلُّ ذلك؟

أعجبني سؤال أحمد للغاية، كما لو أنَّه قدَّم لي نسيجًا عنكبوتيًّا لأمزّقه بسهولة. فقد كنت على يقين بأنَّها كذبة كبيرة، تلك التي تزعم أنَّ العقل يعمل من أجل الفضيلة أو الخير أو الجَمال بمعزل عن الجسد. أجبته بأنَّ العقل في الحقيقة يفكِّر ويبدع كلّ شيء فقط كي يسهّل حياة هذا الجسد، بل حتّى يدلّله. إنَّه مجرّد عضو، طوّره الجسد ذاته ليخدم وجوده على نحو أفضل. وكلُّ المعرفة التي يُنتجها الإنسان هي من أجل دلال أجسادنا وإسعادها، وهدهدةِ الجسد في أوقات حاجته بمصائد الجمال والفلسفة والفكر.

لكنْ، إذا كانت الفلسفة والفنون والقصائد تقوى على مخاتلتنا وإسقاطنا في براثن الوهم، فإنّ الأديان تؤكّد ما أقول على نحو صارخ لا يُبقي مجالًا للشكّ. ذلك بأنّها تخاطب أجسادنا فقط. تغريها بالخلود. تغري أجسادنا ذاتها وليس أرواحنا أو عقولنا. فحينما نموت، نصبح مضطرّين إلى أن ننتظر زمنًا طويلًا حتّى تدقّ السّاعة فتبعث الحياة من جديد في أجسادنا. أمّا أرواحنا التي ستظلّ هائمة حتّى تلك السّاعة، فلا أهمّيّة لها. لو كانت مهمّة، لارتقت إلى السّماء فورًا ولاتّخذت شكلًا ما، ليس بالضرورة أن يكون جسدًا. لكنّ الأمر ليس كذلك، فالمطلوب هو إحياء جسدي أنا ذاته، بطوله وعرضه وشكله ومواصفاته جميعها. لأنَّ هذا الجسد ذاته، جسدي الذي يحيا الآن، هو الذي يرفض الفناء، وهو الذي يريد أن يعيش إلى الأبد، ويأكل إلى الأبد، ويمارس الجنس إلى الأبد. لهذا، حلُمَ بجنّة تمنحه كلّ ذلك من دون حدود؛ جنّةٍ تستجيب لجشعه وتوحشه اللذين في وسعه أن يمارسهما من دون حرج. فهذا الانفلات مُباح في الجنَّة، لأنَّه ثواب عن تضحية ما قدَّمها على الأرض. لقد ضحّى الجسد من أجل خلوده هو، وليس من أجل ارتقاء روحه إلى جنَّة غامضة المعالم ليس له فيها وجود، فتنعم هذه الرُّوح بالحياة، وتستلذّ بملذّات غير ملذّاته، بينما هو يتعفّن في الأرض.

لكنَّ الغريب في الأمر أنَّ العقل ذاته، الذي رسم صورة هذه الجنَّة، استثنى، وهو يرسم هذه الصُّورة، أيَّ مُتَع تخصُّه أو تخصّ الرُّوح. استثنى الفكر والفلسفة والفنون والجمال... استثنى كلّ متعة تمامًا، كأنَّما يعترف بأنّه كان مجّرد خادم لهذا الجسد، أدّى مهمّته التي تتلخّص في قيادة الجسد إلى الخلاص، ثمَّ غاب. كأنّه هو الذي مات وليس الجسد. ألا يبدو ذلك أمرًا عجيبًا؟

لم يُجبني أيٌّ منهما.

لكنّ أحمد نهض، ووقف إلى النافذة التي تطلّ على الخرابة المهجورة، وراح ينظر إلى أشلاء البيت المهدَّم بعينين متأمّلتين. قال وهو لا يكفّ عن النظر:

ـ ماذا لو ظهرتْ فجأة في وسط هذه الأطلال روحُ صاحب هذا البيت، أو ما كان بيتًا؟ تخيَّلا لو تعود روح أحدكما إلى بيته ويجده أنقاضًا؛ مدمَّرًا، ليس بفعل حرب أو كارثة طبيعيَّة، بل بفعل الزمن! ستفهم ذلك من بقايا الجدران المحطَّمة، ومن حجارتها المسودّة، والأعشاب التي نمت بينها. ستسأل نفسك من دون أن تقوى على الإجابة: كم من الوقت مرّ يا تُرى حتى تآكلت الجدران وتهالكت وتهاوت؟ كم سنة؟ كم قرنًا؟ ستقف بين الأنقاض وأنت تحاول البحث عن الذين تحبُّهم، أين اختفوا؟ أين اختفت أشياؤهم وأشياؤك الخاصَّة؟ بل إنَّك في لحظة ستبحث أيضًا عن همومك التي عذَّبتك، وشقائك الذي عشته، وأنت فيه. وربَّما تبدو لك تلك الهموم حميمة، لكنَّك لن تعثر على شيء من ذلك. وفي مدى هذا الصَّمت العميق والموحش، سيجيبك المشهد ببلاغته القاسية، بأنَّ كلّ شيء مضى واندثر في غيابك الذي لا تدري مدَّته، لكنَّه حتمًا طويل، مع أنَّه يبدو لك أنَّك لم تغب إلَّا قليلًا. ستقف عاجزًا عن التَّعبير عن مشاعرك لأنَّ الكلام لن يطاوعك، وستعجز اللُّغة عن حمل أفكارك، فتظلّ صامتًا لا تعرف كيف تصف أحاسيسك، وما هي تلك الأحاسيس، التي تفتقد اللُّغة مسمّياتها، لأنَّ الإنسان لم يجربها ولم يختبرها من قبل.

صمت قليلًا، ثمَّ ما لبث أن هتف: ابن العاهرة! إنَّه يتبوَّل في المكان الذي أتخيَّل نفسي واقفًا فيه!

هرعنا إلى النافذة ورأينا رجلًا واقفًا قرب بقايا أحد جدران البيت المهدَّم، يتبوَّل. انفجرنا في الضحك، وقلت لأحمد إنَّ هذا الرجل حوَّل المشهد الذي كنت تصفه، من التراجيديا، إلى الهزل، تمامًا كشخص يخرج من بين الجمهور إلى خشبة المسرح، في لحظة الذُّروة الدراميَّة، ويقف بين الممثِّلين المذهولين من ظهوره، ويروح يتبوَّل بينهم.

ردَّ أحمد: بل يتبوَّل عليهم، وهذه هي الذُّروة.

واشتدّ ضحكنا. وهتفتُ: إنَّ التاريخ يحتقرنا. يتبوَّل علينا بلا أيِّ مبالاة.

❖❖❖

اللَّيلة السَّابعة

تقلَّبت طويلًا في الفراش كمَن تضنيه عذابات الضَّمير. كان المطر يسقط في الخارج. سمعت نقرات قطراته على باب غرفتي الحديديّ. وكان هذا الصَّوت يثير صورًا في خيالي: أراه يسيل على زجاج نافذة واسعة، وإذا ما نظرت إلى البعيد تظلّ هذه الخطوط تسيل على وجه الأفق الرماديّ والسَّماء الحزينة. مكتبة أحمد

ربَّاه، كم أنا وحيد هنا! لا أفعل شيئًا سوى اجترار ذكريات لعلّي أنجو منّي ومن عينَيْ عجوز تحدّقان فيَّ من زوايا هذه الغرفة. ذكريات بلا كلمات؛ مجرَّد تدفُّق للصُّور والأفكار يشبه تدفُّق الأسى في الموسيقى.

يبدو لي أنَّ الموتى يذهبون إلى القبور بذاكرة ميِّتة إلَّا من الموسيقى. إنَّها الألم الوحيد الذي يبقى في ذاكرتهم، يقضّ مضاجعهم، ويستدرّ أحزانًا غدت في القبر مجهولةَ الأسباب، كأنين ناي عالق على نحو أبديّ في عبث هذا الكون.

كان أحمد يحبّ الموسيقى، ويعشق صوت امرأته وهي تغنّي. يتشبَّث بغنائها مثلما يتشبَّث بمظهره الرزين والرَّصين، محافظًا في كلّ يوم

على ارتداء بذلاته القديمة مع ربطات العنق. كأنَّما يعبِّر، بهذا المظهر، عن موقفه من هذه المواجهة المصيريَّة، والمستمرَّة على مدار السَّاعة مع الحياة.

كنَّا أحيانًا نلتقيه أنا ومازن في يوم الخميس في الحانة، لكنَّه صار يتخلَّف عن القدوم، أو يلحق بنا في آخر السهرة، بسبب التزامه بعمل إضافيٍّ يمارسه يوميًّا بعد الوظيفة: بائع في متجر للخضار.

عرجت ذات يوم على متجر الخضار الذي يعمل فيه، فشعر بالخجل منِّي. كانت تلك هي المرَّة الأولى التي أراه فيها لا يرتدي البذلة مع ربطة العنق. كان يرتدي بنطالًا وقميصًا عتيقين وممزَّقين في بعض الأماكن. وفكَّرت في أنَّ هذا اللِّباس هو بمثابة ضربة أخرى توجِّهها الحياة إلى كبريائه، وتذلّه فيها.

كان يفرّغ حبَّات البندورة من الصناديق ويصفّها بتأنٍّ في واجهة العرض، وأنا أراقبه بينما الجوع يعذّبني، وأفكّر بين اللَّحظة والأخرى في أن أتناول حبَّة وآكلها. كان الشهر في آخره، وجيبي، كما العادة، فارغة، وأصبّر نفسي حتَّى أعود إلى البيت وآكل شيئًا من الطعام الذي يجلبه مازن، وأفكّر أيضًا في أن أطلب منه أن يقرضني بعض الدنانير حتَّى نهاية الشهر.

قال لي أحمد إنَّ زوجته تعمل الآن في روضة أطفال. وعلى الرَّغم من تفاهة المرتَّب الذي تتقاضاه، والذي لا يتبقَّى منه إلَّا بعض الدنانير بعد أن تدفع قسطَيْ تسجيل طفليهما في الرَّوضة، فإنَّها وافقت على هذا العمل لأنَّه يوفِّر لها فرصة قضاء النهار خارج البيت. وحينما تعود، تلوذ بالصبر في مواجهة العذاب، وتتجرّع بصمتٍ السُّمّ الذي يرشُّه أهله على هذه الحياة. فأمُّه لا تكفّ عن أن تعتصر الهواء يوميًّا بحثًا عن سبب جديد للشجار معها، وتترك لها كلّ الأعمال المنزليَّة كثمن لعيشها في تلك الغرفة الحقيرة. كانت قبل أيَّام ارتكبت خطأً تافهًا، إذ سهت ونست المكوى في أثناء الكيّ على قطعة الملابس واحترق جزء منها، فهجمت عليها أمّه بالمكوى وحاولت

حرقها به، وكانت ستنجح لولا تدخُّل أبيه في اللَّحظة الأخيرة، خوفًا من عواقب الجريمة، لا من الجريمة ذاتها. اتَّصلت به زوجته من بيت أهلها «وكان صوتها لا يزال يرتجف رعبًا. كانت تبكي، ليس بسبب المشاكل، بل ذعرًا من حجم الكراهية التي يكنّها لها أهلي. وكانت على يقين من أنّ أمِّي ستقتلها ذات يوم»، قال. فعلَّقتُ بدهشة:

- لست أفهم من أين تأتي هذه القسوة.

- لا أدري. ربَّما من شحّ إنسانيَّتنا وتشوُّهها.

- لكنْ، هل ثمَّة نموذج صحيح للإنسانيَّة؟

أجابني ساخرًا:

- أجل، أنا هو النموذج الصحيح!

- أنت لا تكفّ عن أن تهزل وتضمر وتضمحلّ، مثلي. ربَّما لن يبقى منك شيءٌ عمَّا قريب. لكنْ، أما زالت زوجتك في بيت أهلها؟

قال إنَّها عادت بالأمس، ليس فقط لالتزامها بالعمل، بل أيضًا هربًا من أهلها، الذين لم يكفُّوا عن أن يردِّدوا على مسمعها نغمة الطلاق. «اتركيه! انفصلي عنه وعن أهله. زواجك منه كان في الأصل خاطئًا. قلنا لك إنَّه فقير وستجوعين وتتعذَّبين معه، لكنَّك أصررت عليه، وهذه هي النتيجة: لم تجوعي فحسب، بل وقعت فريسة بين يدَيْ أمّه. اتركيه، واتركي له ولأهله الطفلين وسترين كم من راغب مقتدر سيطلب يدك. أنت شابَّة جميلة ومتعلِّمة، وألف شخص يتمنَّاك!»

أتخيَّل كيف كانوا يردِّدون هذه الكلمات على مسمعها في اللَّيل والنهار، بيد أنَّها هربت من عندهم وعادت إليه. وعلى الرَّغم من كلّ مآسيه، فإنَّني غبطته على هذه المرأة التي وهبتها له الحياة.

أعطاني أحمد حبّة بندورة بعد أن فركها بقطعة قماش، فالتهمتها سريعًا، وغمرتني السّعادة لذلك، وهنَّأته بعودة زوجته.

وجاء زبون أنيق لا يريد أن يوسّخ يديه، فانشغل معه أحمد. وأخبرني، حينما انتهى من مهمّته، بأنّه في يوم الجمعة، خرج من البيت بعد أن صلّى في المسجد، ومشى طويلًا حتّى وصل إلى العراء. كانت الشّمس ساطعة ودافئة، وكان يرى بعض الرعاة مع أغنامهم. اقترب أحد كلابهم منه ومشى إلى جانبه قليلًا، ثمَّ ابتعد، حينما جلس هو على صخرة. راح ينصت إلى صوت الطبيعة، يراقب من دون غاية، الطيورَ في السّماء، والزواحفَ التي تمرّ إلى جانبه، والكلبَ الذي يقعي على بعد مسافة منه ذليلًا، والصخورَ البارزة من الأرض، والحجارةَ، والأعشابَ اليابسة التي تأكلها الأغنام. يراقب، مصغيًا إلى صوت الرّيح وهو يرسم في مخيّلته صورًا لضَياع لا يدرك مغزاه.

«وفكّرت في أنّني مستعدّ للتضحيّة بأيّ شيء أملكه في مقابل أن أنقذ طفليّ وزوجتي من المصير الذي صنعته بغبائي لهم. لكنْ، ماذا أملك؟ كيف أنقذهم؟ كيف؟ ثمَّ خطر في بالي أنّني أنا ذاتي سبب مصائبهم، وأنَّ غيابي هو الذي سيُنقذهم من مستقبل مثقل بالدُّيون والشّقاء والهموم. انتصبت واقفًا، ما إن صفعتني هذه الفكرة، ونظرت إلى الهضاب الجرداء وإلى صخورها، إلى السّماء، وإلى الطيور والزواحف والأغنام والرعاة والكلب، والرّياح التي تصفر في الوديان، ولم أرَ سوى العدم. كنت أشعر بنفسي كشبح يقف على حافّة الهاوية، وراحت أشعّة الشّمس تضطرب في هذه الهاوية، وشرع الضياء يتلاشى شيئًا فشيئًا إلى أن انطفأ».

كان وجهه شاحبًا جدًّا، ولمحت يديه ترتجفان وهما تحاولان إشعال سيجارة. قلت له:

ـ إنَّ يديك ترتجفان.

قال مبتسمًا:

ـ وكيف لا ترتجف يداي؟ و«كيف لا يصير وجهي أشعث كمن أنهكه السَّفر الطويل.

كيف لا تذبل وجنتاي ويمتقع وجهي».[1]

تتواصل طقطقة المطر على باب غرفتي. هدهدتني رويدًا رويدًا، وأخذتني إلى النوم، بيد أنَّ الأنين ما لبث أن أيقظني. فتحت عينيّ ورأيت العجوز الذي كان يعيش قبلي في هذه الغرفة التي بلا نافذة، ممدَّدًا على أرضها، وعيناه تجولان في الفراغ بحثًا عن نافذة. توقَّف فجأة عن الأنين. استند، وزحف نحو الزاوية وجلس فيها. توقَّفت عيناه عن البحث في الجدران عن نافذة وحدَّقتا فيَّ، ثمَّ سألني:

ـ لماذا قتلت أباك؟

ـ أتظنّ أنّني قتلته فعلًا؟!

ـ لا أدري، لقد سمعتك تقول ذلك. سمعتك مرارًا تكرِّر في اللَّيلة السَّابقة: قتلته. قتلت أبي.

ـ أنا أيضًا لا أدري. ذهني مشوش، ولا أستطيع أن أميِّز الحقيقة من الخيال.

ـ كنت تهذي، إذن؟!

ـ أظنّ ذلك. لهذا أشعر بالخوف. أخشى الجنون.

ـ الجنون حالة رائعة، لطالما تمنَّيتُه. بقيت صاحيًا حتَّى اللَّحظة الأخيرة بكامل قواي العقليَّة. أدرك كلّ الآلام، أفهمها وأغرق فيها، إلى أن متّ.

---

(١) من ملحمة جلجامش.

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

فسألته بذعر وأنا أنتفض:

ـ أتخاطبني الآن وأنت ميّت؟

ـ ألم يخبروك بذلك؟

ـ بلى، أخبروني.

ـ لماذا تستغرب، إذن؟

ـ فعلًا: لماذا أستغرب؟

ولست أدري لماذا صرخت في تلك اللّحظة. هببت من الفراش وكلّي يرتجف.

أنا هنا وحدي ولا أحد معي. أنا وحدي. أنا وحدي. ولكثرة ما كرّرت ذلك لنفسي، أدركت فجأة معنى كلمة «وحدي»، إدراكًا فجّر الدموع في عينيّ، فطفقت أنتحب مثل طفل.

أينكِ؟

❖❖❖

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

النّهار الثّامن

«طمئنّي، كيف أمضيت اللّيالي الماضية في غرفتك الجديدة؟» سألتني صديقتي مالكة الحانة ما إن رأتني داخلًا حانتها.

كنت في هيئة لا تختلف كثيرًا عن هيئتي السّابقة التي رأتني فيها. قلت لها إنّ الكوابيس عذّبتني للغاية، وإنّني في ليلة الأمس تخيّلت العجوز يجلس معي ويحدّثني، فذُعرتُ ورحت أبكي وأنتحب مثل طفل. وبقيت مستيقظًا حتّى الصّباح، ثمّ ذهبت إلى العمل، بعد تغيُّب ثلاثة أيّام.

سألتني عن مدير المدرسة، فأجبتها بأنّه مدير آخر، فأنا الآن أدرّس في مدرسة أخرى.

ـ أنا واثقة بأنّ مديرك الجديد سيطالب بنقلك عمّا قريب!

ـ سيفعل. إنّه وغد. في الشهر الماضي، وهو أوّل شهر أداومه في مدرسته، خصم من مرتّبي خمسين دينارًا. حينما أدركت الأمر ذهبت إليه في اليوم التّالي أداري غضبي كي لا أقتله. صرخت في وجهه: «حرام عليك يا رجل! خمسون دينارًا تخصمها دفعة واحدة؟ أتريدني أن أموت من الجوع،

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

فمرتّبي التافه لا يكاد يكفي حتّى منتصف الشهر، فضلًا عن أنّني أعيش في فندق حقير يجب أن أدفع أجرته! هل تخبرني إلى أيّ جيب ذهبت هذه النقود؟ إلى أيّ كرش مصاب بالتخمة؟»

غير أنّ كلامي لم يلامس ذرّة واحدة من ضميره، بل قال بهدوء ينمّ عن ارتياح داخلي عظيم: إذا كنت لا تريد أن تجوع، فلا يجب أن تتغيّب عن الدوام.

ـ أنا مضطرّة إلى أن أعترف لك بأنّه محقّ! لو كنت مكانه لفعلت الشيء نفسه.

ـ صحيح. هو على حقّ. لكنّه بذلك لن يربّيني. لن يجدي هذا الأسلوب، لن ينفع معي. أتدرين بماذا ردّدت عليه: تغيّبتُ في اليوم التالي أيضًا عن العمل!

ـ أنت مجنون فعلًا!

قالت وهي تضحك، ثمّ سألت: واليوم، ماذا قال لك بخصوص غياب الأيّام الماضية؟

ـ استعان بكلّ الأنبياء والآلهة والشياطين كي يرسلوا لعناتهم المدمّرة عليّ. فقلت له لا داعي لأن تبحّ صوتك، فهم يؤدّون المهمّة على خير وجه من دون دعائك. لو ترينه. كنت ستضحكين من قلبك: قصير القامة بكرش كبير، ورأس صغير، ووجه يتوسّطه أنف عظيم. راح يلفّ ويدور في مكتبه صارخًا من شدّة غيظه منّي، ثمّ أخرج ورقة استجواب كي أشرح فيها خطيًّا أسباب تغيُّبي عن العمل. فكتبت: بسبب عجوز ميّت وثرثار يعوّقني عن النوم ليلًا.

راحت صديقتي مالكة الحانة تقهقه بصوت عال أثار فضول بعض المارّة في الشارع، وظلّت تقهقه لدقائق، وتحاول أن تقول شيئًا ولا تقوى

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

بسبب الضحك. وحالما توقّفت راحت تردّد: يا إلهي، كم أنت ظريف! لم أصادف في حياتي شخصًا بعبثيّتك وظُرفك! لهذا أحبّك!

ـ أنا أيضًا أحبّك يا صديقتي الحنونة!

قلت وأنا أدرك بأيّ معنى تحبّني وبأيّ معنى أحبُّها، لكنّ كلمة «أحبُّك»، وخزت قلبي، بل جرحته وأدمته فنزف. وسألتني: «وما ردَّةُ فعل المدير بعد أن كتبت له ذلك؟»

ـ بلَّم لدقيقة أو اثنتين وهو يحدّق في الورقة ولا يجد شيئًا يقوله، فخرجتُ من مكتبه، وبعد عدَّة خطوات خطوتها سمعته يصرخ: «سيجلطني هذا الشخص. أقسم بأنّه سيجلطني إذا بقي في هذه المدرسة! لكنّني أعرف كيف أجعلك تندم. ستندم، ثق بذلك!»

«أنت تدمّر نفسك بنفسك!» قالت صديقتي مالكة الحانة.

ـ أنا مدمَّر في الأصل. أريد زجاجة.

رفضت أن تديّنني المشروب، على الرَّغم من أنّني وعدتها بأن أردّ ثمنه ما إن أستلم مرتّبي في نهاية الشهر. وراحت تراقب على شاشة التلفاز المعلَّق بالقرب منها، نشرةَ الأخبار. كان حشود من الشباب يردّدون بانفعال «اللّـه أكبر» في استجابة لشخص يصرخ أمامهم: «تكبيير...»

ذكَّروني بالتلاميذ الذين درّستهم في الزرقاء قبل ستَّة أعوام، بل بدا لي أنَّهم هم ذواتهم، الذين كنت ألتقيهم يوميًا في تلك المدرسة التي تمتلئ ساحتها بالنفايات، ولا تكفّ الرَّوائح النتنة عن الانبعاث من مبنى حمّاماتها؛ المدرسة التي تقع في أفقر الأحياء، حيث تتكدَّس البيوت البائسة إلى جوانب شوارع تتزاحم فيها أبخرة الهموم والجهل، والشجارات والأوهام والصلوات. كل ذلك يندفع إلى السَّماء كبخار بركان ساكن على

وشك أن ينفجر. أقف أمام هؤلاء التّلاميذ الفقراء، المراهقين، المنساقين إلى رغباتهم الغرائزيّة في الحياة؛ رغبات هوجاء لا يضبطها لا عقلٌ ولا قانون. أتذكَّر نفسي حينما كنت في سنّهم وأنا أنظر إليهم: تغمرني السَّعادة حينما أعثر على كتاب لأقرأه. أمشي بين أصدقائي بزهوّ باحثًا دومًا عن موضوع معقّد للحديث عنه؛ عن أسئلة تشغلني وتجعلني أصدّق أنَّني خُلقت لغايات عظيمة. لكنَّني كنت في سنّهم أيضًا حينما جاءتني عائشة وانسقت إلى رغبات هوجاء لم يضبطها لا عقلٌ ولا قانون!

في كلّ حال، أفتح الكتاب وأسألهم: ماذا لدينا اليوم؟

كانوا ـ بعضهم ـ يشاهدون في أثناء الدرس، في السرّ ـ وأحيانًا في العلن ـ، على هواتفهم المحمولة، مشاهدَ جنس. إنَّهم معافون من الأوهام، أقول لنفسي، ولا يعانون الصّراعات التي عانيتها وأعانيها. يعيشون وجودهم الماديّ ويمارسونه ويستجيبون لمتطلّباته، على نحو صادق من دون أوهام العقل والشعر والمعرفة.

يحدّثونني عن ساعات فراغهم بلا حرج: حينما ينتهي دوامهم المدرسيّ ينتشرون في الشوارع، بعضهم يبيع سلعًا مختلفة على بسطات غير مرخَّصة. يختفون ويُخفونها عن الأنظار بسرعة جهنميَّة حالما يلمحون طيف شرطي في الشارع «إنَّنا نشمّ رائحته عن بعد شارعين»، يقولون ضاحكين بفخر. وبعضهم الآخر يتسكَّع في الحارات بلا هدى، فأقول: «تتصيَّدون الفتيات وتتحرَّشون بهنّ؟»، يجيبون: «لا تقل إنَّك لم تكن تفعل ذلك وأنت في عمرنا يا أستاذ!»، فأردّ: «بالطبع كنت أفعل، بل إنَّني ما زلت أفعل ذلك!» وينفجرون في الضحك، وأضحك معهم، لكنَّ وجهي يتجهَّم في لحظة، وتعلق عيناي بالفراغ.

يحدّثونني أيضًا عن بطولات تافهة يؤلِّفونها، وينتشون بأحاسيس المجد وهم يتكلّمون عليها. يفعل الواحد منهم ذلك، وهو مسترخٍ في

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

المقعد، يهزّ قدمه اليسرى التي يضعها على شكل زاوية قائمة فوق ساقه اليمنى. يُتقنون الدبكة والتّلويح بالسبحة، ولا يوفّرون جهدًا أو مالًا كي يَبدون حداثيّين في لباسهم، ويتعطّرون بعطور رخيصة نفّاثة، لعلّهم يسلبون قلوب الصبايا، ويسيرون ببطء يناسب وتيرة مضيّ الزمن في هذه المدينة. يدخّنون النرجيلة، وتأخذهم أحاديث الجنس، ويُستثارون من طيف فتاة تمرّ في الشارع أو في الخيال.

ويجيدون، في الوقت نفسه، الصراخ في وجوه نساء البيت، وقد يتناولون في أيّ لحظة الأحذيةَ عن الأرض، ليضربوا بها الأطفال لأسباب يصعب التكهُّن بها.

يبرعون في السُّخرية من كلّ شيء يجهلونه، ويجيدون الفخر بالقبيلة، كما أنّهم يحفظون، عن ظهر قلب، أمثالَ المدينة، التي علّمتهم كيف يحيون الحياة بحسب سياقات اللّحظة. فإن شعرتَ بالضعف قبّلِ اليدَ التي صفعتك، يدَ زوج أمّك على سبيل المثال. وإن هبّت الرّيح من النافذة أُغلقْها لتستريح. يحفظون أيضًا أغاني المدينة، ويروون عطشهم ممّا يهطل منها من دماء ووعيد، ورغبات مزمنة في الانتقام. كما أنّهم ماهرون في حَلف الأيمان والكذب، ويؤكّدون أيَّ إشاعة يسمعونها لأنَّ لَوْكَها ينفع لملء فائض، لا يعرفون كيف يصرفونه، من ساعات النهار. وإذا ما اندلع شِجار في الحارة، على حين غرّة، فإنّهم يهرعون، لأنّهم على أهبّة الاستعداد دومًا، إذ إنّهم يُتقنون العراك والشتائم، كما أنّهم جاهزون في كلّ لحظة للهيجان، ولسحق كائن مَن كان، يُشاع عنه أنّه دنا من مقدّسات المدينة وحرماتها، وهي حُرمات لا تمتُّ في واقع الأمر إلى الأعداء الحقيقيّين بصلة.

إنّهم هم ذواتهم الذين يتشوّش إحساسهم بالواقع، ويختلّ ركود مستنقع طمأنينتهم الدُّنيويّ، فينتابهم الفزع، حينما تصل إلى أسماعهم،

أصواتُ مدرّسين يتلون عليهم، بهدف إصلاحهم، قصصَ العقاب واليوم الآخر والجحيم وعذاب القبر، فتشرد نظراتهم في هبوب رعب عاصف يندفع من أعماق ظلام دفين يخيّم عليه موت تتعالى فيه صرخاتُ المعذّبين. لكنَّها لحظات طارئة، في كلّ حال، فسرعان ما كانوا يهربون من هوَّة ذلك الرعب متشبّثين بحبال اللامبالاة والبلادة.

وهم ذواتهم الذين تضيع نظراتهم في لحظات طارئة أخرى، حينما يصل إليهم صوتي وأنا أقرأ لهم قصيدة، قد تنفع في لملمة أشلاء أحاسيسهم بالجمال، وأشلاء أحاسيسي أيضًا. قصيدة عن المطر والغربة والعزلة، تلامس أحزانًا إنسانيَّة راكدة. كانت أشباح هذه الصُّور تطفو لوهلة من حولهم وتنقلهم إلى عوالم أخرى ضبابيَّة ومليئة بالأسئلة. لكنَّها أيضًا لحظات طارئة سرعان ما يتعافون منها، وهم يفيقون على واقع قاحل، تلتهب فيه الشمس، وثمَّة أجوبة جاهزة عن كلّ الأسئلة التي قد تجول في خواطرهم. يفيقون ويضحكون ساخرين، قائلين لي إنَّني أقول لهم كلامًا غريبًا ومعقَّدًا، لا ينفع إلَّا للعاطلين عن العمل. وكنت، في نظرهم، عاطلًا عن العمل، ليس فقط لأنَّني أمارس مهنة التدريس التي لا تُغني ولا تسمن من جوع، بل لأنَّني فوق ذلك، بدلًا من أن أجد عملًا آخر أسترزق منه، أمضي ما تبقّى من وقت نهاري في قراءة الكتب. وقد دفعهم ذلك إلى عدّي غريبَ الأطوار، لم يمرّ عليهم مدرّسٌ مثلي. كان جميع المدرّسين الذين يعرفونهم - جميع المدرّسين الطبيعيّين، كسائر خلق اللّه الطبيعيّين - يمارسون في أوقات فراغهم أعمالًا أخرى يجنون منها دخلًا إضافيًا: يعطون دروسًا خصوصيَّة، أو يعملون سائقين للتاكسي، أو إنَّ لهم «مصلحة» ما؛ دكّانًا صغيرًا، أو شيئًا من هذا القبيل. ولا يتوانى كثيرون منهم - ويضحك الطلّاب وهم يسرُّون إليَّ بخفايا أعمال بعض المدرّسين في هذه المدرسة وتجارتهم - عن السَّرقة والنَّصب والاحتيال، كلَّما أتيح لهم ذلك.

كانوا يبيحون لمعلّميهم أن يرتكبوا خطايا السَّرقة والنَّصب، التي لا يعدّونها في الأصل خطايا، فهولاء المعلّمون، في رأيهم، يريدون أن يعيشوا، «هكذا هو العالم: إن لم تكن ذئبًا أكلتك الذئاب». لكنَّ المشكلة التي تجعل هؤلاء المعلّمين محطَّ تساؤل وسخرية، في نظرهم، هي المواعظ التي لا يكفُّون عن أن يتلوها «على مسامعنا، كما لو كانوا أنبياء لمجرَّد أنَّهم يصلُّون خمس مرَّات، ويحفظون الآيات القرآنيَّة، ويظلّون يحدِّثوننا عن عذاب القبر وعذاب الآخرة، بينما هم في الحقيقة مثلنا، مثلنا تمامًا: إذا ما أتيح لهم الحصول على قرش زيادة فإنَّهم ينسون من أجله اللَّـهَ والآخرة».

لست ذئبًا ولا أريد للذئاب أن تأكلني. كيف أتكيَّف مع هذا الواقع؟ كيف أتكيَّف مع تلك الرؤية المشوَّهة للحياة؟ لكن، ما هي، وأين هي الرؤية الصحيحة؟ أليست هذه الصراعات هي الأدقّ والأشدّ أمانة وإخلاصًا في تعبيرها عن الإنسان؟ لماذا يجب أن نُسقط عليه تصوُّراتِنا الرومانسيَّةَ الواهمة؟ لماذا نعدّه كائنًا متميِّزًا بقداسة ما، واهمة، عن سائر الكائنات؟

غير أنَّ الأوهام بشأن هذا الإنسان لا تفارقني، ولا أدرى كيف أعثر عليه، بينما هو لا يكفّ عن أن يضمحلّ ويضمر ويغدو شبحًا يكاد يتلاشى، بفعل تضخُّم إنسان آخر؛ جسد يعتاش على غرائز الأرض والرُّعب من السَّماء في آن؟!

كيف أنجو من حرب شرع زملائي المدرّسون في شنّها ضدّي منذ الأسبوع الأوّل لدوامي، لأنَّني لست مثلهم: لا أصلّي معهم، فلا أقدّم إلى التّلاميذ المثالَ والقدوة الحسنة، ولا أمارس هداية هؤلاء الطُّلَّاب إلى الصراط المستقيم، ولا أتلو عليهم قصصَ عذاب الآخرة لعلَّهم يَصلحون. كيف أتكيَّف مع هذا الواقع؟ كيف أتكيَّف مع أبي؟ كيف أنسى عائشة؟ كيف أتكيَّف مع هذه المدينة التي تحيا على قارعة الصحراء، تقرأ، وتعيد

في كلّ يوم قراءةَ الرّمال خشية أن تنسى ما خطّته هذه الرّمال في الأمس. مدينة ترعى الأوهام وتعيد ولادتها من دون أن تلد في يوم ولو غيمةً. أنظر إلى السَّماء ولا أرى ولو غمامةً واحدة. أحنّ إلى المطر، إلى قطرات تتدفّق من السَّماء أعثر فيها على ضوضاء بحر؛ قطرات أحلّلها بحثًا عن رائحة موج أنسج منها قصيدة وحلمًا بالإبحار بعيدًا إلى عالم آخر.

❖❖❖

اللَّيلة الثَّامنة

لست أدري كيف سأنام. قرأت في كتاب «أسطورة سيزيف» لكامو: «العيش ليس سهلًا، فأنت تستمرّ في أداء الحركة التي يأمر بها الوجود لأسباب عديدة، أوَّلها العادة. والموت طوعًا يتضمَّن أنَّك قد أدركت، حتَّى غريزيًّا، صفةَ تلك العادة المضحكة، وعدم وجود أيّ سبب عميق للعيش، الصفة اللَّاعاقلة لذلك الدأب اليوميّ، ولاجدوى العذاب».

أغلقت الكتاب وأطفأت الضوء لأنام.

كان أحمد يعشقها ويستثمر أيّ فرصة للحديث عنها كما لو أنَّها ليست زوجتَه التي يعود إليها في آخر النهار، بل امرأةٌ بعيدة ليست في متناول اليد. ثمَّة رعب يعيش معه وينهشه على مدار الدقيقة: أن تهجره، فيعود ذات يوم ولا يجدها في بيته. لكنَّه في نهاية المطاف أدرك لاجدوى العذاب.

يمرّ الوقت بثقل وبطء. أصغيت إلى الأصوات المتسلِّلة عبر شقوق الباب من الشارع، هاربًا من التَّفكير في مبلغ الدِّينار ونصف الدِّينار المتبقّي في جيبي، ولست أدري كيف سأحيا بعد أن ينفد غدًا.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ثمَّ تدهم هي مخيِّلتي. أراها تجلس قبالتي وتصغي إليَّ والنَّسماتُ تعبث بين الحين والآخر بحجارة الشارع السَّوداء، فتتماوج ويغدو الشارع نهرًا، مثلما تغدو كأس الشاي أمامي نبيذًا.

لم تكن فرصة التَّعرُّف إليها قد أتيحت لي في أثناء معرفتي بأحمد. كنت رأيتها فقط مرَّة واحدة من الخلف. كانت تركته قبل دقائق من وصولي إلى متجر الخضار. كانت تحمل كيسًا بيد وباليد الأخرى تقود طفلها الأصغر، بينما يمشي الطفل الأكبر إلى جانبها الآخر. تمشي ببطء بما يناسب مشيَ الطفلين. شعرها أسود طويل يتدلَّى على ظهرها مربوطًا. طويلة وممشوقة الجسد، ترتدي بنطلون جينز فوقه قميصٌ أزرق بلون السَّماء. وعلى نحو غريب، بعث ابتعادها في نفسي شحوبًا حزينًا. تمنَّيت لو تعود وأراها وأتعرَّف إليها. لسعتني هذه الرَّغبة كأنَّها أفعى، وشعرت بشيء يشبه السّمّ يجري في دمي، ويحوِّله إلى سائل مُرّ ينشر المرارة في كياني: ربَّما لو عادت هذه المرأة وتعرَّفت إليها، ونظرت إلى وجهها، وسمعت صوتها، لامتلكتُ حتمًا المسوّغات التي ستجعلني أحبّها، مثلما يحبّها أحمد.

إنَّني إنسان تافه ووضيع الأخلاق، وهذه الوضاعة ترعبني. لكنَّني أغار منه، من حبّه لها، ومن امتلاكه إيَّاها.

«أأُناديها لأعرِّفكَ إليها وإلى الطفلين؟» سألني أحمد بحماسة، وألمّ بي هلعٌ شديد نتيجة السُّؤال. فسارعت إلى الرَّفض، متذرِّعًا بعدم الرّغبة في إزعاجها.

وانتابني إحساسٌ بالنَّدم لأنَّني تسرَّعت في الرَّفض. فالكلمات التي نقولها ليست تمامًا ما نريد قوله. والأفعال التي نقترفها ليست تمامًا الأفعالَ التي نريد. والطريق الذي نسلكه ليس تمامًا الطريقَ الذي نريد. والمظهر الذي نبدو فيه ليس تمامًا المظهرَ الذي نريد. كلّ شيء يبدو شبيهًا بما نريد، لكنَّه ليس هو. هل نحن نحن، أم نحن نشبهنا فحسب؟

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

لا أدري... لكن «أنا» ما في داخلي، لا تريد التَّعرُّف إلى هذه المرأة، ولا ورؤيتَها وجهًا لوجه، ولا سماعَ صوتها. إنَّ رفيف هذه المفردات ـ التَّعرُّفِ إليها، صوتِها، وجهِها ـ كان يبعث في قلبي فزعًا غامضًا.

سألته إن كانت لا تزال تغنّي وهي تنظّف البيت، فأجابني بتهكُّم:

ـ إنَّها الآن تنظِّف وهي تشعر بالخوف، فالجوّ مشبَع بالكوارث المفاجئة. وما بين اللَّحظة والأخرى، تتوقَّع انفجار إحداها. تخشى أن تضع آنيَة في غير مكانها، فيطير عقل أمّي. وتخشى أن تمرّ على غبار فلا تنظِّفَه لأنَّ أمّي تمرّ بيدها على كلّ شيء، فاحصةً دقَّةَ النظافة. وتخشى أن تزيد الملح في الطعام، أو أن تسهو عن إضافة بهارات ما، فلا يعجب الطعامُ أمّي. إنَّه عقاب مستمرّ على مدار الدقيقة، كأنَّ أمّي تنتقم منها. أخشى أن تثور في لحظة، وتترك كلّ شيء وتهرب. وصدِّقني، فأنا لن أدينها، فما تحتمله لا يحتمله إنسان: ديونٌ هائلة، وفقر، وزوج يائس لا تراه إلّا في آخر اللَّيل قادمًا من محل بيع الخضار معفَّرًا بالأوساخ، وغرفة صغيرة مسجونة فيها مع طفلين جائعين، وفوق هذا كلِّه أمّي. ومع ذلك، تشكو أمّي منها إلى جاراتها، كما لو أنَّها هي الضحيَّةُ. والجارات يصدِّقنها. لست أدري كيف تتحصَّن من عذابات الضَّمير؟

ذكَّرني كلامه بعائشة التي كانت تنظّف البيت وتستهلك الموادّ التموينيَّة، بلا قلق من النار التي تشتعل في أحشاء أبي. ذكَّرني بأبي الذي سرقها وظلّ يشكو من تبذيرها ملعقةَ سكَّر إضافيَّةً، حتَّى ليصدِّق من يسمعه أنَّه فعلًا ضحيَّتُها، ولاسيَّما حينما يراها لا تتوقَّف عن الأكل والشرب.

بدا لي أنَّ أبي وأمَّ أحمد هما الشخصُ ذاته. أظنّ أنَّهما يصدِّقان فعلًا أنَّهما ضحيَّتان، ويتحدَّثان عن ذلك بإيمان عميق يثير تعاطف المستمع إليهما.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

إنَّه الانحياز الحقير إلى الذات، والذي لا يعترف بقسوة الأنا تجاه الآخرين، بل لا يجد فيها قسوة، لأنَّ هذه الذَّات ترى نفسها بريئة، وعلى حقّ. لماذا هي على حقّ؟ لماذا ترى الأنا ذاتها بريئة؟ لأنَّها تريد أن تعيش، وهذه الإرادة تمنحها الحقّ في انتزاع فرصتها في العيش. وإذا حدث تناقض بين هذه الرَّغبة في انتزاع حقّ العيش وبين الآخر الذي ينافسها في هذا الحقّ، فإنَّها لا تتوانى عن سحقه إن تطلَّب الأمر، غير أنَّها تلجأ في أثناء ذلك إلى رسم صورة لذاتها تتَّسم بالصّفات غير المختلَف عليها، كي تبرّر قسوتها. الصّفات التي يسمُّونها إنسانيَّة.

خطر لي أنَّ الإنسانيَّة المرتبطة في أذهاننا بالخير والفضيلة، مفهوم لا وجود له إلَّا في اللُّغة فحسب. إنَّها وشاح كلام مخمليّ، يطيب لنا التدثُّر به، بعد أن نطرّزه بظلال ومعانٍ سامية. أمَّا المعنى الحقيقيّ لهذا المصطلح، فهو ما نصطدم به في الواقع يوميًّا. إنَّه ليس تلك الصُّورة التي تحيا في الخيال، بل هو الفعل الإنسانيّ ذاته، بقسوته وأنانيَّته. لكن يطيب لنا أن نتعامل مع الصُّور، لجمالها. صُوَر تطفو على السَّطح، وتواري تحتها الحقيقةَ، بحيث يغلي صراعٌ شرسٌ بين ذوات، كلٌّ منها يريد أن يحافظ على حقّه في الحياة، ولا يتوانى عن تدمير الآخر في أثناء ذلك، إن شعر بالقوَّة. صراع يلتهب في الأسفل، وصراع ساكن على السطح، كالكهرباء السَّاكنة، بين الحقيقة والصُّورة، بين اللُّغة والفعل.

عبَّرت لأحمد عن تعاطفي الشديد معه، وأسفي لأنَّني عاجز عن تقديم أيّ مساعدة. فشدَّ على يدي ضاحكًا: «كم يؤسفني أنَّك فقير أيضًا يا صديقي».

لم ينفكّ عشق أحمد لزوجته يُدهشني، ويوقظ فيَّ أَلَمَ الحاجة إلى الحبّ. أحسده. فعلى الرَّغم من أنَّ قلبه مثقل بالآلام، وعلى الرَّغم من

عذاباته المصيريَّة، فقد كان كلّ ذلك يجعله، في نظري، إنسانًا حيًّا يضجُّ بالحياة. حتَّى تعاستُه الناتجة، في الدَّرجة الأولى، من رعبه من خسارة زوجته، كانت تكتسي قدسيَّة ما، وهي تصل به إلى أقاصي الألم، إلى تخوم الإنسان، ذاك الذي لا نعرف كيف نكونه... لا أعرف أنا كيف أكونه.

في عذابات أحمد وفي عشقه، في ذلك المدى، الذي نعوز الكثير من الخيال كي نسمع صفير رياحه، كان يتراءى لي المعنى. كنت أقول لنفسي: أريد عشقًا كهذا يمنح وجودي أنا تحديدًا، معنًى ما. أريد امرأة تغنِّي، وتشبه الموسيقى، أطرب إليها، فتغدو الحياة شأنًا قابلا للاحتمال. أين هي؟

تركته وأنا أُقنع نفسي، مرَّة أخرى، بأنَّ الحبّ هو التَّعبير الرومانسيّ الخادع عن الجنس. قلت في سرِّي: لو كانت القطط تمتلك لغة، لنَظَمَتْ أجمل قصائد الوجد في شهر شباط.

لكنَّ الوهم أبى أن يذعن لظلام الحقيقة، وظلَّ يراوغني ببريقه الأخَّاذ.

تخيَّلت في اللَّيل، أحمدَ يحتضن زوجته. تخيَّلت همسهما وضحكاتهما المكبوتة، ومداعباتهما. تخيَّلت أنَّهما يمارسان الحبّ لا الجنس. كيف يمارس الرجل الحبّ مع المرأة؟ لا أدري. لكنَّ الحرمان مزَّقني، والغيرةَ أيضًا. غيرة تُشعرني بالتقزُّز من نفسي، لكنَّها لا تزول. أشعر بأثر تلك اللَّسعة يتَّسع ويلتهب. أنا أيضًا أريد قلبًا ضاحكًا وحنونًا. أنا أيضًا أريد جسدًا دافئًا يحضنني ويمسح عن روحي أساها، ويبعث في وجودي الفرحَ، ويردّ إليَّ حكمتي التي سلبتها عائشة.

وجدت نفسي، كما لو في السّرّ عن نفسي، أحلم بامرأة طويلة وممشوقة، شعرها أسود متموِّج. أحلم بها هي. تصوَّرت ذلك الجسد، ولفيتُني أعيش

معه لحظات حميمة وأنا مستلقٍ في فراشي، أغرق في خيالات مشتعلة تدكّ ركائز العتمة وتنسفها، محيلةً إيَّاها إلى بحر عاصف من النشوة.

كانت نشوة قصيرة وسريعة، سرعان ما هدأ البحر بعدها وسكن، واستعاد لونَ ظلمته السَّوداء، التي تقطر حزنًا وغربة، وتغمرني لحظةً في إثر أخرى، إلى أن غفوت وقلبي مثخن بغبار وحدته.

أريد أن أصدِّق الكذبة الجميلة، التي تجعلني أحلم بالحبّ. يحدوني أمل في أنّ طعمه المتخيَّل العذبَ سيشفيني من مرارة الحقيقة، تلك التي لها في ذاكرتي وجهٌ وحيد: وجهُ عائشة. أريد أن أقف على سفح وهمي الجميل، فاتحًا يديَّ كي أحضن الرياح، حالمًا بامرأةٍ تجتاحني مثلَ فكرة تدخل، على حين غفلة، من النافذة وتوقظني من النوم؛ مثلَ حديث حميم يدعوني بعده إلى صمت طويل كمن يتأمَّل شجرة لوز مزهرة؛ مثلَ موسيقى تنبعث من قلب هذا الكون في مساءٍ باردٍ يذكِّرك بالطفولة وبتلال بعيدة تصبو إلى العَدْوِ فيها، فتخشع وتنتابك رغبة في الصلاة، كأنَّك أدركت السرَّ فجأة؛ مثلَ شمس وريح وقمر وليل ونهار. أريد امرأةً تحرِّر رقبتي من سيف العدم. أريد امرأةً تهبني تأويلاتٍ جديدةً لكلّ الإشارات وكلّ المعاني القديمة.

لم أدرِ أين هي، لكنَّني كنت أمشي في الشارع متلفِّتًا حولي لعلَّ نظري يقع عليها. ثمَّ أسترسل طويلًا في المشي ومراقبة الأشياء وهي تسترسل في الإياب: النَّهار وأناسه، ومسافات المدينة، والشمس التي تسترسل في السُّقوط لحظةً في إثر لحظة، بصمت وبلا دويٍّ، في الغرب؛ مثل خطوات غريب متعب، بيد أنَّه لا يفتأ يسترسل في الطريق، منتظرًا أن يصادفها.

كنت أصادف في طريقي عجوزَ الحانة أحيانًا، فيرتِّل على سمعي مأساةَ هذا الكون بكلمات أخرى: الحرب التي لا تنتهي. حرب تنزف من

دون أن أعرف أنا، أو يعرف هو، أو يعرف أحد، غايتَها. «أريد أن أحبّ امرأة. أريد امرأة تحبّني»، قلت له ذات مرّة، فراح يضحك. «أتسخر منّي؟» سألته، فقال:

ـ لا... لكنَّني أشعر الآن بالأسف الشديد لأنَّني رجل. وينقصني الجمال، وفوق ذلك مسنّ!

فضحكت وسألته:

ـ هل جرّبت الحبّ يومًا؟

ـ أجل، كانت أجمل امرأة على وجه هذه الأرض، لكنّه كان حبًّا من طرف واحد، لغاية اللَّحظة لا أعرف كيف أُشفى منه.

كنت أدرك أنَّه يقصد الحياة، مثلما أقصدها أنا.

❖❖❖

كان مازن يحيا على الضفَّة الأخرى المقابلة لضفَّة أحمد. أمَّا أنا، فكنت أسيل في النهر بينهما، في انتظار أن يحملني التيَّار إلى غاية ما، إلى معنًى ما.

لم يكن هناك سؤال واحد من الأسئلة التي تعذّبني، تؤرّق مازنًا. بيد أنَّني، في الوقت ذاته، لم أكن أستطيع أن أعثر له على وجه. إنَّه مؤمن باللَّـه ويدافع عنه، وفي الوقت ذاته ملحد لا تخذله الحجج إن أراد. يُدين الرأسماليَّة، وينتقدها، وينتقد مالك المصنع الذي يعمل فيه بسبب جشعه، ويرفض في الوقت ذاته التوقيع على عريضة تقدَّم بها العمال من أجل رفع رواتبهم. إنَّ الحياة تستوي معه على نحو لا أفهمه. يسير في المسرب الذي خطَّه لنفسه من دون أن يدخل في صراع مع أحد. فهو يحافظ على علاقة جيّدة مع الجميع تحت عنوان: من قبيل الاحتياط. وكانت تندرج في

هذا السّياق علاقتُه باللّـه أيضًا. يصلّي في يوم الجمعة مع أبيه من قبيل الاحتياط. ويناقش الدِّين بحرِّيَّة من قبيل الاحتياط. وينتقد الرأسماليَّة من قبيل الاحتياط، ويقف في صفِّها من قبيل الاحتياط. ويسكر معي ومع أحمد من قبيلِ الاحتياط.

كانت حياته تمضي على شاكلة المعادلات الرّياضيَّة. معادلات، كلُّ مجاهيلها وأسئلتها قابلةٌ للحلّ، ما دام الإنسان يعرف وجهته، وإلى أين يريد أن يصل. وكان يعرف إلى أين يريد أن يصل: إلى موقع مهمّ في مجال عمله، وأن يمتلك شقَّة في عمّان، فيعمل ساعات إضافيَّة، ويدّخر من أجلها النقود؛ وأن يتزوَّج من فتاة جميلة، لا بأس إن اختارتها أمّه، إن لم ينجح في مصادفتها في طرقاته. كان يريد أن يكون إنسانًا سعيدًا، وكانت سعادته تتمثَّل في تحقيق ذلك كلِّه. وبالطبع، فإنَّ كلّ شيء لديه كان يسير في هذا الاتِّجاه، وخصوصًا أنَّه لم يكن مستعدًّا لأن يخوض صراعات مجانيَّة لا تخدم مشاريع حياته. يقول إنَّ هذا العالم كلّه مزيّف، ومن الحماقة بمكان الدخول معه في صراع من أجلِ حقيقة ما، لست على يقين منها، فتبذِّر حياتك بالتالي عبثًا. إنَّه الابن الأمثل الذي يحلم به أبي. طبيعيٌّ مثل سائر خلق اللّـه الطبيعيِّين. لكنَّه نوع آخر من الناس الطبيعيِّين، الذين يعيشون هذه الحياة بسهولة مثيرة للحسد، قافزين عن عثراتها بخفة الكذب.

أمَّا أوجاع قلبه وجسده، فكان يحلّها مع عاهرة مغرم بطريقتها في ممارسة الجنس. يستثيره كلامها البذيء والوقح والفجّ، والذي تهمس به في أذنيه. يذهب إليها مرَّة كلّ أسبوع ويعود ضاحكًا ومبتهجًا من قدرتها، في كلّ مرَّة، على ابتداع بذاءات جديدة.

اقتادني ذات مرَّة إليها حينما سمعني أشكو من حاجتي إلى الحبّ. كانت شقَّتها في تسوية عمارة قديمة متهالكة. انحدرنا إليها بدرج جارَ عليه

الزَّمن وهشَّم بلاطه، وساندتْه في ذلك الحشراتُ والقوارض التي حفرت زواياه. وكنت كلَّما انحدرت درجة شعرت بالهواء يزداد ثقلًا، ليس فقط من رائحة الرطوبة المنبعثة من الأسفل، بل أيضًا بسبب أصوات أطفال كانت تعلو كلَّما انحدرنا. لم أفهم ماذا يفعل الأطفال في مكان كهذا.

حينما وصلنا إلى أسفل الدرج، وطَرَقَ مازن بابًا حديديًا صدئًا انتصب إلى يميننا، فوجئت، على الرَّغم من سماعي أصواتَ الأطفال، بطفل في عمر الثامنة تقريبًا يفتح لنا الباب. لم يقل شيئًا، ولم يسألنا عن شيء، بل فتح الباب ومضى يكمل اللَّعب مع طفل وطفلة. كان هو أكبرَهما، وكانت أصغرهما طفلة في الثالثة أو الرَّابعة. كانوا يلعبون في ساحة صغيرة أمام البيت مرصوفة بالإسمنت، تملأ جوانبَها بعضُ قطع الأثاث العتيقة. وكانت الأحشاء الإسفنجيَّة في بعض الكراسيّ نافرةً إلى الخارج، والطفلةُ الصغيرة تمدّ يدَها، كأنَّما تسبر أغوار الحضيض، لتستخرج المزيد من تلك الأحشاء وتتسلَّى بتمزيقها.

خرجت إلى هذه السَّاحة امرأةٌ في الثلاثينيَّات من عمرها، أغلقت باب الحديد، وأمرت أطفالها بأن يستمرُّوا في اللَّعب، وكانوا مستمرِّين من دون أن ينتبهوا لأوامرها. قالت لنا: «تَفضَّلا». دخلنا عبر باب خشبيّ قديم غرفةً صغيرة إضاءتُها شاحبةٌ، ومفروشةً بطقم كنب، نُجِّد فرشه حديثًا. سألت مازنًا: «كلاكما؟» فأجابها مازن: «بل صديقي وحده. أريدك اليوم أن تتفرَّغي له وتبسطيه، فقد كان متشكِّكًا وهو ينزل السُّلم، لكنَّني قلت له إن ثمَّة مفاجآَت في الأسفل».

ضحكتْ بغنج، وأجابته وهي تنظر إليّ بلهجة يشوبها الفخر: «لن أكذِّبك».

لكنَّها اشترطت أن أدفع سلفًا. ثمَّ جرَّتني من يدي إلى غرفة نوم فيها سريرٌ حديديٌّ كبير وأغلقت الباب وقالت: «يظنّ كثيرون أنَّ الطعام شهيّ

أكثر في المطاعم الفاخرة، لكنّك قد تجد ما هو ألذُّ منه كثيرًا في مطاعم فقيرة في وسط البلد». ثمَّ أمرتني: اخلع ملابسك كلَّها، لا أحبّ أن يبقى شيء من الملابس على جسد الزبون.

قالت ذلك وهي تخلع ملابسها، ورحت أخلع ملابسي وأنا أحاول أن أُبعد من خيالي مشهدَ طفلتها الصَّغيرة التي لم تُولِ حضورَنا اهتمامًا، وظلّت مستمرَّة في سبر أغوار المقعد القديم وتمزيق أحشائه. انقطع هذا المشهد للحظة، حينما دفعتني، وهي بكامل عريها، لأستلقي على السَّرير، وإذ ذاك شرعت نوابضه الحديديَّة تصرّ، وخُيِّل إليّ أنَّ الأطفال يسمعون صريره، وأعاقني ذلك عن التَّركيز في محاولاتها إثارتي. بيد أنَّها، وما إن راحت تتلفَّظ بكلمات جنسيَّة بذيئة لم أسمعها من امرأة من قبل، حتَّى استثارت وحشًا متردِّدًا في داخلي. ولم أعد أعبأ بصرير نوابض السَّرير، ولم يعد يُقلقني سماعُ الأطفال هديرَ رغبتينا، بل إنَّ ذلك رماني لسبب غريب، في حمَّى هيجان جنونيّ، وتفجَّرت قواي وأنا أعتصرها وأغرق في لذَّة جشعة ومستوحشة. وأثار ذلك إعجابها، وانهمكت أكثر في وصف ما يحدث بيننا بواقعيَّته ومسمَّياته، من دون أيِّ مجازات أو شاعريَّة. وبدا لي ذلك في غاية الروعة، وفجّر فيّ ينابيعَ لذَّة خفيَّة، متحرِّرة من أوهام الحبّ. كنت أراها أحيانًا، كما رأيت نساء أخريات: بوجه عائشة. وكان ذلك يعوِّقني للحظات عن بلوغ النشوة، فأغمض عينيّ وأحاول استحضار وجوه أخرى. أحاول استحضار وجه محدَّد، يمرُّ في خيالي ضبابيًّا، مجهولَ الملامح، لم أرَه في حياتي، لكنّني أعرفه.

وكانت المرأة مستمرَّة في الهمس بكلماتها، ورحت أردّ عليها باللُّغة ذاتها، ووجدت نفسي في ليل آخر مظلم، وبدا لي أنَّ السَّرير سيتحطَّم تحتنا، مثلما ستتحطَّم عظامها وأنا أمزّق أحشاءها، وهي لا تكفّ عن أن تتأوَّه وتزداد

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

في كلّ لحظة بذاءةً، وتأخذني إلى أماكن تتفسّخ فيها الأوهام، ويتحوّل العالم إلى نشوة رائعة تغلي وسط بركان الحقيقة.

كنت أشعر بنفسي منهك القوى عندما خرجنا، كأنَّ تلك المرأة كانت تعبث بدواخلي وتستخرج روحي وتمزِّقها وتلتهمها باعثة فيّ نشوةً رهيبة، محرِّرة تلك الرَّغبات الوحشيَّة، الكامنة في أقصى المناطق ظلمة في هذا الجسد، من ظلامها. بدت لي عائشة أخرى.

حينما خرجنا من ذلك البيت، أجبت عن تحقيقات مازن بشأن نوعيَّة الخدمة باقتضاب، وتفاجأ إذ قلت له إنَّني لا أريد العودة إلى هذا المكان. وسأل باستغراب: «ألم تعجبك المرأة؟». قلت: «أشعر كما لو أنَّها انتزعت منّي بلسانها لذَّةً جسديَّة مؤلمة». فسارع إلى الردّ بسعادة كأنَّني قدَّمت اعترافًا ينتظره: «ألستَ أنت من لا يكفّ عن أن يؤكّد أن لا لذَّة سوى لذَّة الجسد؟»

ـ أجل، لكنَّها عاهرة وبذيئة جدًّا.

«أتوقعتَ أن تجدها عاهرة شاعرة مثلًا؟» سأل ضاحكًا، وضحكت معه.

غير أنَّني رحت أفيق شيئًا فشيئًا، كما لو من صدمة، وانطلق لساني يحدِّث مازنًا عن انطباعاتي، وعن الطريقة التي استثارتني بها تلك المرأةُ العاهرة بامتياز. جرَّني معه في نهاية الأسبوع التالي إلى البيت ذاته.

كان الجوّ غائمًا وباردًا، فجلست أنتظره في غرفة المعيشة مع الأطفال، ريثما يحين دوري. كانوا يجلسون على الأرض المغطَّاة بسجادة قديمة، إلى جانبهم مدفأةُ غاز مشتعلة، يشاهدون أفلام كرتون، وكلٌّ منهم يمسك بكسرة خبز في يده ويقضمها. وكانت الطفلة الصَّغيرة تفتفت قطعة الخبز بيديها، قبل أن تأكلها. لم يكن أيّ منهم يعبأ بوجودي، أنا الرجل الغريب

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

الذي يجلس معهم في الغرفة، فيتصرَّفون كما لو أنَّ مكاني فارغ. استبدَّ بي خجل شديد، وودِدتُ لو أختفي، ليس من هذا المكان، بل من هذا العالم. وحينما راح يتناهى إلينا من الغرفة المجاورة صريرُ السرير، لم تبدر أيُّ ردَّة فعل من أيٍّ منهم، بل ازداد جمودهم وتسمُّرُهم وصمتهم أمام الشاشة، كأنَّهم لا يسمعون شيئًا. حاولت أن آخذ جهاز التحكُّم عن بعد، من يد أوسطهم في العمر، كي أرفع صوت التّلفاز، لكنَّه تمسَّك به بقوَّة ورفض أن يعطيني إيَّاه، وهو يرمقني بنظرات حاقدة، من دون أن يتفوَّه بكلمة. تعالى ضجيج السَّرير واهتزازُه، وطحنَ فراغات الهواء التي يعمّها الصَّمت، فبات لها طعمُ الخراب، والأطفال يغرقون في صمتهم وسكونهم وعيونُهم محدّقة في التّلفاز. ثمَّ أخذت الطفلة الصَّغيرة قطعة الخبز من يد أخيها، فنهرها، وتمنَّيت لو تبكي أو تصرخ، لكنَّها ظلَّت ساكتة، وظلَّ صرير السَّرير واهتزازاتُه تتسارع وتزاحم أصوات أبطال الكرتون الطفوليَّة، وتنتصر عليها وعلى رنين دهشتها. نهضت من مكاني ووقفت أتأمَّل لوحة لمنظر طبيعيّ بألوان زاهيَّة معلَّقة على الحائط، باحثًا عن ملاذ من هذا المرور البطيء والثقيل للزَّمن، حيث تهترئ الأحلام والأوهام، وتترعرع الحقيقة والندم. لم أعد أطيق سماع اللّهاث والصَّرير، ولا صوت الأرانب التي تتقافز على الشاشة وتغنِّي ببهجة تافهة. اتَّجهت مسرعًا إلى النافذة على أمل أن ألمح في العتمة خلفها، مظهرًا آخر للحياة، فلمحتُ في النافذة انعكاسَ صورتي وصورة أطفال جالسين على الأرضِ كتماثيل صغيرة تراقب بجمود أرانبَ سعيدة تتقافز وتغنِّي وسط حقل أخضر. لم يكن هذا المشهد سوى تجريدٍ حيٍّ للألم والانحطاط. تفاقم إحساسي بالغثيان، والاختناق، والقرف، فقد بات للهواء طعمُ الخطيئة في فمي، وشعرت بحاجة ماسَّة، في الحال، إلى هواء آخر وضوضاء أخرى، ووجوه أطفال آخرين، وإلَّا فقد كنت على يقين بأنَّني سأختنق في هذه الغرفة وسأموت. هرعت إلى الباب وخرجت، ووقفت في السَّاحة المعتمة أمامه. كان المطر قد بدأ يهطل

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

رذاذًا، وبات الجوُّ أشدَّ برودةً. انتظرت عشر دقائق، بدت كدهر، وأنا أتجمَّد من البرد وأبتلُّ بالمطر، لكنِّي كنت مستعدًّا لأن أتحمَّل عاصفة ثلجيَّة على أن أعود إلى تلك الغرفة حيث الأطفال. لعنت مازنًا مرارًا في داخلي، وفكَّرت في أن أتَّصل به كي يُنهي متعته بسرعة، لكنَّني تراجعت واكتفيت بانتظاره ولعنه، وأنا واقف في زاوية تحت السَّماء الملبَّدة بالأسى، وحيدًا، أُنصت إلى الصَّمت وخواء العتمة، وأبتلُّ بالمطر، كأيِّ غريب يعرف سواد الطريق تمامًا، لكنَّها مع ذلك لا تفتأ تصعقه وتخذل آماله.

ما إن خرج مازن حتَّى تنفَّست الصُّعداء وسبقته بخطاي ووقفت أنتظره عند سيَّارته، كي نبتعد عن هذا المكان في أسرع وقت. كان سعيدًا، وكنت أنا صامتًا. وبقيت صامتًا حتَّى وصلنا إلى الحانة، وهناك أيضًا لم يتفكَّك جمود لساني، وخصوصًا بعد أن اتَّصل مازن بأحمد، ودعاه، فاعتذر الأخير بسبب مشكلة جديدة نشبت بين أمه وزوجته.

أشعلتُ سيجارة وفي ذهني تطوف وجوه أطفال جامدة بلا مشاعر، تراقب الأرانب السَّعيدة، بينما صرير سرير أمِّهم يدوّي في خواء نظراتهم. في المشهد أيضًا رأيت طفلَي أحمد المرتجفَين بردًا، وأمَّه التي تعاقب زوجته لاضطرارها إلى أخذ بعض الوقود من مخزون أهله، كي تشعل المدفأة.

كنَّا، أنا ومازن، نشرب بصمت، والمطر يهطل في الخارج بقوَّة، وكان وجهي واجمًا. أثار صمتُنا ووجومنا استغرابَ مالك الحانة، فسألنا عن الخطب، فأجابه مازن بأنَّ المشكلة في النساء، وأنَّني ذهبت اليوم برفقته إلى بيت فلانة، لكنَّني عدت خالي الوفاض «لسبب أجهله». كنَّا أحيانًا نتبادل مع مالك الحانة أحاديثَ من هذا القبيل، تُفضي بنا دومًا إلى الضحك؛ أحاديثَ عن النساء، تستفزّ خيال مالك الحانة، فيروي بطولات أشكّ في حدوثها، ويروي كلّ منَّا، ما يحفل به تاريخه في هذا المجال من مغامرات.

لكنَّني ما إن سمعت مازنًا يقول «لسبب أجهله»، حتَّى انفجرت ورحت أتحدَّث بانفعال عن أطفال المرأة الذين رآهم سابقًا قبلي في أثناء زياراته المتكرِّرة لها من دون أن يحرِّكوا شيئًا في قلبه أو ضميره، فردّ بانفعال أيضًا:

ـ اعتقدتُ أنَّ هذا المكان يتَّسم بالمواصفات التي تبرهن على آرائك بشأن الإنسان: ثمَّة جسدٌ يريد أن يعيش ويُطعم أطفاله، وأجسادٌ صغيرة تريد أن تأكل، فيمارس البغي مع آخرين يحتاجون إلى الجنس، وهكذا.

فسألته بنبرة محتدَّة: ألهذا السبب أخذتني إلى هناك؟

ـ أخذتك إلى هناك لأنَّ المرأة ماهرة في الجنس!

ـ ألم يؤثِّر فيك مشهد الأطفال؟

ـ العالم مليء بالأطفال الأشقياء، وقد أنتحر إذا انتبهت لشقاء كلّ واحد منهم. لهذا لا أنتبه، وخصوصًا أنَّني لست المسؤول عن هذا الشقاء.

ـ لست أدري من الذي يؤكِّد رؤيتي لهذه الحياة أكثر: أنت أم هذه المرأة وأطفالها؟ أظنّ أنَّك تصلح أكثر. إنَّ ذاتيَّتك لَمدهشةٌ ومرعبة. أنت وغد وأناني ومنحطّ وتافه.

وجدت نفسي فجأة مستفزًّا للغاية منه ومن عدم رؤيته للأطفال أو عدم اكتراثه لهم؛ من صَلاته مع مديره ومع أبيه؛ من مواعيده المضبوطة، وعدم تأخُّره في يوم عن العمل، أو عن موعد النوم؛ من الأرقام الجامدة بلا نبض والتي تتشكَّل منها حياتُه من دون أن تتخلَّلها جملة معترضة واحدة توحي بالألم أو بالخيبة أو بالفشل أو بالضعف... شيء ما يذكِّر بالإنسان. أصغى مازن إلى سيل مآخذي عليه صامتًا من شدَّة دهشته وغضبه. عدنا إلى البيت في تلك اللَّيلة كلّ على حدَّة: ركب هو سيَّارته بسرعة، وعدت

أنا وحيدًا سيرًا على قدميَّ تحت المطر. أمشي ذابلًا كمن يسير في جنازة. أصغي إلى موسيقى الدُّموع المنهمرة من السَّماء بلا انقطاع، كأنَّني أُصغي إلى قصيدة عن شيء ما يشبه الندم.

❖❖❖❖

ظلَّ مازن منزعجًا منِّي ولا يكاد يردّ تحيَّة الصَّباح. وكان في المساء يتجنَّب الحديث معي. ولم يجلب على مدار يومين شيئًا من الطعام إلى البيت، وظلَّت الثلاجة فارغة، ومعدتي أيضًا. لكن، ليس هذا هو السَّبب الذي دفعني إلى الاعتذار منه، وتبرير شتائمي، بل صداقتُنا كما أكَّدت له.

مررت في يوم الخميس بأحمد في متجر الخضار. لقد بات خبيرًا بصفِّ حبَّات البندورة والبطاطا في واجهة العرض فلا تسقط، لكنَّ يديه ترتجفان وهما تصفّان الخضار.

سألته عن أخباره فحدَّثني عن زوجته: «ما زالت صامتة، لكنَّها ذهبت اليوم في زيارتها التقليديَّة لبيت أهلها في عمّان»، وأضاف أنَّه كلَّما ذهبت يلمُّ به رعب ألّا تعود.

أراها في خيالي تمشي مبتعدة وتغوص في الغياب. يفتك بي ألم غامض واحتقار للذَّات في الآن نفسه.

دعوته إلى أن نلتقي مساءً في الحانة، فوافق، لكنَّه جاء متأخِّرًا. حدَّثت مازنًا، في أثناء انتظاره، عن الأفكار التي تراودني بتأليف كتاب، وأنَّ هذه الفكرة تلحّ عليّ كلَّما دخلت المرحاض، فمعظم الأفكار المهمةّ تأتيني في أثناء تعصُّري فيه، كأنَّ الأفكار في معدتي. واسترسلتُ أحدِّثه وهو يضحك: كتاب، سأسمّيه «تغوط»، إذ يبدو لي أنَّنا نعيش في بطن عالم تافه، ونتعفَّن فيه، وخصوصًا نحن الفقراء، الذين أغوانا العقل بأوهامه، «نحن الذين تشكّل الثقافة لهم، صرخةً في وجه قدرهم»، كما يقول ألبير كامو. قلت إنَّ خلاصنا

الوحيد، ليس التشبُّث بالوهم، بل هو الموت، وإنَّ هذا الموت هو عبارة عن تشنُّجات تصيب هذا البطن، نعاني نحن آلامها وعذاباتها ـ تشنُّجات يسمِّيها عجوز الحانة حربًا ـ إلى أن نخرج من مؤخرّة هذا العالم، لتتعفَّن أجسادنا في بطن الأرض. إنَّنا مادَّة للعفن ليس إلَّا. وناقشني مازن، من دون أن يحمل كلامي على محمل الجدّ، عمّا إذا كان الكتاب رمزيًّا أدبيًّا، أم فكريًّا، فقلت إنَّه سيكون على شاكلة تأمُّلات فكريَّة بصيغة أدبيَّة، لكنَّ اللُّغة فيه ستكون بذيئة كلغة تلك العاهرة، والصُّور الفنِّيَّة خرائيَّة، لأنَّ كلّ الأفكار والأحداث التي ستجري فيه ستحدث في المرحاض. ربَّما تكون رواية عن شخص مصاب بالإمساك ويعاني، ويتخيَّل حجم الخراء الذي يتعفَّن في داخله، ويتخيَّل نفسه في الوقت ذاته، خراءً يتعفَّن في بطن كبير لوحشٍ اسمه العالم، وينتظر لحظة خروجه من جسد هذا الوحش، مثلما يخرج الخراء من جسده هو.

ضحك مازن كثيرًا. ثمَّ جاء أحمد ببذلته وربطة عنقه. يا له من معذَّب مهتمّ بأناقته. إنَّ ذلك يُضحكني. أنظر إليه وأنفجر في الضحك. أخبره مازن بطموحاتي الإبداعيَّة، لكنَّ أحمد لم يُبدِ اهتمامًا بالموضوع، وظلّ صامتًا.

أخبرنا بعد كأسَيْ عرق، بأنَّه صلّى قبل مجيئه. استغلَّ فرصة أنَّ زوجته وطفليه غائبون، وأنَّ في وسعه أن يؤدِّي الصلاة في الغرفة وحيدًا. قال إنَّه صار يصلّي في الفترة الأخيرة كثيرًا، وفي اللَّيل تحديدًا؛ فاللَّيل هو الوقت الوحيد الذي يحظى فيه بعزلة تشبه التي ينشدها، لا يُفسد فيها تواصلَه مع اللّـه شيءٌ أو أحد. ثمَّ يجلس في الظلام، بعد أن يصلِّي، ويخاطب اللّـه بصوته الدَّاخليّ، الذي يتصاعد، لكنَّه يكبحه كي لا يخرج من فمه، لأنَّه يعتقد أنَّ اللّـه يصغي إلى أصواتنا الداخليَّة، إلى صمتنا وليس إلى ألسنتنا. بيد أنَّ هذا الصَّوت على الرَّغم منه كان يتفصَّد، في لحظات، بأنين.

وكان يخيَّل إليه أنَّ هذا الأنين لا بدّ من أن يصل إلى السَّماء؛ لا بدّ من أنَّه يطرقها، ولا بدّ من أنَّ اللَّـه يصغي إليه. يئنّ، محاولًا سبر أغوار السرّ الذي جعله يُمنَى بهذا العقاب. أيَّ خطيئة ارتكب؟ وكيف له أن يحظى بالغفران؟ وما مغزى كلّ هذا الألم؟ ولأيِّ غاية يختبره اللَّـه، إن كان هذا اختبارًا؟ ومتى سينتهي هذا الاختبار، إذ يجب أن تكون لهذا العذاب نهايةٌ.

وشرع يبكي ندمًا على حماقته التي قادته إلى هذه المساحة، حيث لا ملاذ فيها من قسوة القدر، من دون أن يكفّ عن طرح الأسئلة: كيف له أن يحظى بالعدالة الإلهيَّة؟ وكيف يمكن لمعجزة أن تحدث، فيخلِّصه اللَّـه بها؟ ومن هم هؤلاء الذين يمدّ اللَّـه لهم تلك اليد الحانية، وينقذهم؟ وإلى متى سيشقى هو، وكم من العذابات عليه أن يتحمَّل، وكم من الدُّموع عليه أن يذرف حتَّى تعطف عليه السَّماء؟ ولماذا لا تقبل السَّماء دموعه، قُربانًا، لماذا لا تقبل الآم المعذَّبين، قرابينَ، فتغفرَ لهم وتنجّيهم، فيخرجوا أخيرًا من قاعة الامتحان؟!

كنت أصغي إليه، وأنا أتخيَّل نافذةً تُشرَّع في السَّماء، يتدفَّق عبرها سيلُ ذلك الأنين المضمَّخ بالدُّموع. كأنَّه ناي حزين يئنّ في قلب هذا الكون، على سطح تلك الكرة التي يسمُّونها أرضًا. كأنَّ تلك الأرض هي قلبٌ وحيد، ينتحب وسط مقبرة كونيَّة يخيِّم عليها الظلام، من دون أن يدرك سرّ حياته، أو سرّ عذابه، أو سرّ اختباره. كأنَّ هذا القلب هو قلب أحمد. كأنَّ هذا القلب هو قلبي أنا.

علّق مازن على كلامه قائلًا «ليس ثمَّة قَدَرٌ في الأمر، بل هي الفراشة»، فسألته باستغراب: «أيّ فراشة؟» أجابنا أنا وأحمد:

ـ إنَّها الفراشة الصَّغيرة التي تقف على ورقة شجرة، عليها قطرةُ ماء. حينما تطير الفراشة، تهتزّ الورقة اهتزازةً صغيرة، تسقط بفعلها قطرةُ الماء

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

على صخرة ما، فتنفلق الصخرة، ليس بفعل قطرة الماء، بل لأنَّ هذه القطرة تشكِّل الحلقة الأخيرة، الطرقةَ الأخيرة، اللَّمسةَ الأخيرة، في سلسلة عوامل طبيعيَّة طويلة وكثيرة ومعقَّدة، مرَّت عليها. تنفلق الصخرة، ويتدفَّق من خلفها سيل ماء كانت تصدُّه، ويندفع هذا السَّيل ويجرف في طريقة عقبةً ما أمام سيل آخر، وهكذا في سلسلة تشكِّل كلّ حلقة فيها مفتاحًا للحلقة الأخرى، إلى أن يحدث الطوفان. أهو قَدَر أم هو أثر الفراشة؟ إنَّ ما أقوله ليس اكتشافًا لي، بل هو نظريَّة فيزيائيَّة. لكن، يمكن تطبيقها على الإنسان، وبالتالي عليك يا أحمد. ففي الوقت الذي كنت تنشد فيه الخلاص من الفقر، وهذا أمر يشكِّل ضرورة بالنسبة إليك، كان النِّظام الاقتصاديّ الرأسماليّ قد انتفخ وأصبح كالفقّاعة المليئة بالهواء؛ الهواء الذي اشتريته أنت. ثمَّ حلّت لحظة انفجرت فيها هذه الفقّاعة. لماذا انفجرت في ذلك العام، وفي ذلك اليوم تحديدًا؟ لأنَّ فراشة ما، حطّت في لحظة ما، على موقع واهن من سطح هذه الفقّاعة، فانفجرت، وحدث الطوفان، وكنت أنت جذعَ شجرة تنمو في طريق أحد سيوله الصَّغيرة، تحاول أن تنحرف في اتّجاه الشَّمس كي تصنع من ضوئها غذاءً، فكسرك السَّيل وجرفك. ليس هناك قَدَر يا عزيزي. إنَّ كلّ ما يحدث في هذه الحياة كلّها، ليست سوى التقاء ضرورات. إنَّ المصادفة أو القدر، ليس سوى التقاء تلك الضرورات.

أدهشني مازن، مرّة أخرى، بفهمه الذكيّ لهذا العالم، وفاقم ذلك استغرابي لشخصيَّته، التي تدرك كلّ شيء، لكنَّه في نهاية المطاف منحاز إلى ذاته بصراحة وبلا حرج، في كلّ لحظة يترتَّب عليه فيها اتّخاذُ موقف ما.

أمّا أحمد، فرفض أن يصدّق أنَّ لا مصادفة في الأمر، وأنَّ الحياة قائمة على هذا النحو المعقَّد من المعادلات المنطقيَّة والرّياضيَّة التي تُنتجها الضرورات. لم يصدِّق أن تجتمع عليه، هو تحديدًا، كلُّ هذه الضرورات في لحظة واحدة لتحطِّمه. وتساءل:

- هل قسوة أمّي على زوجتي هي ضرورة أيضًا؟ ولماذا لم تُنتج كلُّ هذه الضرورات على مدار التاريخ سوى الشرّ؟ سوى الحروب والدّماء والبؤس والشقاء؟ ثمّة روحٌ خفيّة في كلّ هذا الشرّ. إنّي أراها. إنّي أحسّ بها أينما اتّجهت؛ روحٌ تصنع الشرّ وتحرّكه. تحرّك تلك الفراشةَ، وتدفعها إلى أن تُحدث باهتزازة صغيرة طوفانًا. إنّه لَمن غير المعقول ألّا تقابل هذه القوّةَ قوّةٌ أخرى تسعى للخير؛ لأن تجعل فراشة تفرّ عن ورقة شجرة، فتسقط قطرةُ ماء على صخرة، وتفلقها، وتسقط الفلقتان، وتحرّكان معهما صخورًا أخرى إلى الأسفل كي تشكّل سدًّا منيعًا في وجه الطوفان؟ لماذا لا يحدث ذلك؟ إنّه لَمن غير المعقول أن تظلّ هذه القوّة ساكنةً وصامتة لا تتدخّل في صنع ضرورات أخرى، من شأنها أن تنقذ الإنسان.

ووجدت نفسي أتّفق مع مازن، فقلت:

- إنّها روح الإنسان يا عزيزي. إنّها جسده الذي يريد أن يعيش. إنّ الحاجة إلى البقاء لا يضيرها أن تلجأ إلى الشّرّ من أجل البقاء، وهي تلجأ في العادة إلى الشّرّ. إنّ ذلك يقودني إلى التفكير في أنّ الصراع الذي يحدث بين الأفراد، هو ذاتُه الذي يحدث بين الدول المتطوّرة، إذ يبدو لي أنّ سلوك تلك الدول يشبه سلوك الأفراد: كلٌّ منها تسعى لحياة أفضل، ولا يضيرها، في أثناء ذلك، أن تدمّر الدول الأضعف لتنهبها وتستبيحها، وتعيش حياة أفضل على أنقاضها وعذاباتها. لهذا، انتصرت الرأسماليّة على الشيوعيّة. إنّ الرأسماليّة أصدق من الاشتراكيّة تعبيرًا عن الإنسان، عن جشعه وقسوته وشرّه الذي لا يزال ينتصر على المُثل والفضيلة والخير. تلك هي الحقيقة.

فقال أحمد:

- لا أريد هذه الحقيقة. ما الجدوى من البحث عنها، ما دمنا في النهاية سنبحث عن الوهم كي ينقذنا منها؟.

وصمتنا. تناهى إلى أسماعنا، في أثناء صمتنا، صوتُ أمّ كلثوم تغنّي: «والنايْ على الشطِّ غنّى، والقلوبْ بتميلْ على هبوبِ الهوا... لمّا يمرّ عليلْ... يا لِيلْ».

واستغرقنا في صمتنا، كأنَّها نقلتنا إلى عالم آخر؛ عالم تضيء فيه شمسُ أصيل عالقةً في أغنية. وشربنا عدَّة كؤوس بصحَّة أم كلثوم ونحن نصغي إليها. أحسست بروحي تغدو، شيئًا فشيئًا، هشَّةً بفعل ذلك النغم والصَّوت والكلمات، ورحت أقرأ الشعر، وشرع مازن يسخر منّي لأنَّني كلَّما ثملت نسيت «الحقيقة» وطفقت أقرأ الشعر، لكنَّه كان يواري خلف تلك السُّخريَّة، إعجابَه بالقصائد التي ألقيها، وخصوصًا حينما تملأني تنهُّداتُ الشعر وآلامُه، وتفيض من صدري وأنا أقرأه على مسمعيهما، هو وأحمد، كما لو كنت عاشقًا معذَّبًا.

لقد ملأتني تنهُّداتُ الشعر وآلامُه في ذلك المساء، وفاضت من صدري، بدلًا من الدُّموع. بينما أحمد صامت يصغي إليّ، وهو يفكّر في زوجته الحبيبة التي يرعبه في كلّ لحظة أن تهجره. تُرى، كيف هو وجهُها؟ كيف هو صوتُها؟ أيّ ضوء يشعّ في عينيها؟

«أشتاق إلى رؤيتها. أشتاق إليها». سمعت صوتًا يهمس في داخلي، وقلت في اليوم التَّالي لنفسي: لقد كنت ثملًا فحسب، وأنا أدرك أنَّ السُّمَّ ينتشر في دمي، ورغبتي في رؤيتها والتَّعرُّف إليها تتحوَّل إلى كابوس ينهشني بهدوء وصمت.

أغمضت عينيّ.

إنَّ حُزَم الأشعة ستضطرب وتختفي.

ستتلاشى الحُزَم المضيئة ويصبح الضوء كدرًا غائمًا، كما يقول جلجامش لأنكيدو، سمعت أحمد يقول لي. وما لبثت أن سمعته يقول

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

أيضًا: العيش ليس سهلًا. والموت طوعًا، صفة تلك العادة المضحكة. ثمَّ سمعت العجوز الذي عاشَ في هذه الغرفة قبلي، ومات وتعفَّن فيها. كان قريبًا منِّي، وكان يئنّ.

استدرت نحو الجدار، لكنَّني، حينذاك، سمعتُ أحمدَ ثانيةً: لا يوجد سبب عميق للعيش، فأنت تستمرّ في أداء الحركة التي يأمر بها الوجود لأسباب عديدة، أوَّلُها العادةُ. ثمَّ سمعتُ عجوزَ الحانة يسألني:

ـ أيُّ مجد ستحظى به السَّماء من عقابنا؟ أيُّ مجد؟

ـ لست أدري.

لماذا لا تتَّصلين بي؟ لماذا هاتفي صامت ولا يرنّ؟

لا أنام، حتَّى بعد أن يؤذّن للفجر.

❖❖❖

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

النّهار التّاسع

نظرت إلى السَّماء بتلقائيَّة ما إن خرجت من باب الغرفة، ربَّما بحثًا عن الفضاء؛ عن اللّاحدود هربًا من الحدود؛ هربًا من أربعة جدران ليس فيها نافذة، ولا أيُّ نافذة. جدران صمَّاء شاحبة تنثال منها البرودة والرُّطوبة مثلما ينثال الصَّمت من الفراغ. جدران ليس فيها سوى باب حديديّ صدئ وضيّق، يُفضي إلى شارع أنسكبُ فيه مثلَ أيِّ غريب يتعفَّن في عزلته، ويمشي، ويعجز هيكله الضئيل، كما يعجز ظلُّه، عن حفر أثر تافه في ذاكرة الطَّريق.

هل تتذكَّر السَّماءُ الألمَ؟ هل تتذكَّر آلامَ المذنبين وهي تتذكَّر خطاياهم؟

حلقي جافّ، لكنَّني لا أدري ما هو، وأين هو الماء الذي يمكن أن يبلِّله. أشرب ويظلّ حلقي جافًّا.

اللَّعنة تعرف طريقها إليّ، وأنا مثخَن بالهزائم والغربة والخوف والتردُّد. مثخَن بالجوع والعطش. أريد أن أنام، لكنَّني أمشي. أريد أن أموت، لكنَّني

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

أمشي، ومعي تمشي المسافاتُ؛ هذه المسافات التي حدَّثتكِ عنها، ولا أكفّ عن أن أحدِّثك عنها. إنَّها تمشي معي. لا أتركها خلفي. لا أترك أيَّ شبر منها خلفي. ومثل غريب يقف تحت عمود كهرباء، يحتضن ذكرى أليمة وتنتابه رغبة في البكاء، تحتضن هذه المسافات كلَّ أوجاعي وتسير معي.

كلّ تلك الأيَّام تسير معي؛ أيَّامي التي كنت أحاول أن أكون فيها إنسانًا طبيعيًا كسائر خلق اللّـه الطبيعيّين: أفيق في الصَّباح وأذهب إلى تلك المدرسة في مدينة الزرقاء. لكنَّني، بتّ أشعر بنفسي بمرور الوقت، كمن يمخر في بحر العبث بقارب متهالك. كانت الغربة تستبدّ بي كلَّما دخلت المدرسة وواجهت مدرِّسيها المترصِّدين دومًا لكلمة أو فكرة تشذّ عن قواميسهم وحقائقهم، كي يكفِّروك ويضطهدوك. وكانت تستبدّ بي أيضًا كلَّما واجهت تلاميذها الذين لا يؤرِّقهم همُّ المعرفة. تلك المدرسة التي يستحيل على المرء أن يعلو صوته فيها بسبب الهدير المتواصل لدبيب خطى الماضي، وضجَّة الأوهام. أفيق في الصَّباح محبَطًا وفاقدًا الرَّغبة في مواجهة نهاري.

كان مازن أحيانًا يطرق باب غرفتي ليوقظني، فأخبره بأنَّني مستيقظ، وأنَّني أشعر ببعض التوعُّك ولن أذهب إلى العمل. فيهتف بي:

ـ يا رجل! لقد بتَّ تتغيَّب كثيرًا عن عملك، هذا فضلًا عن الأيَّام التي تتأخَّر فيها عن بدء الدوام. في هذه الحال، لن يكتفوا بالخصم من مرتَّبك، بل سيطردونك عمَّا قريب! انهض واذهب إلى عملك.

ويقول في أثناء حلق لحيته: لست أدري كيف ستواجه هذه الحياة، إن بقيت في الخمول والكسل هذين؟ أتدري؟ لا أظنّ أنَّ إحساسك بالغربة هو سبب هذا الخمول، بل يبدو لي أنَّ هذا الشعور هو وليد الكسل. أنا أفهمك جيِّدًا يا صديقي. أنا أراك أمامي عاريًا، وربَّما خاليًا حتَّى من ورقة التوت.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

فأجيبه، وما زلت في الفراش:

ـ أظنّ أنَّ ورقة ليمون بسبب هزال جسدي، ستفي بالغرض الآن.

وينفجر بالضحك. ويعترف بأنّه، على الرّغم من انزعاجه منّي، يحبُّني، في بعض الأحيان، بسبب ظُرفي.

كنت أنهض، وأذهب إلى المدرسة، كما في كلّ يوم، بخطى ذابلة يعوزها الأمل، كي لا يخصموا من مرتبي، لأنّني محتاج إلى كلّ قرش فيه؛ محتاج إلى أن أدفع أجرة البيت مع مازن؛ محتاج إلى أن أدفع قسطًا لقرض حصلت عليه من البنك كي أسدِّد ديونًا قديمة متراكمة؛ محتاج إلى الطعام والشراب كي يمتلئ بطني بالفضلات والعفن. ما السرّ الذي يدفعنا إلى التّمسُّك بهذه المهزلة؟

«هل تنقذك القراءة؟» كان سؤال صديقتي مالكة الحانة يرنّ في أذني. «لا، يا عزيزتي، لكنّني أبحث فيها عن أناس يشبهونني، لعلّي أقاوم عزلتي؛ أبحث عن مصائر أبطال يشبهونني، لعلّي ألمح شكل مصيري».

وحينما أعود إلى البيت، أتناول الطعام بآلية: علبة سردين، أو صحن حمّص، أو ما شابه، ثمَّ أستلقي على السَّرير وأقرأ، ثمَّ أغفو، ثمَّ أصحو وأدخِّن وأقرأ. وحينما يعود مازن في المساء، أفرغ أمامه حاجتي إلى الثرثرة والشكوى، من الفقر والغربة واللاجدوى.

كان يصغي إليّ في البداية، محاولًا أن يجيبني انطلاقًا من فهمه لهذا العالم وعلاقاته. لكنَّه صار يصمت فيما بعد، ثمَّ صار يشعر بالسَّأم من ثرثرتي، ولاسيّما حينما انتبهَ إلى أنّني أبذِّر النقود بلا أسف على الخمرة والكتب، وأتغيَّب عن الدَّوام بلا سبب، فصار المدير يخصم أيّام الغياب من مرتّبي. وهكذا بتُّ أتخلَّف عن دفع أجرة البيت، فيدفعها هو عنّي. وكنت

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

أدرك أنَّ هذا الأمر هو بمثابة قنبلة موقوتة قد تنفجر في أيِّ لحظة من دون سابق إنذار. بات جافًّا معي.

عرَّج علينا أحمد بعد انتهاء عمله في متجر الخضار ذات مساء. صنعت له القهوة وحدَّثته قليلًا عن إعجابي بالرواية التي انتهيت قبل مجيئه من قراءتها: «أنت منذ اليوم» . قلت إنَّها أجابت عن أسئلتي بشأن سبب انتحار كاتبها، تيسير سبول. لقد أكَّدتْ لي أنَّ انتحاره لم يكن مرتبطًا بأسباب سياسيَّة أو بهزيمة حزيران، كما يُشاع، بل بأسباب وجوديَّة. وأردفت: إنَّنا نخوض في العلن معاركنا الفكريَّة والسياسيَّة بصخب، لكنَّنا في أعماقنا وفي وحدتنا نخوض معاركنا الوجوديَّة الضارية بصمت وعذاب. ذلك هو نحن. ذلك هو الإنسان.

لم يناقشني أحمد، وظلَّ صامتًا ومتجهِّمًا، لكنَّني فوجئت بظهور مازن الذي كنت أظنّ أنَّه نائم. قال ساخرًا وهو يقف في باب المطبخ حيث نجلس:

ـ لم ألحظ أنَّ القضايا العامة تثير اهتمامك، ولست أظنّ أنَّك من الذين يخوضون المعارك السياسيَّة بصخب، فأنت محصَّن ضدَّها، لشدَّة غرقك في همومك الذاتيَّة، وكسلك.

ورأيت على الفور ظلال مسألة تخلُّفي عن دفع أجرة البيت تخيِّم عليه. لم أكن معنيًّا بتصعيد الموقف معه، فرحت أبرِّر، كما أفعل دومًا، موضحًا أنَّ تقاعسي عن النِّضال سببُه غياب الأطر التي في وسعي أن أناضل من خلالها، وليس كسلي.

فردَّ، كمن وجد أخيرًا منفذًا يصرِّف عبره غيظَه منِّي، بالسُّخريَّة ذاتها، قائلًا إنَّ الأطر كثيرة، لكنَّ المشكلة فيَّ أنا، الذي لا أبحث عنها ولست معنيًّا بالبحث عنها: «لأنَّك لست معنيًّا سوى بذاتك، تثرثر ولا تكفّ عن

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

الثرثرة والشكوى، وتمارس الكسل بلا أسف، ثمَّ تحمّل العالم مسؤوليَّة انحطاط واقعك».

حاولت السّيطرة على أعصابي كي لا تستجيب لاستفزازاته، وبقيت صامتًا.

وكسر أحمد فجأة الصّمت:

ـ لماذا لا تكرهني؟ كيف لا تكرهني؟ لماذا تُلقي على كاهلي هذا العبء، فيمزّقني الألم كلّما قالت لي إنّها ستتحمّل من أجلي ومن أجل طفلينا مشقَّةَ العذاب والحرمان هذين! أتدريان أنّني صرت أكرهها أحيانًا حين تصرّح بذلك؟

تفرّستُ في وجهه الطافح يأسًا، وفي أعماقي البعيدة ثمّة أملٌ شيطانيّ خسيس يعوِي، وسألته:

ـ لماذا؟

ـ لأنَّ تحمُّلها يُبقي الدَّائرة مفتوحة، ويا لحاجتي إلى إغلاقها.

❖❖❖

كان جسدي يندفع بخطوات آلية مسرعة بين أجساد بشريَّة أخرى، في شارع قذر مكتظّ بالناس والضَّجيج. ما الذي يجمعني بهؤلاء الناس حتّى أسير معهم في الشارع ذاته، وفي الزّمان ذاته؟! وإلى أين أسرع؟ سألت نفسي، وأرعبتني فكرة أنّني أهدر وجودي وأستهلكه هباءً في المكان والزّمان الخاطئين. لكن، هل ثمّة مكان وزمان صحيحان، سوى في الوهم؟

تذكّرت سؤال مازن: «لماذا لا تنتحر إذا كان هذا الواقع لا يعجبك فعلًا، بدلًا من أن تظلّ تثرثر عن الانتحار؟ لكنّك لن تفعل. أتدري لماذا؟ لأنَّ فقرك وبؤسك واختلافك مع محيطك أمورٌ تعجبك. صدّقني أنّها تعجبك!

بل إنَّني واثق بأنَّك لو مُنحت فرصة حقيقيَّة لتغيير واقعك لَما فعلت، ليس بسبب كسلك فحسب، بل لأنَّك ستفقد حينها ذريعة الشكوى! ثمَّة أناس يعشقون دور الضحيَّة لأنَّه يعزِّز إحساسهم بالبراءة في كلّ لحظة، وأنت خير من يُمثِّل هؤلاء».

يا له من محقّ! يا لي من تافه وجبان وثرثار. إنَّ مازنًا محقّ. هزَّتني هذه الجملة. أنا جبان وكسول ومهزوم. أجل، أجل. أثرثر عن الانتحار، لكنَّني لا أستطيع الكفّ عن الحلم بالحياة. أريد أن أعيش أيضًا. أسمع صدى هذه الصرخة التي تتردَّد في أعماقي: كيف أعيش؟ كيف أحيا؟

إنَّ الحياة التي أتوق إليها لا تَحدُث لي إلَّا في الوهم والحلم.

انتبهت في تلك اللَّحظات للفتاة التي تصادفني في طريقي إلى المدرسة وترمقني عادة بنظرات لا أظنّ أنَّها بريئة. كانت تمضي إلى عملها، ترتدي في أغلب الأحيان بنطلون جينز، وفوقه جاكيت صوف، وتضع على رأسها منديلًا تتكوَّم تحته كتلة كبيرة من الشعر. وكانت تطلي وجهها وعينيها بالكحل وألوان أخرى صاخبة، كأنَّها ذاهبة إلى حفلة.

سألت نفسي لحظتها: «لماذا لا أحبُّها؟» وما لبثتُ أن أسرعت الخطى كأنَّما هاربًا من خطورة السُّؤال.

حدَّثت أحمد عنها. قلت له إنَّني أريد للتفاهة أن تنقذني، فضحك، ورد ساخرًا: «ولمَ لا؟! ربَّما تكون التفاهة ـ وليس الجمال ـ الأقدرَ على إنقاذ العالم». وحدَّثني عن القصص التي تحدث له في هذا المتجر؛ عن تفاهات صاحب العمل وتفاهات الزبائن، لكنَّه لا يتدخَّل كي لا يفقد هذا العمل، فيتفاقم جوع طفليه. «لقد تعلَّمت أن أضع الحذاء في فمي وأخرس»، قال بقهر، وكانت يداه ترتجفان. انتبهت إلى أنَّه ازداد نحولًا عمَّا سبق، وبات جِلدًا على عظم. طلبت منه أن ينتبه لصحَّته، فأجابني بأنَّ المشكلة في

النوم. وحدَّثني عن الكوابيس التي تطارده ليلًا، فيفيق مذعورًا ويعجز عن النوم ثانية، ويصلّي. حدَّثني عن كابوس يتكرَّر كلّ ليلةٍ، يرى نفسه فيه يتلوّى في أيدي غرباء يحملونه ليقدّموه إلى كائن ضخم ومتوحّش، كي يبتلعه.

ثمَّ حدَّثني عن كوابيس النهار، ورعبه من هجران زوجته له تحت وطأة الشقاء وقسوة أمّه، وفي الوقت ذاته، عن رعبه من بقائها معه. وصف لي هذه الكوابيس بإسهاب كمن يتلو ملحمة وجوده المأساويّة، بوجهه الشاحب، وعينيه المرعوبتين. وسألني بعد ذلك:

ـ هل تعرف كيف للمرء أن ينتحر من دون أسًى؟

أجبته ساخرًا:

ـ أنا من سينتحر يا صديقي، أمّا أنت، فلا، لأنَّ قواك واهنة ويديك ترتجفان. أنت تذبل شيئًا فشيئًا، وتتيبّس، وكلّ ما أخشاه أن تنهار عمَّا قريب بفعل نسمة، كتمثال من الغبار، وأن تطير ذرّاتُ جسدك الهزيل في الهواء، فلا يبقى منك سوى هندامك العتيق؛ ربطة عنقك وبذلتك، تطيّر الريحُ كمّيها كما لو كانت تلوّح للحياة كفزاعة الغربان.

حدَّق فيَّ طويلًا، ثمَّ قال:

ـ «إنَّ كوخ القصب لا يدرأ الزمهرير»[1]، وكوخي من قصب. وصمت طويلًا قبل أن يضيف: يُفزعني صمتها. لو أنَّ الدُّموع تصبّ في عيني.

قلت له، محاولًا تغييرَ الموضوع، إنَّني بالأمس وقفت أمام مازن ووعدته وعدًا قاطعًا وأنا أضع يدي حيث قلبي، بأن أردّ له كلّ قرش دفعه عنّي. وعدته بأن أبحث عن عمل إضافيّ، كي لا أكلّفه الصَّرف عليّ.

«وهل صدَّقك؟» سألني أحمد ساخرًا، فأجبته:

---

(١) من جلجامش.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ـ بالطبع لا، لأنَّني كرَّرت هذه الوعود مرارًا، وفي الصَّباح كانت أمواج الكآبة التي تبعث على الخمول، تمحو كلّ أثر لها من رأسي، فأستيقظ محبَطًا، لاعنًا بأقذع الشّتائم هذا العالمَ وانحطاطَه.

ضحكنا. ثمَّ سألت أحمد: ألم تفكِّر يومًا في اللُّجوء إلى مازن ليحلّ مشكلتك؟ فهو يملك النقود.

ـ أجُننت؟ مَن لعلّه يضحّي بمبلغ ادَّخره من جهده، يومًا بعد يوم، لينقذ آخر، حتى لو كان صديقه، وخصوصًا أنَّه يعلم بأن ليس في استطاعتي ردَّه عمَّا قريب، بل ربَّما ليس في وسعي ردُّه أبدًا.

أنا أيضًا كنت على يقين بأنَّ هذا الفعل لن يقوى عليه سوى المسيح: أن تضحي بمالك وجهدك وعملك، في مقابل خلاص صديقك. ومع ذلك، بدا لي الأمر في لحظة انفعال ليس مستحيلًا. إنَّه يحتاج فقط إلى الشَّجاعة، إلى محاولة اجتياز دائرة الأنا، ووضع أقدامنا في المساحة خارجها، حيث لن نجني شيئًا، سوى تلك الارتجافة اللَّذيذة والمخيفة التي تصيبنا حينما نجد أنفسنا في مكان غريب ومجهول، كأنَّك تخرج من رحمك، وتولد من جديد في عالم آخر لا تملك عنه أيَّ تصوُّر، بيد أنَّه رائع على نحو يصعب تصوُّره.

ومع أنَّني كنت أدرك أنَّ هذه الأفكار ليست من تلك التي تصلح للحياة، لكنَّني، ربَّما بفعل الرّغبة العميقة في مساعدة أحمد، اعتقدت أنَّ في وسعي إقناع مازن بها. في وسعي مخاطبة جانب إنسانيّ ما فيه. في الحقيقة، لم أكن أعرف شخصًا آخر يملك المال، وفي وسعه إنقاذ أحمد، غيره، لهذا استجمعت شجاعتي وحدَّثته في الأمر.

نظر إليّ بتعجُّب شديد، ثمَّ ضحك، وسألني:

ـ أَأنت في كامل عقلك؟

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

ـ لا أدري. ربَّما لست في كامل عقلي. لكن يبدو لي أنَّه يتوجَّب علينا أحيانًا أن نتخلَّص من كامل عقولنا كي نقترب من إنسانيَّتنا. لو كنت أملك المال لفعلتها، ولضحَّيت به، ليس فقط كي أنقذ أحمد، بل لأنَّني أظنّ أنَّ ذلك سيمنحني معنًى ما لهذا العبث. وسأقول في نفسي ذات يوم إنَّني استطعت على الأقل إنقاذ إنسان.

ـ يا الهي، كم أنَّك مُغرَم بالشعارات والكلام. أنت تحيا الحياة، على صعيد اللُّغة فحسب، ولم تجرّبها على صعيد الفعل. لهذا، دعني أقول لك إنَّك لست في حاجة إلى العثور على المعنى. أنت في حاجة إلى اللَّـه، فاللَّـه وحده هو القادر على إنقاذك بمعجزة تتسلَّم بفضلها مرتَّبًا مجانيًّا شهريًّا من السَّماء، بلا عمل، يوفِّر لك ممارسة الكسل والثرثرة، وإنقاذَ الآخرين من مشاكلهم، إن غطّى هذا المرتب احتياجاتك. بل إنَّني أشكّ في أنَّك حينذاك سترضى وستكفّ عن التذمُّر، وستبحث حتمًا عن ذريعة جديدة، تبيح لك التبرُّمَ والشكوى.

❖❖❖

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

اللَّيلة التَّاسعة

رأيت عائشة تخرج من العتمة، وتظلُّ ملفَّعة بها وهي تسير نحوي ببطء. وقفت إلى جانبي وسألتني: «لماذا قتلتَني؟» وإذ لم تسمع منِّي ردًّا، راحت تطرق الحائط بقبضتها.

أيقظني الطَّرق. كان حلقي جافًّا. شرع يتناهى إليّ من صمت الغرفة أنينٌ خافت مصحوب بأنفاس بطيئة واهنة كأنفاس عجوز يحتضر.

ثمَّ عدت أسمع الطَّرق.

لم يكن الطَّرق على الباب حادًّا، لكنّي جفلت. كان طَرقًا واهنًا، كأنَّ اليدَ التي تقوم به منزوعةُ القوى؛ منزوعةُ الأمل؛ منزوعةُ الحياة، وهذا بالذات ما أجفلني. كان أحمد يقف خلف الباب شاحبًا ومعذَّبًا. قال لي بصوت مخنوق: «لقد تركْتَني». قلت له: «ادخلْ». ولم أعرف ماذا أقول أيضًا. كان جفناه السُّفليّان محمرّين، كأنَّه لم ينم منذ زمن طويل، ووجهه كان مسوَدًّا، وخدّاه كانا غائرين. وخطر لي أنَّ أيّ شاعر عظيم سيعجز عن ترجمة هذا الألم.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

«اجلسْ»، قلت له، وأنا أراه يقف وسط المطبخ ضائعًا، فنظر إليَّ كأنَّما عثر أخيرًا على الفعل الذي يتوجَّب عليه القيام به، وجلس. وفكَّرت في أنَّ كلَّ شيء في هذا العالم يشوبه النقصان، إلَّا الألم، إنَّه الإحساس الوحيد المكتمل. قال بصوت محشرج:

ـ أخذَتِ الأطفال وعادتْ إلى بيت أهلها، قالت لي إنَّها لم تعد تحتمل هذه الحياة.

صنعت له إبريقًا كبيرًا من القهوة، وحاولت أن أهوِّن الأمر عليه. قلت له إنَّها حتمًا ستعود بعد أن تهدأ، كما عادت في المرَّات السَّابقة، وإنَّ هذا ليس سببًا عميقًا وجوهريًّا للعذاب. فنظر إليَّ تلك النَّظرةَ التي تختزل مأساويَّة الحياة، ولم تنفكّ تهزّ شيئًا رهيبًا في أعماقي. قال:

ـ لا أدري ما هو السبب الذي يمكن وصفه بالجوهريّ والعميق لعذاباتنا. في المحصلة، كلّ الأسباب السَّخيفة تدفعنا إلى سؤال عن جدوى هذه العذابات؛ عن جدوى الحياة إذا كنَّا مضطرِّين إلى تكبُّد عبء تفاهتها؟

خطر في بالي أن أجيبه: «الحبّ». لكنَّني أحجمت. خفت أنَّ تفاقم الكلمة تعاسته وعذابه. قلت:

ـ ربَّما الجدوى في الأمل.

ـ الأمل بماذا؟!

ـ بالعدالة.

ـ أين هي؟

ـ موجودة في مكان ما، ولا يجب علينا أن نفقد الأمل فيها.

ومضيت في كلام لم أكن مؤمنًا بكلمة منه، لكنَّني كنت أحاول أن أقنع نفسي بأنَّه سيحافظ على اتِّساع الحبل الملفوف حول رقبته، فلا يضيق فجأة، ويخنقه.

هذا الحبل يلتفُّ الآن حول عنقي يا أحمد.

أراه مستلقيًا قبالتي على فرشة على الأرض. كنت دعوته إلى أن يقيم معنا بهذه الشّقّة، فينام في غرفتي، ريثما تعود زوجته، فوافق. ثمَّ غاص كلّ منّا في صمته. كنت أسمعه بين الحين والآخر يئنّ، وكانت حرارة تلك الأنّات تلفحني. لم تكن حرارة مجازية بل واقعيّة، فهي تنبعث من جسده مثلما تنبعث من روحه. ومع كلّ أنين، ومع كلّ دفق لتلك الحرارة، كان جسده وروحه يفقدان شيئًا من الحياة، فيذويان قليلًا، ثمَّ يئنّ، فيتبخّر قَدْر آخر من الحياة، ويذبل أكثر، وهكذا، إلى أن يذبل تمامًا ويجفّ ويتيبّس، مثلما يحدث للثمار التي تسقط على الأرض وتظلّ معرَّضة للشّمس، إنّما المشهد معه كان يجري بتسارع مريع. ألمَّ بي ذعر غريب من أنّني سألقاه في الصَّباح ممدَّدًا في الفراش مجعَّد البشرة وجافًّا تمامًا، بينما عيناه الواهيتان المعذَّبتان تبحلقان في الفراغ برعب. جعلني هذا الخاطر أناديه، فلم يجبني. نهضت من الفراش وهزَّزت كتفه: «أحمد! أأنت بخير؟». كان نائمًا فأيقظته، لكنَّه عاد إلى النوم سريعًا، وعاد يئنّ.

ثمَّ أراه يشرب القهوة ويغرق في الصّمت، وهو يتابع النَّظر إلى العتمة خلف النافذة، ثمَّ يلتفت إليّ قائلًا:

ـ لو أنّك تدري كم أفتقدها.

ـ لماذا لا تحاول رؤيتها؟ لماذا لا تذهب غدًا إليها وتحاول استرضاءَها بطريقة ما؟

اعترف لي بأنّه فعل ذلك اليوم. وجد طفله الكبير يلعب في باحة بيت أهلها الصغيرة، فحضنه وظلَّ للحظات يدفن وجهه في صدر الطفل كي لا يشعر ذاك بدموعه. ثمَّ جلس معه قليلًا يلاعبه منتظرًا أن تراه عبر النافذة

فتخرج إليه، لكنَّها لم تفعل. خرجت أمُّها وأكَّدت له أنَّها ليست موجودة في البيت، وأنَّها في زيارة لإحدى صديقاتها.

ـ فلتذهبْ غدًا، إذن.

ـ وماذا سأحمل لها غدًا من جديد؟

ـ ما حملته اليوم.

ـ لم أحمل شيئًا. لا أعرف لماذا ذهبت.

تقلَّبتُ في الفراش وقد اشتعلت في داخلي النَّقمةُ من جديد على مازن. لو أنَّه ليس أنانيًّا؛ لو أنَّه يتحلَّى بشيء من الإيثار لكان أنقذ أحمد. لكنَّني عدت أبرِّر له؛ فما الذي يضطرُّنا إلى التضحيَّة المجانيَّة في سبيل آخر؟ أكاد أصدِّق أنَّ الإنسان هو تمامًا كما أراه: مجرَّد جسد يحيا ويفكِّر فقط في خلاص ذاته. هل الإنسان كذلك فعلًا؟ لا أدري ما هي الحقيقة. لا أدري أين هي الحقيقة. لا أدري، لكنَّني بتُّ أفكِّر في هموم أحمد وتعاسته، كما لو كانت همومي وتعاستي أنا. لا تُقلقني ديونه بقدر ما يُقلقني هجران زوجته له. تُقلقني جدًّا مسألة عودتها إليه. أنتظر بلهفة كلَّ يوم أن يخبرني بأنَّها عادت، أو على الأقل ردَّت على اتِّصاله الهاتفيّ. لكنَّه لا يفعل، وأنا أتحاشى سؤاله.

قال لي إنَّه يثمِّن كثيرًا وقوفي إلى جانبه. وابتسم بحزن وهو يضيف: «أقدِّر عاليًا شفقتك عليّ، مع أنَّني أكره الشَّفقة. أكره أنَّني بتُّ موضوعًا للشَّفقة»، فقلت له إنَّني أتفهَّم حالته، وأدرك أنَّ إحساسه الشَّديد بالضعف والعجز، هو الذي يجعله يشكّ في مشاعر أصدقائه تجاهه ويعدّها شفقة. لكنَّها ليست كذلك، بل هي نابعة من الصداقة؛ أن تقف إلى جانب صديقك مهمومًا لأنَّك لا تدري كيف تساعده.

وكنت صادقًا، فليست الشَّفقة هي الشُّعور الذي ينتابني تجاه أحمد. لكنَّها ليست الصداقة وحدها أيضًا. ثمَّة شعور آخر، غامض ومبهم، يفتك بي. شعور يشبه الخوف. كأنَّني أرى فيه مصيري؛ كأنَّني أنظر إلى مرآة وأرى فيها صورتي المستقبليَّة. فما عساه ينتظرني في المستقبل سوى البؤس والشَّقاء؟ كأنَّ كلّ شيء أفعله؛ كأنَّ كلّ خطوة أخطوها تقودني إلى المكان الذي يقبع هو فيه الآن. أودُّ أن أنقذه. أريده أن ينجو. أريد لي أنا أن أنجو من الخوف.

كنت أفكِّر في ذلك وأنا أمشي في طريق عودتي من المدرسة، ثمَّ انتبهت لتلك الفتاة التي لا تكفّ عن أن ترمقني بنظراتها، مثلما أفعل أنا أيضًا. رأيتها فجأة، ومن دون سابق إنذار، تسير ناحيتي وتقترب منِّي. وفي تلك اللَّحظة رأيتها عائشة، بدمها ولحمها. تسمَّرتُ في مكاني والرَّعشة تهزّ كياني كشبح يرتجف في مهبّ الريح، وفقدت القدرة على الكلام وأنا أحدِّق فيها بعينين شاخصتين. وقفت أمامي وقالت لي:

ـ إذا كنت مهتمًّا بأمري فهذا هو باب بيت أهلي. في وسعك أن تطرقه.

ولم أجد ما أردّ به من شدَّة المفاجأة والاضطراب سوى: «إن شاء اللَّه!» وانطلقتُ هاربًا من أمامها بخطى سريعة. لكنَّني سمعتها تهتف خلفي بلغة سُوقيَّة:

ـ ما بالك هربت؟ أتظنّ بنات الناس مستباحات حتَّى تظلّ تراقبهن بوقاحة، وبلا هدف؟

أسرعت هاربًا من الحضيض؛ هاربًا من نفسي ومن تلك الفتاة؛ من عائشة التي لاحقتني اليوم، ووقفت أمامي بجرأة وقالت لي تزوَّج منِّي. مشيت مسرعًا، هاربًا من مصيدة فتاة تلقي شباكها على أيّ عابر سبيل لعلَّه يعلق ولا يعثر على وسيلة للنجاة. هل نجوت حقًّا؟ كان يبدو لي أنَّني أمشي

ولا أزال متخبِّطًا في تلك الشِّباك المنسوجة من يأسها ووقاحتها، ومن يأسي وجبني.

توقَّفتْ فجأة خطاي. بدا لي المشهد لا يبعث على الرُّعب بقدر ما يبعث على الضحك. أنا جبان فقير، خائف من فتاة فقيرة ومسكينة وخائفة من العنوسة، وتحلم برجل، أيِّ رجل، ينقذها من الحضيض الذي تحيا فيه. هل ثمَّة مهزلة تضاهي هذه المهزلة؟ بدا لي المشهد كاريكاتوريًّا يعجّ بالسُّخرية، يقف المرء أمامه فتنتابه رغبة في الضحك: ضحك كان يتفجَّر في داخلي، ويغمرني كشلّال ماء ساخن جدًّا، إلى درجة أنَّني كنت، في أثناء ضحكي، أحترق.

خرجت في المساء باحثًا عن عجوز الحانة كي أحدِّثه عن هذه المعركة التي خضتها للتوّ، لكنَّني فوجئت بغيابه. أخبرني مالك الحانة بأنَّه مريض، وأنَّ ثمَّة مشكلة عويصة في قدمه اليسرى، ويرقد الآن في المستشفى الحكوميّ. هرعت إلى زيارته بعد أن اشتريت زجاجة عرق هديّة له. كنت واثقًا بأنَّها الهديّة الوحيدة التي ستفرحه. كان الوقت أواسط آذار، فأخفيت الزجاجة جيِّدًا داخل سترتي القديمة، واجتزت باب المستشفى بسلام من دون أن ينتبه لها أحد من الموظَّفين أو الطاقم الطبّيّ. بحثت عن عجوز الحانة ووجدته في حجرة كبيرة، مليئة بالأسرّة، تفصل أحدَها عن الآخر ستائرُ سميكة وقذرة.

يا للفرحة التي ارتسمت على وجهه حينما رآني. قال لي إنَّ الحرب قذفت به إلى هنا بعد أن طحنت الجميع، فلا أحد يأتي لزيارته، وها هو منسيٌّ ومتروك يعاني ألم الطعنة التي قد تكون الأخيرة.

أخرجت الزجاجة من داخل سترتي بحذر، بعد أن تأكَّدت من أمن المكان. كاد يصرخ من الفرح حينما رآها، لكنَّني أشرت إليه أن يصمت،

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

كي لا يصادروها. فصمت، لكنَّه غافلني وأخذ يدي وقبَّلها، ورأيت الدُّموع تنفطر في عينيه اللَّتين لطالما كانتا جافَّتين. كان ينظر إليَّ ولا يكفّ عن البكاء الصامت الذي يتدفَّق من عينيه بغزارة، وتنهمر الدموع على وجهه وتسقط على المخدَّة وتبلِّلها، فيبدو لي أنَّها ستظلّ راسخة فيها ولن تتبخَّر، تمامًا كما يرسخ الألم.

قال لي إنَّهم سيقطعون قدمه، فلا أمل في علاجها، بعد أن استشرت الغرغرينا فيها. ثمَّ بصق على الأرض، ورأيت بصاقه. لم يكن ثمَّة ما يميِّزه، مثل بصاق سائر الناس، على اختلاف طبقاتهم وألوانهم. لكنَّني لا أدري إن كانت آلام هؤلاء متشابهة. هالَني في تلك اللَّحظة، كأنِّي اكتشفت فجأة حقيقة مريعة، أنَّ هذا العالم مثقل بالآلام والعذابات والمخاوف. هالَني أن ليس في وسعي فعل شيء، فأنا أيضًا ضحيَّة حرب لا تنتهي، وروحي تسير على هذه الأرض عرجاء تتعكَّز على أمل أحمق. وتذكَّرت، لسبب ما، قصيدة للشاعر الأميركيّ، بوكوفسكي، يقول في مطلعها إنَّه يستلقي على ظهره محدِّقًا في السقف، ويقول في نهايتها إنَّه يستلقي على بطنه معطيًا مؤخِّرته للسقف: «هكذا من قبيل التَّغيير». أريد أن أستلقي على بطني وأعطي مؤخِّرتي للسقف، ليس من قبيل التَّغيير فحسب، بل أيضًا ناشدًا البلادةَ.

عدت إلى الحانة وشربت، بكلّ ما أملك من نقود، ورجعت إلى البيت مترنِّحًا ثملًا. كان مازن نائمًا، وأحمد جالسًا في المطبخ، يدخِّن بشراهة، ويشرب القهوة. أسرعت إلى غرفتي واستلقيت على السَّرير، فقد كان الدُّوار يعذِّبني. جاء أحمد إليّ، فقلت له:

ـ سأغيِّر منذ الغد طريقي إلى المدرسة.

ـ لماذا؟

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ـ لأنَّني لا أريد أن أصادف تلك الفتاة. لقد طلبت منِّي أن أتزوَّج بها.

وانفرجت على نحو غريب تعابيرُ وجهه المأساويَّة، وهو ينفجر في الضحك. وخيِّل إليَّ أنَّني لم أره من قبلُ يضحك. لكنَّه، حتَّى في ضحكته، لم يفقد من عينيه ذلك الحزنَ الرَّاسخ العميق. سألني:

ـ أأنت خائف منها؟

ـ أجل! فقد هدَّدتني، أنا الفقيرَ الجائع؛ أنا الغريبَ المنبوذ؛ أنا الجبانَ المذعور المهمَّش؛ أنا اليائسَ، هدَّدتني بالانتقام. أريد أن أسلك طريقًا أخرى كي لا أصادفها. أريد أن أسلك طريقًا أخرى بمحاذاة النهر.

ـ أيّ نهر؟

ـ ذلك الذي تبدو مياهه في الأيَّام المشمسة ساكنةً زرقاء، لكنَّك إن دقَّقت النَّظر فسترى تموُّجات صغيرة فيه، وتفهم أنَّ مياهه لا تكفّ عن الجريان. أريد أن أجري أنا أيضًا، أريد أن أجري وأهرب مثلَ نهر.

ـ هل رأيت نهرًا في حياتك؟

ـ رأيته في التلفاز. أريد أن أرى نهرًا في الواقع. اجلبْ لي نهرًا! أريد لهذه النافذة أن تطلّ على نهر، لا على خرابة تبكي كلّما هطل المطر.

«ثمَّة نهر يجري في روحي، ويُرعبني المكان الذي يصبّ فيه!» تمتم أحمد، فلم أُولِهِ اهتمامًا واسترسلتُ في أفكاري:

ـ لكن لا، لا أريد أن أَجري، بل أريد أن أتجمَّد مثل نهر في شتاء قطبيّ. سيقطعون قدم عجوز الحانة. ستقطع الحرب قدمه. رأيت دموعه تسقط على المخدَّة. يا للمخدَّة! تخيَّل لو أنَّك مخدَّة تحت رأس أحدهم وتسقط عليك دموعُه، وتسقط وتسقط، وأنت تتشرَّبها بصمت. لقد شعرت

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

بأنّني تلك المخدَّة. أنا المخدَّة التي تتشرَّب دموع الآخرين وتنتحب. سيقتلني الحزن يا صديقي.

ـ أمَّا أنا، فسيقتلني اليأس.

❖❖❖

تسلَّل صفير الرِّيح إلى داخل الشِّقة عبر شقوق لم أكن أراها. كنت أقف عند نافذة المطبخ التي تطلّ على خرابة بيت قديم، أرى الرِّياح تلعب فيه. تثب فوق العشب الصَّغير الذي نما في الزوايا، وتداعبه، وتحوم في الفراغات، تحمل الأتربةَ الخفيفة، وتمرِّغ بها الحجارةَ، ثمَّ تنسلخ عنها، وترتفع وتتكسَّر عند اصطدامها ببقايا الجدران، وتلتئم ثانية وتنفخ كيسًا بلاستيكيًا أسودَ، عالقًا في أعلى نقطة في الخرابة. وتظلّ مستمرَّة في هذا الفعل. ولا تكفُّ، في أثناء ذلك، عن صفيرها الحزين، ونواح تيهها الأبديّ.

أهي حزينة فعلًا، وتنوح تيهَها؟

إنَّ ذلك هو في الواقع إسقاطٌ بشريّ، إسقاط منّي، فالرِّيح ليست حزينة ولا تنوح بهذا الصفير. إنَّنا نضلِّل أنفسنا بالمعاني عبر محاولتنا جعلَ العالم شبيهًا بنا، يعاني آلامًا وعذابات مثل عذاباتنا وآلامنا، عسى ذلك يُنقذنا من وحدتنا وعزلتنا وغربتنا على هذه الأرض. نريد للرِّياح أن تنوح مثلَنا، وللمطر أن يبكي مثلَنا، وللقمر أن يكون وحيدًا مثلَنا، وللمساء أن يهبط حزينًا مثلَنا.

لا تكفّ الحقيقة عن أن تكلِّلني بالخذلان. أريد وهمًا لا يتصدَّع ما إن تلامسه رياح الحقيقة. ليست الرِّيح حزينة، أمَّا أنا فحزين، أُطيل النَّظر إلى الخرابة كأنَّني أحدِّق في الحزن؛ كأنَّني أرى نفسي واقفًا فيها، تطوِّقني الرِّياح وتصيح في أذنيّ، وتجعل جسدي يهتزّ ويجفّ ويهترئ، بينما أنا أتساءل: هل كنت هنا؟ هل امتلكت شيئًا؟ إلى أين مضى كلّ ذلك الذي لم أمتلكه هنا؟

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ابتعدت عن النافذة وجلست أشرب القهوة، وأدخِّن، إلى أن حلَّ المساء. ثمَّ جاء مازن وتبعه أحمد. في بداية السَّهرة، لم يكن أيٌّ منَّا راغبًا في الكلام. بقينا صامتيْن. وكان صفير الرِّياح لا يكفّ عن أن يعبر من بيننا، مانحًا الصَّمتَ إيقاعَه الكئيب.

سألت أحمد عن أخباره وأخبار زوجته، فنصحني بأن أكفّ عن التَّفكير في مشاكله. لكنّ كلّ المواضيع التي كانت تخطر في بالي فأثرثر بها، كانت تصبّ بطريقة ما في مشاكله. اعترف في النهاية بأنَّ أباه استدان له مبلغًا صغيرًا كي يدفع أجرة بيت يستأجره ويستردّ زوجته. أسعدني الخبر، ولمته لأنَّه لم يفصح عنه فورًا. قال إنَّه لا يدري إن كان هذا المبلغ سيحلّ المشكلة، لأنَّه حتمًا سيتعرَّض للطَّرد من البيت حينما تنتهي الأشهر الثلاثة التي سيدفع أجرتها مقدَّمًا، وسيضطرّ حينها إلى العودة ثانية إلى بيت أهله، ويعود كلّ شيء إلى سابق عهده.

أخذتُ بانفعال أقنعه بألّا يفكّر في هذا الأمر الآن، فمن يدري كيف ستغدو الدُّنيا بعد ثلاثة أشهر. «المهمّ الآن هو أن تستردّ زوجتك».

كنت أقول ذلك وأنا أشعر بالسَّعادة من أجله؛ سعادة غامرة إلى درجة تصل إلى الحزن. لا أدري كيف؟ كأنَّ مشاكل أحمد كلَّها حُلّت؛ كأنَّ مشكلته فقط تكمن في ترك زوجته له الآن، وأنَّه سينجو بعودتها، وتَحِلّ النِّهاية السَّعيدة.

ثمّة حزن غريب ينتابنا حينما نصل إلى النِّهاية، حتَّى لو كانت سعيدة. حزن نابع من خواء ما؛ فراغ ما؛ لاانتظار ما. لا أدري. لا أدري كيف أوضّح تلك المشاعر التي خامرتني.

طرح أحمد فجأة سؤالًا غريبًا:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ تُرى، ما الذي كان سيحدث لو أصرّ إبراهيم على تقديم ابنه أضحية للّـه، بدلًا من الخروف؟ ماذا لو استجاب لكبريائه ورفض أن يرتهن لمزاجيَّة السَّماء؟ ماذا لو عزّت عليه عذاباته وصراعاته وأسئلته التي عاشها وهو يقود ابنه للذبح، فانتقم لها وظلَّ مصرًّا على تقديم ابنه أضحيةً بدلًا من الخروف؟ هل كانت السَّماء ستشعر بالندم؟!

بقيت أحدِّق فيه مندهشًا، ومازن أيضًا، ثمَّ سأله مازن:

ـ ما الذي دفع هذا السُّؤال إلى رأسك؟

ـ إنَّه الخروف الحزين الذي اشتراه أبي كي يضحّي به في العيد.

قلت:

ـ أنا أيضًا، في الحقيقة فكَّرت في هذا السُّؤال سابقًا، إنَّما من جانب آخر. يبدو لي أنَّه كان يجب على إبراهيم أن يرفض من الأساس، قتلَ ابنه كي يثبت طاعته للسَّماء. فخضوعه يعني تمامًا، أن تُرتكب جريمة بحقّ إنسان آخر، كي تبرهن على طاعتك، وتحظى بخلاصك أنت. ربَّما هنا بالذات كان يكمن مغزى ذاك الامتحان؟ ربَّما كان اللّـه ينتظر من إبراهيم أن يرفض، لكنَّه خذله وأطاع؟

فقال أحمد وهو يُطفئ سيجارته ويسحقها في المنفضة:

ـ لو رفض أن يقتل ابنه لكان عاصيًا. لكنَّه لم يعصِ، بل كان مطيعًا وخاضعًا للسَّماء، فعانى وتعذَّب وهو يجرّ ابنه للذَّبح. تخيَّل عذاباته وهو يجرّ ابنه للذبح! هل في وسعك أن تتخيَّل حجم هذه العذابات؟! أراه يسير معذَّبًا ينتحب بصمت، من دون أن يفهم المغزى، لكنَّه لا يشكّ في عظمة الحكمة التي يجهلها من وراء هذا الفعل، ثمَّ يتبيَّن فجأة، أنَّ الأمر اختبار محضّ؛ مجرَّدُ مزاجيَّة ورغبة في الاختبار! إنّي أسمعه يتساءل: «لماذا يجب

عليّ، أنا المطيع، أن أُمتحَن؟ وهل كانت السَّماء تشكّ في طاعتي، وهي تعرف وتسمع كلّ فكرة تجول في خاطري؟» لهذا، كان يجب أن يظلّ مصرًّا على قتل ابنه. لو فعل وقتله، لربّما شعرت السَّماء بالندم.

«ما هذا الهراء الذي تقوله؟ أنت ببساطة شخص مأزوم وتهذر بكلام لا تعرف عاقبته. السَّماء شيء مختلف تمامًا عمّا تقول»، قال مازن بانفعال وتوتُّر كأنّما هذا الكلام استفزّ مخاوف كامنة وراكدة في أعماقه.

وكنت أتّفق معه على أنّ السَّماء لا بدَّ من أنها مختلفة، فهي بعيدة وعالية، إلى درجة تصبح فيها كلّ تأويلاتنا مثيرةً لضحكها.

❖❖❖

زرت بعد يومين عجوز الحانة ثانية. كانوا قد قطعوا ساقه من عند الركبة. وأخذت له، مرّة أخرى، زجاجة عرق، استدنتها من مالك الحانة.

كان المطر لا يزال يهطل في صباح اليوم الذي تلاه. أخذني صوت المزاريب، فنظرت في اتّجاه النافذة لكنّني لم أرَ السَّماء. رأيت جدار البيت المجاور، تفصله عن نافذتي قطعةُ فراغ رماديّ شاحب، حدّقت فيها طويلًا وحزنٌ رهيب يتملّكني، كأنّ السَّماء تغمرني بوابل من الحزن.

كان يعزّيني أنّ اليوم هو الجمعة وأنّني لست مضطرًّا إلى الخروج إلى العمل، ليس اليوم فقط، بل طوال عدّة أيّام قادمة، فقد بدأت عطلة عيد الأضحى. بقيت مستلقيًا في الفراش، أصغي إلى الضجّة التي يُحدثها أحمد في المطبخ. لقد سافر مازن إلى أهله بالأمس، أما أنا فسأسافر اليوم. سأترك مفتاح الشّقة، الخاصّ بي، بحوزة أحمد، كي يصطحب زوجته وطفليه إلى هنا ليقضوا فيها عطلة العيد ريثما يستأجرون الشّقة الموعودة، والتي ساعده مازن في العثور عليها.

حدّقت في السقف مستسلمًا لأحلام اليقظة. يكتسب المرء في هذه الأحلام قدراتٍ إلهيَّةً. يقول للشيء كُن فيكون.

لكن يجب القول إنَّ أحلام اليقظة تبعث على الخمول، فظلَّلتُ مستلقيًا عاجزًا عن انتزاع نفسي منها، غيرَ راغب في العودة أو في السُّقوط ثانية في قبضة الحقيقة. أمامي نافذة تطلّ على بيوت بائسة يبلّلها مطر قليل، وتجفّفها أمطار يوميّة من الهموم والمخاوف والقسوة.

دخل أحمد غرفتي ليوقظني، فقلت له إنّني في حاجة إلى أنثى، فأجابني بأنّني مسكين، ثرثار، ولا أكفّ عن التحدُّث عن التمرُّد والانتحار، لكنّني عاجز عن فعل شيء، «حتّى إنّك لا تجرؤ على الذهاب وحدك بحثًا عن عاهرة».

ـ أين هي تلك العاهرة؟ أريد واحدة تُطهّرني وتُكسبني الحكمة، كما حدث لأنكيدو.

فانفجر في الضحك، وظلّ يضحك. خامرني إحساسٌ بأنّه يريد أن يبكي، غير أنّه كان يضحك. لم أشأ أن أنوّه إلى ذلك، وفضّلتُ أن أنظر إلى ما يطفو على السطح. قلت:

ـ تبدو سعيدًا مثل عريس سيزفُّونه عمّا قريب... أمّا أنا فيجب عليَّ أن أعود اليوم إلى القرية، لأحظى بجرعة من نكد أبي.

ـ أجل، أنا سعيد. وسأضحّي من أجل هذه السّعادة بخروف حزين.

❖❖❖

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

النّهار العاشر

كان رأسي يؤلمني حينما أفقت ظهرًا، لهذا كان لا بدّ من تناول حبّة دواء، وإلّا فإنّني لن أقوى على الوقوف أمام التّلاميذ لأشرح لهم الدروس. ضحكت. تُرى، ماذا في وسعي أن أشرح لهم: اللُّغة؟ هل أفهم أنا هذه اللُّغة؟ هل أفقه استعاراتِها ورموزَها ودلالاتِها؟ كلّ وجعي يكمن في اللُّغة، إذ لطالما استحضرت كلّ كلمة قلتِها لي، فكّكتها، شرحتها، حلّلتها، بحثًا عن معان جديدة تلتفّ حول عنقي وتخنقني بحبال آمال واهمة.

باشرت طريقي، ودخلت، في هذه الطريق، أوّلَ صيدليّة صادفتني، وأنا أفكّر كم سيكون الأمر جيّدًا لو يوافق الصيدلانيّ على أن يبيعني حبّة أو حبّتَي دواء للصداع، فما أملكه من قروش قليلة لا يتيح لي ترف شراء علبة. يجب أن أعثر اليوم على زميل يُقرضني النقود كي لا أموت جوعًا حتّى نهاية الشهر.

وقفت أمام الصيدلانيّ، وأفصحت له عن رغبتي في شراء حبّتَي دواء للصداع فقط. فقال لي أنّه لا يبيع الدواء بالحبّة، بل بالعبوة. قلت:

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

ـ لا أريد شراء عبوة!

ـ لماذا؟

ـ أخشى أن أضعف أمامها وأتناولها مرَّة واحدة، فلديَّ ميول شديدة إلى الانتحار.

أنا، نفسي، لم أعرف لماذا أجبته بذلك، لكنَّني رحت أتفرَّس في وجهه في انتظار ردَّة فعله. انتظرت أن يعبِّر بطريقة ما عن إحساسه بالذَّنب، إذ يجب على الآخرين أن يشعروا بذنبٍ ما حيال انتحار أحدٍ ما، لأنَّ الانتحار هو الجريمة الوحيدة التي يرتكبها هذا العالم بأفراده مجتمعين، إنَّما بيدَيِ الضحيَّة نفسها. ألا يستدعي ذلك منهم، على الأقلّ، الإحساسَ بالذَّنب؟!

لم يعبِّر الصيدلانيّ عن أيِّ إحساس بالذَّنب، بل نظر إليَّ بريبة. ينظر إليَّ جميعهم بريبة! حتَّى أنتِ نظرتِ إليَّ بريبة في أوَّل مرَّة رأيتكِ فيها.

«أعتذر. لا نبيع الدواء بالحبَّة»، قال، فهزَّزت رأسي متفهِّمًا ولم أناقشه، واستدرت خارجًا، لكنَّه نادى عليّ وأنا عند الباب: «هل فعلًا تعاني صداعًا؟» فأكَّدت له الأمر. أعطاني حبَّة دواء مجّانًا، وكأس ماء، وظلّ يراقبني وأنا آخذ الدواء.

حينما دخلت المدرسة صادفني المدير في ساحتها. وقف متعجِّبًا، لا يصدِّق أنَّني وصلت إلى الدوام قبل بدء موعده. فأنا في العادة، وفي حال عدم تغيُّبي، لا بدّ من أن أصل متأخِّرًا. تساءل ساخرًا باستغراب:

ـ لا أصدِّق أنَّك حضرت إلى الدوام مبكِّرًا! ما الذي حدث لك؟

أظنّ أنَّه كان يعتقد أنَّني خفت من تهديداته بالأمس لي، لكنَّني أجبته بالحقيقة:

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ـ لم أستطع النوم في ليلة الأمس. حاولت أن أستدين المشروب من عند صديقة لي تملك حانة، لكنَّها رفضت. كنت آمل أن تديّنني زجاجة صغيرة أشربها وأنام، لكنَّها رفضت. وهكذا بقيت مستيقظًا طوال اللَّيل، وحينما انبلج الصَّباح قلت لنفسي لأذهبْ إلى العمل، بما أنَّني لا أستطيع إلى النوم سبيلًا!

ـ إذن، حضرت إلى الدوام لأنَّك لم تستطع الشرب، ولم تستطع إلى النوم سبيلًا؟

ـ تمامًا.

انفجر في الضحك. وأخذ كرشه يهتزّ وهو يضحك. طريف منظرُ هذا الرجل، السَّمين قصير القامة، وهو يضحك: أسنانه صفراء، وأنفه كبير، وعيناه واسعتان وغبيّتان. رحت أضحك معه.

ـ لكنْ، قل لي: هل تتعاطى المشروب فعلًا؟

ـ أجل.

أجبته ببرود شديد، فانقلبت تعابير وجهه رأسًا على عقب، وراح يبرطم:

ـ وتعترف بذلك بكلّ وقاحة وبرود؟ لا أفهم كيف سُمح لك بأن تكون مدرِّسًا تربّي أجيالًا. هذا أمر في غاية الخطورة.

ـ أفعل ذلك في العادة خارج أوقات الدَّوام الرّسميّ، كي لا أربّي الأجيال وأنا ثمل.

بحلق فيَّ بعينين مكوَّرتين من شدَّة الدَّهشة والغضب، ثمَّ هتف:

ـ اعلمْ بأنَّني سأعمل على طردك في القريب العاجل.

ـ لا بأس. افعلْ ما يحلو لك!

ويا للذة الشُّعور الذي انتابني وأنا أصغي إليه، ثمَّ أتركه وأمشي إلى داخل المدرسة من دون أيّ قلق: لذَّة الشعور بالبلادة واللّامبالاة، كما لو أنَّني أصبحت حرًّا فجأة؛ كما لو أنَّني صدَّقت أخيرًا أنَّني لا شيء سوى خروف حزين.

❖❖❖

ركضتُ خلف الخروف الحزين الذي أفلتَ من يدي. كان أبي فرض عليَّ أن أشارك في عمليَّة الذَّبح، كي أكتسب شيئًا من الرُّجولة التي أفتقدها، كما يعتقد، وكنت رضخت، ليس له أو لاعتقاداته بشأن الرُّجولة، إنَّما لرجاء أمِّي التي خافت أن يتحوَّل العيد، بسبب رفضي، إلى كابوس. أخرجت الخروف من الزريبة، ولست أدري إن كان أفلتَ من يدي عنوة، أم أنَّني أفلته عمدًا، فهرب قبل ذبحه. كنت أركض، ويلوِّح أبي من بعيد بالسِّكين التي في يده، متوعِّدًا بأنَّه سيذبحني أنا بدلًا من الخروف، إن لم أمسك به فورًا. لم أكن أطارد الخروف وحدي، فأخواي أيضًا راحا يطاردانه، لكنَّه يهدِّدني أنا. أركض خلف الخروف، والخروف ينوح: «سأختبئ بين الأعشاب الطويلة فلا تخبر أحدًا بمكمني. سأختبئ بين الأعشاب القصيرة فلا تخبر أحدًا بمكمني. سأختبئ بين القنوات والتُّرَع فلا تخبر أحدًا بمكمني»[1].

قبض أخي على الخروف الحزين، وهدأ غيظ أبي بينما ضحيَّته تُجَرّ إليه، ورفع طرف ثوبه وثبَّته في مطّاط سرواله، وسلَّموه الخروف، ورأيته يطيح به أرضًا، ويمكث فوقه كي يثبِّته. رأيت البريق في عينيه وهو يهوي بالسِّكين على رقبة الخروف، ثمَّ سمعت صرخة الخروف، رأيت بعدها الدِّماء تنفر وتتدفَّق. رأيت

(١) من «أسطورة تموز»: في أثناء هربه من عفاريت الموت.

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

الدِّماء حمراء قانية، تتدفَّق عبر الأعشاب الطويلة، وعبر الأعشاب القصيرة، تسيل في القنوات والتُّرَع، وتلمع تحت الشَّمس قبل أن تتشرَّبها السَّماء.

أيُّ بهجة تستقيها من طقوس طاعتك؟! أيُّ غفران تنشد؟ أيَّ خطيئة ارتكبتَ يا أبي؟

عدت إلى البيت. أغلقت الغرفة على نفسي، وأغلقت النافذة أيضًا، وأسدلت السّتارة عليها، وتمدَّدت في الفراش حتَّى المساء. وظلَّت صورة أبي وصوته في أثناء ذلك يتسرَّبان من شقوق الخيال، وينتصبان أمامي في الضوء الشَّاحب: يرفع طرف ثوبه مثبّتًا إيّاه في مطاط سرواله، متحمّسًا والسّكين تلمع في يده، والدِّماء تتدفَّق وتملأ القنوات والتُّرَع ويبتسم لها وجه السَّماء. رأيت أبي يشقّ بطن الخروف ويستخرج أحشاءه، ثمَّ يقسم قطعة من كبده السَّاخن ويتناولها نيئة، فيصيبني الغثيان وتنتابني رغبة في التقيؤ.

ثمَّ أفكِّر في أحمد. لا بدَّ من أنَّه الآن بصحبة زوجته. لا أريد لهذه الفكرة أن تُحزنني، لكنَّها، على الرَّغم منّي، تثير في قلبي ترسُّبات أسًى راكد، كالرَّمل، لا أعرف كيف أداويه.

في ذلك النهار بالذَّات؛ في ذلك العيد بالذَّات، عيد الأضحى، وفي تلك اللّحظات التي شرع فيها ضوء الشمس يذوي ويُغرقني في كآبة عارمة؛ في تلك اللّحظات بالذَّات، رنَّ جرس هاتفي، وسمعت مازنًا. كان مضطربًا جدًّا، يلهث وصوته يرتجف، وهو يخبرني بأنَّ أحمد انتحر. نحر نفسه بالسّكين التي كانت مُعَدَّة لذبح الخروف. «تصوَّر! نحر نفسه بيده!»

ظلَّت الكلمات تجول في العتمة من حولي، وظلَّ صداها يتردَّد، فتضجّ الغرفة بالأصداء كأنَّ ثمَّة أشباحًا تتلوها:

انتحر. انتحر. انتحر. أخذ السّكين من أبيه، تلك التي سنّها والده جيِّدًا كي يذبح بها الخروف... أخذ السّكين من أبيه، وقال له دعني أنا

أفعل ذلك يا أبي. أخذها منه، أخذها منه وقال له: دعني أنا أذبح الخروف. أريد أن أذبحه أنا يا أبي. وابتعد قليلًا. أجل، ابتعد بحجَّة أنَّه يريد التأكُّد من حدَّة نصل السّكين، ابتعد ونظر إلى السَّماء، وقال لها: خذي دمي أيَّتها السَّماء. أجل، قال لها ذلك. قال لها: خذيني أنا أيَّتها السَّماء قربانًا بدلًا من الخروف. أريد لدمائي أن تصل إليك كي تشعري بحرارة الألم الذي يجري فيها. وأريد لروحي أن تبقى هنا على الأرض. قال ذلك ونحر نفسه. نحر نفسه من الوريد. وسقط، وتدفَّقت دماؤه، وفاضت روحه وأغرقت الأعشاب الصغيرة والكبيرة. سالت في القنوات والتُّرَع. أغرقت الشوراع. أغرقت الهواء بضوء ملتهب. فاضت روحه كعاصفة حطَّمت سكون الطمأنينة فتكسَّرت مثلما يتكسَّر الزجاج. فاضت روحه المعذَّبة من عينيه، فغام فيهما الضَّوء، ثمَّ أصبح شاحبًا، ثمَّ انطفأ.

«ما الذي حدث لك؟ - سألتني أمِّي حينما خرجت من الغرفة - فوجهك أسود كمن دفن غاليًا؟»

لم أدفنه يا أمِّي، لكنَّ دماءه تسيل من حولي وتخنقني؛ لكنَّ صوته يسيل من حولي ويمزِّقني؛ لكنَّ روحه تفيض من حولى وتُغرقني. لم تسمعني أمِّي، لأنَّ صوتي كان يصرخ في أعماقي. كان صوتي محبوسًا، وكنت عاجزًا عن النُّطق.

وقفت في منتصف اللَّيل وحيدًا أنبح في وجه الغيم: فلتُجبْني: ما مغزى هذا الألم؟ فلتُجبْني عن الغاية من كلّ هذا العذاب؟ فلتُجبْني: من هو ذلك المتعطِّش في هذا الكون إلى كلّ هذا الخوف؛ إلى كلّ هذا الدم وهذه الآلام؟ أعوي، وفي ذهني يجول مشهد بروميثيوس المقيَّد إلى عمود في أقاصي الكون، محرومًا من مغفرة يرفض استجداءها. أرى أحمد ينزف دمًا من رقبته، مقيَّدًا إلى عمود الكهرباء، هنا، في أقاصي الكون، معذّبًا،

ينزف دمًا من وريده يا مازن. من وريده الذي قطعه بيده كي يعلن تمرُّده. أتسمعني؟ أترى مثلي عينيه اللَّتين تحدِّقان، بتلكَ النَّظرة المأساويَّة، تحدِّقان في البيوت والنائمين فيها، وفي الحجارة وكلّ شيء ميّت؟ أترى روحه الحيَّة تحدِّق في الأرواح الميِّتة، وتحسدها؛ تحسد كلّ شيء ميّت على سعادته، لأنَّ الأسئلة لا تعذّبه؟ أترى مثلي دماءه التي اسودَّت من شدَّة اليأس والحزن، فبات العالم مظلمًا ما إن تدفَّقت؟! أترى مثلي يدَه وهو يجثو فوق روحه كي يثبّتها وكي تهوي السّكين على رقبته؟ أترى مثلي روحه وهي مقيَّدة تطلّ من عينيه صارخةً: «ها أنا أفعلها. ها أنا أتحرَّر. ها أنا أسقط في الظلام، وفي حرِّيَّتي».

لم يكفّ جسدي الهزيل عن أن يهتزّ ويرتعد، كأنَّ الحياة تتبخَّر منِّي مع كلّ ارتعادة تهزّني، فأذبل وأجفّ، وأغدو تمثالًا من غبار يقف في لجّة العتمة، سينهار عمَّا قريب بفعل نسمة، وتطير ذرّاته في الهواء، يا صديقي.

أَسنديني أيَّتها السَّماء؛ أَسنديني وتقبَّلي دموعي قرابينَ، بدلًا من الدِّماء. تقبَّلي دموع الناس قرابين بدلًا من دمائهم. أسنديني كي أقف، أنا الكائن الهزيل والضئيل، والذي يعوي متسائلًا عن مغزى الألم. ها أنا أبكي أحمد، ها أنا أندبه، وها عيناي المطفَأتان تنظران إلى هناك، إلى حيث اللّارجوع. وها قلبي يندبكَ يا صديقي، مثلما تبكيك عظامي. ها هي الدُّروب التي سِرْتَ فيها تندبك، مثلما تندبك البراري. ها صوتي يندبك، وهو يتيه مع الرّياح باحثًا عنك. وها هو اللَّيل يخبرني بأنَّك لن تعود. ويخبرني النوم، يا صديقي، بأنَّك لن تنام. ويخبرني الصحو، يا صديقي، بأنَّك لن تصحو. ويخبرني المطر، يا صديقي، بأنَّك لن تعبأ به. ويخبرني البرد بأنَّك لن ترتعش. وتخبرني الشمس بأنَّها لن تلوّحك. ويخبرني الألم بأنَّه لن يصفّر في قلبك بعد اليوم. ويخبرني صوتي بأنَّه لن يصل إليك. وتخبرني عيناي بأنَّهما

لن ترياك. وها أنا أسمع صوت بكائي يلفّ في هذا الظلام، يعصف كالرِّيح، وأسمع من بعيد صداه يرجع من الهضاب والقرى الأخرى مضمَّخًا بالدِّماء. مَن الذي اغتالك يا صديقي؟

❖❖❖

أرداني الحزن على أحمد طويلًا، وسحقني الألم. حاصرني في الشوارع، وفي الغرف المظلمة. شعرت، بانتحاره، بأنَّني مُنيت بهزيمة حياتي الكبرى. كيف عجزت عن إنقاذه؟ لو كنت خائفًا عليه فعلًا، لَمنعت انتحاره، لكنَّني لم أفعل شيئًا حقيقيًا. لم أفعل شيئًا! كلَّما خطرت في بالي تلك الأفكارُ كنت أختنق، وكان الضوء المتسلِّل من النافذة يضطرب، ويتفتَّت ويذوب ويتلاشى. الضَّوء، كما رآه بعينيه في لحظاته الأخيرة: يغيمُ ويصبح شاحبًا، ثمَّ ينطفئ. هل سأقوى على رؤيته أنا؟ أسأل نفسي برعب كلَّما عدت إلى غرفتي، حيث أمضى معي أحمد أيَّامَه الأخيرة، ورأيت مكانه الفارغ، وقد احتلَّه الحزن وطنينُ الأيَّام الماضية. وأراه في اللَّيل في الزوايا لا يكفّ عن التِّكرار: القَصَبُ لا يدرأ الزمهرير، وكوخي من قَصَب.

كان يوقظني أحيانًا قائلًا: «كيف لك أن تنام ودمي يحيط بك؟». وفي الصَّباح، لا أحدِّث مازنًا عن كوابيسي، لأنَّ ما حدث هزَّه أيضًا، فبات رجلًا صامتًا وحزينًا للغاية. أنا أيضًا كنت أغرق في الصَّمت. أذهب إلى العمل، حيث لم يفيقوا بعدُ من دويّ هذا الانتحار الذي هزّ المدينة، فيُعيدون يوميًا فعلَ إدانته، ويبعثون يوميًا بأحمدَ إلى الجحيم.

لم أستطع البقاء في تلك المدرسة. قلت لمازن إنَّني سأقدِّم طلبًا للنقل، لأنَّني لا أستطيع البقاء في هذه المدينة، ولا النومَ في هذه الغرفة، التي ينام فيها شبح أحمد قبالتي، ولا ينفكّ يحدِّق فيَّ بعينين مرعوبتين طوال اللَّيل. لكنَّه ظلّ يرافقني على مدار العامين التاليَين. كنت على وشك

الجنون، بل إنَّني ذهبت إلى الأطبَّاء النَّفسانيِّين كي يساعدوني، فقد صرت إنسانًا خائفًا طوال الوقت، كأنَّ ثمَّة قوَّة غامضة ستسحقني في لحظة ما؛ كأنَّ شيئًا فظيعًا ورهيبًا سيحدث، ولن يكون في وسعي صدُّه. شيء ما سيحدث في الظلام. بيد أنَّ أشدَّ ما أقلقني، في تلك الفترة، هو الضَّحكُ. راحت تنتابني نوبات ضحك هستيريّ لا أدري سببها، ثمَّ توقَّفتُ عن الضحك، لكنَّني بقيت خائفًا، وخصوصًا أنَّ إلحاح أحمد المتواصل قضَّ مضجعي. كان يقف في كلّ ليلة في الظلام عند طرفَي قدَمَيّ، محدِّقًا فيَّ بلا انقطاع إلى أن أستيقظ، وأُصغي إلى صوته المبحوح وهو يعاتبني مؤنّبًا: «أنت لم تكلّفْ نفسك حتّى تفاهةَ السُّؤال عن طفلَيّ».

لم يكن العائق يخصّ طفليه، بل يخصّها هي. لم أكن راغبًا في التَّعرُّف إليها ورؤيتها.

بيد أنَّني انصعت لرغبته في نهاية المطاف.

كان عليّ أوَّلًا أن أذهب إلى بيت أهل أحمد كي أعرف عنوان بيت أهلها، فهم الوحيدون الذين يسعهم أن يدلّوني عليه.

بعد مرور ما يقارب ثلاثة أعوام على انتحار أحمد، كانت تلك هي أوَّل مرَّة أعود فيها إلى الزرقاء. كنت أتخيَّل أنَّ الأيَّام والسَّاعات التي عشتها برفقته هو ومازن على مدار عام، بقيت هناك، منسيةً يدفنها الغبار. مشيت في الشوارع، التي مخرتُها في السَّابق كثيرًا، وعرَّجت، قبل أن أقصد بيت أهل أحمد، على البيت الذي عشت فيه مع مازن، فقد تركت عند مالك البقالة في الجوار كراتين كتبي. قال لي إنَّ كرتونة واحدة فقط لا تزال موجودة، فقد اكتشف أحد الزبائن ذات يوم هذه الكتب، ولأنَّني لم أعد، سمح له بأن يأخذ ما يشاء منها. لم أنزعج. اتَّفقت معه على أن أعود إليه بعد ساعة لآخذ الكرتونة المتبقية. اتَّجهت إلى بيت أهل أحمد، ولم أستطع المكوث

طويلًا فيه، إذ كان طيف أحمد يجول فيه. شربت على وجه السرعة فنجان القهوة الذي أصرَّت أمُّه على تقديمه إليَّ، وخرجت، بعد أن حصلت منهم على مبتغاي.

بحثت في طريق عودتي عن عجوز الحانة. أخبروني بأنَّه مات. لم أحزن لموته، لست أدري لماذا: ألأنَّني استهلكتُ كلّ ما لديَّ من حزن على أحمد، أم لأنَّ هذا الخبر لم يفاجئني كأنَّني سمعت به منذ زمن طويل؟ كنت، في الشهرين اللذين تليا انتحار أحمد، أصادفه أحيانًا في طريقي، بقدم ونصف قدم. أبكي أمامه دموعي، ونقمتي على الحرب التي طحنت أحمد. وكان يحدّق فيَّ صامتًا، كأنَّما فقد مَلكة الكلام... كأنَّما مات.

بقيت واقفًا في المكان الذي كان يجلس فيه ذاك العجوزُ أمام الحانة، أُنصت، لا أدري إلى ماذا. كأنَّني أبحث عن صوته في تلك البقعة الصَّغيرة من الهواء. ثمَّ سألت نفسي: هل حقًّا تتلاشى الأصوات؟ وخطر لي أنَّ الأصوات تبقى، كسائر الأشياء، ولا تتلاشى. لكنَّها تصبح أطلالًا بمرور الزَّمن، كبيت مهدَّم الجدران؛ كأنقاض أعمدة قصر ملقاة على الأرض؛ كقطعة سقف تستند إلى بقايا جدار. أفكِّر في أنَّ أطلال أحاديثنا؛ أطلالَ صوت العجوز؛ أطلالَ كلام أحمد، تنتشر من حولي من دون أن أراها: هنا حديث سقطت منه بعضُ الكلمات التي تحمل الفكرة، ونبتت عليه طحالبُ كلمات رماديَّة. وهنا كلمة وحيدة نَجَتْ من الحطام. وهناك أنين كسّر حوافَّه الزَّمنُ، وإن اصطدمتَ به جرحك. وهناك ركام أغنية سمعناها معًا، امَّحَتْ من بعض جوانبها الموسيقى. وعلى بعد مسافة، وتحت ذلك الضَّجيج، ضحكٌ مفتَّت. وعلى حوافِّ تلك الطريق نُتَفٌ من صوت خطانا الكثيرة تحملها السَّاعات وترمي بها من جهة إلى أخرى، مثلما تعبث الرِّياح بأوراق الشجر في الخريف. وعند تلك الطاولة، مقاطعُ شعر متناثرةٌ ألقيتها ذات مساء، والآن يصعب توليفُ قصيدة منها.

عدت من الزرقاء أحمل كرتونة الكتب، وعاصفةَ حزن تعوي في داخلي. وانطلقت بعد ذلك أبحث في أحد أحياء عمّان الفقيرة عن بيت أهل زوجة أحمد.

سرت في حرّ الظهيرة بخطى ثقيلة، في الحيّ الفقير. كان الشارع قذرًا ومقفرًا، تحدُّه من الجانبين بيوتٌ بائسة ذاتُ أسيجة من الطوب العاري والذي لا يغطِّيه الياسمين، بل شعاراتُ «اللّـه أكبر»، وشعاراتٌ دينيَّة أخرى، بالإضافة إلى خربشات تلعن الحياة، أو تبكي عذابات الحبّ، أو تستجدي المغفرة. وكانت عينا أحمد تُطلّان عليّ بين الفينة والأخرى، من بين تلك الخربشات: عينان طافحتان بالدُّموع المتحجّرة. وكنت أسأل نفسي: تُرى، ما مصير تلك الدُّموع المكبوتة إن متنا قبل أن نذرفها؟ هل تتحلَّل مع تحلُّل جثثنا وتفسُّخها؟ هل تتحلَّل أرواحنا مع أجسادنا؟! هل تتحلَّل وتتفسَّخ معها ألامُنا؟ وإذا تحلَّلت الدُّموع فإلى ماذا؟! ما هي مكوّناتها الأولى؟ أهي ملح وماء؟ أهي مجرَّد ملح وماء؟ ماء وملح؟

كان يبدو لي أنَّ الألم أيضًا سيتحلَّل ويتفسَّخ، تمامًا مثلما تتحلَّل وتتفسَّخ جثثُنا، يومًا بعد يوم، إلى أن يعود إلى مكوّناته الأولى: ملحٍ وماء، ولا شيء آخر. إنَّ الأمر ببساطة على هذا القَدْر من التفاهة. لكنَّني كنت أشعر، في المقابل، بحَلْقِ الأرض يغصّ بملح آلامنا، وأرى السَّماء ملبَّدة بالغيوم كروح معذَّبة. وكنت أهيم ما بين السَّماء والأرض، تمتلئ عيناي بالماء والملح، وعينا أحمد تجرَّانني من يدي كلَّما تباطأت خطواتي.

طرقت الباب ففتحته امرأة في السّتين. قلت لها إنَّني جئت إلى هنا كي أطمئنّ على أحوال طفليْ أحمد، فردَّت باقتضاب: إنَّهما بخير. ثمَّ سألتني إن كنت من أقربائه، أو من طرف أبويه، فنفيت وأخبرتها بأنَّني كنت صديقًا مقرَّبًا إليه. اعتذرت منِّي بأن ليس في وسعها دعوتي إلى الدُّخول، فزوجها غائب في هذه السَّاعة عن البيت، أمَّا الطفلان فنائمان.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

فكَّرت في أنَّها تكذب، وسألتها عنها. قالت إنَّ الزَّمن يُعينها على النسيان. «لهذا، من الأفضل ألّا تعود إلى هنا، كي لا تنكأ جراحها». أعطيتها بعض الهدايا التي اشتريتها للطفلين، وقلت لنفسي إنَّ من الجيِّد أنَّها لم تخرج، لأنَّني لا أريد رؤيتها، بيد أنَّني، لسبب غامض، كنت أشعر بالخذلان.

ولم أعد، ليس فقط نزولًا عند رغبة أمّها، بل لأنَّني أنا أيضًا كنت أَنشد الخلاص في النسيان: نسيانِ أحمد ونسيانِها.

رحت أبحث عن كتبي التي تركتها ذات يوم بعيد عند حارس مصريّ. قالوا لي إنَّه سافر منذ عامين، لكنَّني عثرت على الكتب في مكانها الذي تركتُها فيه: في غرفة محرِّكات التَّدفئة، داخل كرتونة مهترئة وممزَّقة الأطراف، تقبع تحت كومة من الأشياء الفائضة عن الحاجة: بقايا أثاث مكسَّر؛ أنقاضِ مكنسة كهربائيَّة؛ سجّادةٍ قديمة؛ أواني مطبخ وأشياء أخرى كنت أرفعها عن الكرتونة، كأنَّني أحفر قبرًا لأُخرج منه كائنًا دفنوه ولا يزال حيًّا. كنت أسمع الكتب تتنهَّد كلَّما خفّ الثقل عنها قليلًا.

آهٍ، يا كتبي العزيزة، ما الذي حاق بك؟ أسألها وقد راعَتْني الأوساخُ التي تسلَّلت إليها، والعفنُ الذي اجتاح أطرافها، والرُّطوبةُ التي غزتها، فتجعَّدت أوراقها واهترأت كأنَّها شاخت. آهٍ، يا كتبي العزيزة، يا شجرة المعرفة التي تُرعب أبي. فلتغفري لي هجري، فقد كنت مريضًا أبحث عن شجرة للحياة، أنتحب في ظلِّها بدلًا من الضحك في الطُّرقات الموحشة.

حملتها إلى شقَّة صغيرة استأجرتها حديثًا في حيّ ماركا. شقَّة بائسة، مكوَّنة من غرفة ومطبخ صغير ومدخل صغير أيضًا، عدَّه مالكُها غرفةَ معيشة. تُطلّ نافذتا غرفتها ومطبخها على خلفيّة العمارة المجاورة لها، حيث أرى، كلَّما نظرت من النافذة، أنابيبَ التمديدات الصحيَّة، وأشمّ رائحة المجاري، وأسمع غناء امرأة تبدو لي سمينة. أخرجتُ الكتب من الكرتونة ووضعتها

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

قرب النافذة كي تتنفَّس الهواء وتُشفى. أنا أيضًا أريد أن أُشفى: من الخوف ومن العبث. أريد استرداد ذلك البريقَ الحادَّ للوهم الذي كان يقودني في ظلمة الطُّرقات، ذاتَ يوم بعيد.

رَكَنْتُ الكتبَ، بعد أن جفَّت، بعضَها فوق بعض، إلى جانب الكتب الأخرى التي استرددتها من عند بائع البقالة في الزرقاء.

عدت إلى القراءة التي لطالما وجدتُ فيها ضالّتي، وإذ لم يبق في حوزتي ما لم أُعِدْ قراءته، اتَّجهت إلى مكتبة شومان، أفتِّش طوالَ عام بين رفوفها، عن كتب تجيب عن أسئلتي؛ عن كتاب يشرح لي مَن هو، وما هو الإنسان؛ عن مغزى هذا العبث.

كنت أقرأ بِنَهم، وحينما رفعت رأسي عن الكتاب ذات يوم خريفيّ، رأيتها تحدّق فيَّ: امرأةٌ شابَّة وجميلة، تجلس قبالتي على بعد طاولتين فارغتين من طاولتي، وتحدّق فيَّ بفضول ونظرات عميقة متفحّصة.

❖❖❖

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

اللّيلة العاشرة

امتلأت غرفتي بالفراشات الصَّغيرة. يعني ذلك أنَّني مقبل على انهيارات عظيمة. أنا رجل ينتظر الطوفان؛ ينتظر أنْ تحطّ فراشة صغيرة عليه، فيهتزّ وتسقط آخر قطرة حياة عن وجهه.

رأيت أحمد في العتمة حينما أطفأت الضَّوء. رأيته ببذلته الرَّخيصة وربطة عنقه؛ بمظهره الرَّصين ذاته الذي كان يواجه به الألم.

كان يجول في الغرفة يتحسَّس جدرانها باحثًا عن نافذة. «ليس ثمَّة نافذة!» قلت له، فتوقَّف ونظر إليّ متسائلًا: «هل لك أن تخبرني ماذا تنتظر؟ وماذا كنت تنتظر؟»

ثمَّ ابتسم: «تخيَّل لو أنَّ هذه هي النهاية. تخيَّل لو أنَّه، بعد اليوم، لن يكون ثمَّة مبرّر للانتظار. تخيَّل أنَّه لم يبق في حوزتك شيءٌ، سوى الحلم القديم. تخيَّل كم سيتوجَّب على هذا الحلم أن يزوّد الأيَّامَ بمسوِّغاتها. تخيَّل اللَّحظة التي ينضب فيها كلُّ شيء، ولا يبقى سوى حلم. تخيَّل لو ينضب الحلم أيضًا. تخيَّلْ!».

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

وراح يضحك، وهو يحدّق في الفراغ برعب. كيف أنجو من هذه الذاكرة؟ كيف أنجو من الخوف؟ كيف أنجو من الانتظار؟

وراح ذهني، لسبب ما غامض، يتخيَّل العجوز صاحب العكّاز، والذي التقيته قبل نحو أربعة أيَّام، وراقبنا أنا والطفلَ المتسوّل. «أنا هو ذلك الثالث»، قال لي. تخيَّلته ميّتًا، وجثّته تتعفّن في غرفة ما. ثمَّ رأيت العجوز، الذي عاش قبلي في هذه الغرفة، ممدَّدًا فيها، يتلوّى وهو يتعفّن. ورأيت أيضًا عجوز الحانة، لا يكفّ عن القول إنَّه سئم هذه الحرب. رأيته يتعفّن أمام تلك الحانة.

مَن كلّ هؤلاء؟ لماذا التقيتهم؟ خطر في بالي فجأة أنَّهم ليسوا ثلاثة، بل عجوز واحد. عجوز لا يكفّ عن أن يطاردني، بوجوه مختلفة.

أخشى إطفاء الضوء في الغرفة. أنقل نظري من فراغ إلى آخر، ومن حولي ثلاثة رجال مسنّين يحدّقون فيَّ، إلى أن أذّن للفجر؛ إلى أن رأيت الضوء الشاحب يتسلّل من الشقوق. وشيئًا فشيئًا، وبينما تلك الخطوط تزداد صفاءً، شدَّني غياب يشبه النوم. رأيت في هذا الغياب وجوه هؤلاء الرجال المسنّين الثلاثة، تتداخل فيما بينها إلى أن تغدو وجهًا واحدًا... وجهي أنا.

❖❖❖

إذن هي، زوجة أحمد! أردّد لنفسي ذلك، وأنا أقف عند الإشارة الحمراء؛ وأنا أستأنف المسير؛ وأنا أدخل شقّتي؛ وأنا أستلقي في الفراش؛ وأنا أواجه الصَّباح البليد. أكرّر لنفسي ذلك في كلّ لحظة، في كلّ يوم. أكرّر بوجع وأسًى. وفي الوقت ذاته، أجل، أجل، في الوقت ذاته، أسمع قلبي يعزف في السرّ أنغامًا، وينسج منها أحلامًا، تظلّلني للحظات كغيوم عابرة في نهار جافّ: إنَّها المرأة التي كنت أنتظرها.

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

أصمُّ أذنيَّ، لعلّ ذلك النغم يخمد. لكن، ما إن يستجيب قلبي ويخبو رفيفُ تلك الأحلام، حتّى أهبّ فجأة واقفًا مذعورًا كمن فقد شيئًا عزيزًا عليه. أجول في غرفتي ذهابًا وإيّابًا. أروح وأجيء حتّى تهلك قدماي، كأنّني ضلّلتُ الطريق. تئنّ في داخلي مخاوفُ غامضة وأحزانٌ جسيمة، وفرحٌ خبيث، كعصفير بعيد لرياح سجينة. مرّ أسبوع انقطعتُ فيه عن الذهاب إلى المكتبة. كيف لي أن أتوقّف أيضًا عن التفكير فيها والشوقِ إلى رؤيتها؟

كان أحمد حدّثني عن اليوم الذي تركَتْه فيه. كانت متوتّرة، وكان هو يجلس على الأرض صامتًا. وبينما كانت تريد تناول شيءٍ ما عن الطاولة قبل خروجها، اصطدمت يدها بالمنفضة فسقطت، وتناثر الرّماد وتناثرت أعقاب السجائر وشظايا الزجاج على الأرض. وكان يقول لي إنّه كلّما عاد إلى الغرفة يجد أعقاب السجائر وقطع زجاج المنفضة التي سقطت لحظة خروجها، لا تزال مبعثرة على الأرض، كأنّها سقطت للتوّ؛ ويجد الرماد لا يزال منثورًا؛ ويجد القميص الذي كانت تنوي ارتداءه، وعدلَتْ في اللّحظة الأخيرة، لا يزال ملقًى على الكرسيّ؛ ويجد الضباب الذي غمر ذلك النهار لا يزال ماكثًا خلف النافذة؛ حتّى إنَّ الأفكار التي راودته وهو جالس على الأرض، يراقبها بصمت، لا تزال تطفو في الهواء. لقد قال لنفسه: ماذا في وسعك أن تقدّم إليها سوى الهموم والدُّيون والتّعاسة اليوميّة، ويَدَيْن تعود بهما فارغتين لا تحملان شيئًا لها أو لطفليك؟ فلتدعْها تذهب. كان يقول ذلك لنفسه، ويتأمّل في الوقت ذاته، حدوثَ معجزة، تمنعها من الذهاب.

ثمّ صار يعود إلى الغرفة ويُلقي نظرة على كلّ شيء فيها، من دون أن يلحظ أيّ تغيُّر. فكلّ شيء فيها لا يكفّ عن أن يظلّ على حاله. لا القميص يعود إلى الخزانة، ولا الضبابُ ينجلي، ولا قطعُ الزجاج تلتئم وتعود إلى شكل المنفضة، ولا حتّى أفكارُه تتغيَّر. وكانت هذه العودة اليوميّة تجعل

نهاراته تضجّ بصفير يطغى على كلّ شيء، ويمرّغه بالمرارة والألم، فلا يقوى على المبيت في تلك الغرفة، ويأتي إليّ، يسألني:

ـ أتظنّ أنَّ هذا الشَّقاء قد ينتهي يومًا؟

ـ أظنّ أنّني سأُنهيه ذات يوم، فكلَّما فكَّرت في غربتي وجروحي التي لا تندمل، يُغويني أن أسدل السّتارة بيدي على هذه المسرحية التي زجّوني فيها من دون أن أقرأ نصّها أو أفهم مغزى الدور الذي أؤديه.

ـ أنت تقول ذلك من قبيل الثرثرة ليس إلَّا، فأنت جبان ولن تجرؤ على إسدال هذه الستارة.

كان يقول ذلك لي، وكان محقًّا. أنا جبان وخائف.

تؤلمني عيناي من كثرة التحديق في الأشياء: التحديق في النهار الذي أصبح هشًّا يمزّقه ضجيج الحوافل، والنَّوافذِ المفتوحة، وخطى الغرباء وضوضائِهم، ورائحةِ الخبز الطازج، وأسرابِ الطيور في السَّماء الباهتة. تتناثر شظايا النهار وشظايا الأحلام، كقطع زجاج منفضة مليئة بأعقاب السجائر، سقطت على الأرض، وها أنا أسير عليها حافيَ القدمين. أتذكَّر خيالاتي وأنا أنتظر حضورها في السَّاعة الثانية، وكيف كنت أحلم بلقاءات أخرى معها ستتكرَّر في المقاهي على الرَّصيف. أرنو إلى تلك الخيالات، كأنَّها أطلال ذكريات، يؤلمني ويعذّبني أنّني لن أعيشها حتّى في الخيال، فقد كنت أنظر إليها بخوف وقلق. خيالات لن تعلّمني سوى معنى الحرمان من الحنين الشَّجيّ إلى الأمكنة.

وفي يوم آخر، وإذ أخذ العمل يدنو من وقت نهايته، رحت أعدّ نفسي للخروج بقلق، كأنَّني على وشك ارتكاب جريمة. خطر في بالي راسكولنيكوف، مردِّدًا سؤاله، لكن على لسان أحمد: «كنت فقط أبحث

عن موطئ لقدمي، فما الذي حدث لي؟»[1]. تذكَّرت أنّني قرأت ذات مرَّة مقالة عن الأدب الروسيّ، لروائيَّة مغمورة عاشت طويلًا في روسيا، تقول فيها إنَّ معظم أسماء أبطال أغلبيَّة الأعمال الأدبيَّة الرُّوسية ليست حقيقيَّة، وليست متداولة بين الرُّوس، وإنَّها من تأليف الكتّاب أنفسهم، فتلك الأسماء اشتقَّها الكتّاب من أفعال، ليخدمهم الاسم في رسم الشَّخصيَّة، ويغدو بذاته مفتاحًا آخر لفهمها. إنَّه يختزلها. وقدَّمت الكاتبة في تلك المقالة، الكثير من الأمثلة، أوَّلها كان راسكولنيكوف، الاسم المشتقّ من فعل التَّشظي والكسر والانكسار.

أنا هو ذلك المتشظِّي. لا أنوي قتل عجوز مرابية شمطاء، بقدر ما أنا مرعوب من قتل صديقي المتوفَّى. ركبت حافلة مسلِّمًا أمري للشيطان، كي ينتشلني بيدين حانيتين من هوَّة الإحساس بالذّنب. تركته يتسلَّل بهدوء وصمت على رؤوس أصابعه ليُطفئ الضَّوء في ذاكرتي، فيتوارى أحمد ويختفي رويدًا رويدًا في العتمة، تمامًا مثلما تتوارى عائشة.

لقد كانت هناك. ما إن رأتني حتَّى جاءت إليّ. ربَّاه كم يعجبني أنَّها هي التي تبادر. سألتني:

ـ أكلُّ شيء لديك على ما يرام؟

ـ أجل، ما الذي يدعوك إلى هذا السُّؤال؟

ـ لم أرَكَ هنا منذ أسبوع.

غمرني سؤالها بسعادة دنيئة، فها هي تفتقدني أيضًا. برَّرتُ لها الأمر بانشغالٍ بأمر ما، لكنَّها لم تصدِّقني. قالت:

---

(١) راسكولنيكوف: بطل «الجريمة والعقاب»، لدستويفسكي.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ هذا جيّد، فقد اعتقدت أنّك كنت تعاني جرّاء أثر الصدمة التي ألمّت بك بعد اكتشافك أنّني كنت زوجة صديقك الحميم.

فاجأتني صراحتها. صراحة بدت فيها الحقيقة سلسة وأليفة، كقطّة صغيرة تحكّ جسدها بقدميك، ولن تغافلك وتعضّك. وشجّعتني على أن أكون صريحًا أيضًا. قلت:

ـ في واقع الأمر، هذا هو السّبب. كنت أنسى نفسي طويلًا وأنا أحدّق في الفراغ. لم أعرف كيف أتوقّف عن التفكير.

تساءلت بتهكُّم ضاحكة:

ـ لكن، لماذا تتوقّف عن التّفكير؟ ماذا ستفعل برأس فارغ؟

سحرني البريق الذي شعّ في عينيها السّوداوين وهي تضحك، تمامًا كالبريق الذي يشعّ في عينَي طفل لا يزال يثق بهذا العالم، ولم يختبر التعاسة بعد. ألم تختبر التعاسة بعد؟ وخزني هذا السّؤال، وأنا أضحك معها. قلت على نحو تلقائيّ:

ـ أطمح إلى أن يفرغ رأسي من الخوف.

«الخوف ممَّ؟» سألتني وهي تنظر إليّ بدهشة.

«من هذه الحياة»، قلت، وكانت هذه الإجابة التقليديّة والسّطحيّة ربّما، أقرب ما تكون إلى الحقيقة، لأنّ هذه المرأة كانت تلوح لي كأنّها هي الحياة ذاتها. الحياة التي تُقتُ دومًا إلى أن تطلّ عليّ بوجه آخر، غير وجه عائشة.

سألتني بسخريّة:

ـ وهل عثرت على حلّ للخوف في أثناء تحديقك في الفراغ؟

ـ لا، كان غناء جارتي يعوّقني. إنّها تغسل الصحون وتغنّي بصوت رفيع ومزعج.

قلت ذلك محاولًا المضيّ معها في السُّخرية، فقالت وهي تضحك:

- يا إلهي، إنَّني أفعل ذلك في أثناء غسل الصحون، أيضًا. أتظنّ أنَّني أعوّق معذّبًا ما، يصل إليه صوتي في الجوار، عن التَّفكير في سبل النجاة من مشاكله ومخاوفه؟

وبرق على الفور في ذهني وجه أحمد يحدِّثني عن طربه لصوتها وهي تنظِّف البيت وتغنّي. كنت أتخيَّل آنذاك صوتها كموجة شفَّافة تنبثق من أعماق سحيقة، وتحمله، وتضعه، في رقّة، على شاطئ، تراوغه الشمس فيه بترنيم أنشودة النسيان. لكنَّها، في المحصّلة، تركته، ولم يعثر على حلّ. وجعلتني هذه الفكرة أصمت، من دون أن أجيبها. وبدا لي أنَّها قرأت أفكاري، لأنَّها قالت مجيبة عن السُّؤال الذي طرحته بنفسها:

- في الحقيقة، لا تطلّ نافذة مطبخي على شقق قريبة. إنَّها تطلّ على ساحة صغيرة فيها شجرتا ليمون. أتمنَّى ألّا تكونا من المعذَّبين.

خُيِّل إليّ أنَّني شجرة ليمون، وأنَّ أحمد هو الشجرة الأخرى. كان يُصغي إليها قبلي، ويصدّق كلمات الأغنية الشَّجيَّة الجميلة، والتي تطفح بالهراء. وها أنا أصبو إلى أن يرشقني صوتُها كما رشق أحمد ذات يوم. ها أنا أريد تصديق هذا الهراء. أريده أن يهطل عليّ بلا انقطاع، كرذاذ مطر، فأنتعش.

أريدها أن تغنّي لي، فتعيد إليّ إحساسي الذي أضعته، بالشعر والغناء والموسيقى، بعد أن فقد كلُّ ذلك دلالاتِه الشاعريَّةَ، وصار في نظري مجرّد حيلة جماليَّة؛ مجرَّدَ وشاح زائف يغلّف الحقيقة التي بتّ ملعونًا بدائها. كان هذا الوشاح قد تمزَّق، وباتت الصور الفنِّيَّة الجميلة تقودني بقسوة، وبلا رحمة، إلى المعنى الحسّيّ، ذلك الذي يحدّق من خلف النَّصّ بعيون بليدة، مطفأة بلا أيّ ضوء داخليّ. كعينَي عائشة.

تركتها وعدت إلى شقَّتي التي تطلّ على خلفيَّة عمارة تمتدّ عليها أنابيب مجارٍ خارجيَّة، وفيها نافذة جارتي التي لا تكفّ عن غسل الصحون وتغنِّي بصوت رفيع كصرير باب صدئ. بحلقت في الفراغ، وكانت عينا أحمد، من مكان ما، تبحلقان فيّ أيضًا، بتلك النَّظرة القاسية.

بقيت غائبًا أيَّامًا عنها، ثمَّ نهضت وذهبت للقائها ثانية، وعينا أحمد لا تنفكَّان تلاحقانني.

جلسنا في مقهى على الرَّصيف، وتبادلت مع بعض الزبائن التَّحيَّات وحديثًا ومزحات عابرة وهي تضحك. أعجبني وأدهشني وخذلني في الآن ذاته، أنَّها تضحك، وأنَّها سعيدة، فلم أقوَ على منع نفسي من التعليق: «تبدين سعيدة!».

أجابتني بصراحة وسهولة، كأنَّها معافاة من عذابات الضمير:

ـ أجل! لقد كَفَفْتُ عن الحزن.

ـ كيف حدث ذلك؟ كيف استطعت؟

ـ لقد شعرت ذات يوم بنفسي على وشك الموت. كنت أختنق، وعلى يقين بأنَّني أحتضر، وسأموت، إن ليس في الحال، فسيحدث ذلك بعد دقيقة، وفي أبعد الاحتمالات غدًا، وغدًا لم تعنِ حينئذ المستقبل البعيد، بل اليوم التَّالي لذلك اليوم، لكنَّني لم أمت في اليوم التَّالي. وكنت واثقة بأنَّني سأموت في اليوم الذي يليه، لأنَّني كنت عاجزة عن الحياة، لا آكل ولا أنام ولا أكفّ عن الاختناق. ولم أمت. فانتظرت أن أموت في اليوم الذي بعده، وهكذا. وشيئًا فشيئًا، وفي أثناء انتظاري الموتَ، جعلتني هذه الفكرة أتحرَّر من الخوف، ومن العذاب، ومن الحزن، لأنَّني وجدت نفسي أعيش كما لو أنَّ الموت سيأتي غدًا فعلًا، وأنَّه سيحرِّرني. ثمَّ انتبهت إلى أنَّ الأمر سيَّان، أكنت معذَّبة وأبكي في انتظاره، أم ساخرةً وأضحك، فذلك لن

يغيِّر شيئًا، لا من الحقيقة، ولا من واقعي. واكتشفت أنَّني أتعذَّب في سبيل الهباء، فعدت أضحك، وعدت أغنِّي، لأنَّ الموت سيأتي من دون أن يعنيه أو يعني الحياة، كيف أعيشها.

أصغيت إليها، وبقيت شارد الذهن أفكِّر في كلامها. واكتشفتُ، حينما رفعت نظري عن الفراغ، أنَّها تحدِّق فيَّ. قلت:

ـ أظنّ أنَّني عاجز عن هذا الفعل، وأنَّ الحياة لا تكفّ عن أن تهزمني.

ـ الحياة لا تحارب أحدًا. أنت وحدك من يهزمك.

لم أفهم المعنى الدقيق لردِّها: أكانت تقصدني أنا، وتدعوني بطريقة ما إلى ألّا أذعن، أم أنَّها تقول ذلك بالاعتماد على تجربتها مع أحمد، وتقصده هو.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أقصد بالضَّبط أن لا أحد يسعه أن يهزمك إلَّا أنت!

ـ هذا ما يقوله المنتصرون.

ـ المنتصرون على مَن؟

ـ على الحياة.

ـ الحياة لا تحارب ولا تصادق. الحياة بلا عقل.

وتذكَّرت على الفور عائشة. كانت بلا عقل، وهزمتني. إنَّ عائشة هي ذاتها الحياةُ التي بلا عقل. ورحت أفكِّر في أنَّ كلّ ما فعلتُه منذ تلك اللَّيلة التي جاءتني فيها في الظلام، هو البحثُ عن عقل لهذه الحياة، لا لأهزمه، بل لينقذني من تلك الهزيمة، من اللَّاعقل.

كنت أبحث عنها هي.

❖❖❖

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

الوقت أواخر تشرين الثاني. الهواء بارد وجافّ، ولا توجد غيمة واحدة في السَّماء. يفكِّر زملائي المدرّسون في ضرورة إقامة صلاة استسقاء كي يهطل المطر. وأفكِّر أنا في صلاة استجفاف تجفِّف منابع ذاكرتي. أمشي في طريق عودتي من المدرسة. بينما عينا أحمد تلاحقانني بتلك النَّظرة التي كانت تجعل شيئًا ما، فظيعًا، يرتعد في داخلي، وهما تذكِّرانني بمأساويَّة الحياة، فتنتابني رغبة في الصُّراخ في وجه هذا العالم: يا إلهي! لماذا تركتني؟

لا شيء من ذاكرتي يزول.

أمشي بروح محنيَّة الظهر، تسير على عكَّازين، كأنَّها تعرَّضت لحادث سير.

حينما رأيتُها، شكوت إليها عذابات الذاكرة، فنصحتني بألّا أحاول النجاة؛ ألّا أدخل مع الذاكرة في معركة يوميَّة وأحاول الانتصار عليها؛ أن أدعها تعيش معي مثل حيوان صغير وأليف، أربّت عليه وأمضي.

ـ لكنّ هذا الحيوان الأليف هو أفعى تتلوَّى في عبّك، ولا تكفّ عن لسعك بلا رحمة.

صمتت. وأخبرتني بعد دقيقة بأنَّها بالأمس سجَّلت بلالًا ـ ابنها وابن أحمد، الأكبر ـ في صفّ لتعلُّم الموسيقى، وهو سعيد للغاية! «للأسف، انكسر هاتفي القديم وإلَّا لكنت أريتك صورته وصورة زيد. لكنَّني عمَّا قريب سأشتري هاتفًا جديدًا وأصوِّرهما لتراهما».

فهمت أنَّها تريد تغيير موضوع الحديث، وفهمت أيضًا أنَّ خلف حديثها عن صُور الطفلين، سؤالًا لا ترغب في طرحه على نحو مباشر وصريح: لماذا لم تُبدِ لغاية اللَّحظة رغبةً في رؤيتهما، فهما ابنا صديقك العزيز؟ لا أعرف لماذا لم أُبدِ هذه الرَّغبة. شعرت بالحرج وبضرورة تبرير الأمر، لكنَّني لم أعثر على أيّ مسوّغ، فقلت ما شعرت بضرورة قوله:

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

ـ أظنّ أنَّه يجب عليّ أن أراهما في الواقع، وليس في الصُّور فحسب!

أسعدتها رغبتي على نحو فاجأني، كأنَّما كانت تنتظرها، وردَّت بانفعال:

ـ عظيم. أظنّ أنَّهما سيُسرّان برؤيتك والتَّعرُّف إليك؛ التَّعرُّف إلى صديق أبيهما الحميم. هل أعطيك عنوان بيتنا الجديد؟ فقد انتقلنا أخيرًا من ذاك الحيّ البائس والبيت القديم، قبل عام. وسمّت لي حيَّها الجديد، فقاطعتها قائلًا إنَّ ذاكرتي سيّئة، ومن الأفضل أن تعطيني العنوان قبل ساعة من مجيئي، وإلَّا فإنَّني حتمًا سأنساه.

وخفت، لسبب غامض، من الإقدام على هذا الفعل: زيارةِ الطفلين. كأنَّ هذه الزيارة ستحسم قرارات ما، لا أدري ما هي على وجه الدّقة، لكنَّها تخصّ العلاقة بها.

أطرق جدران الغرفة، حيث لا نافذة، بيدي ندمًا. لماذا رفضتُ أخذ عنوان بيتها؟ العجوز يئنّ، وأنا أئنّ أيضًا.

❖❖❖

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

النّهار الحادي عشر

من قال إنَّ المرء يحيا بالخبز أو بالفكر؟ أنا الجائع العَطِش، المخذول، المهمَّش، بالوهم وحده كنت دائمًا أحيا.

لا نقود لديَّ، فقد رفض جميع زملائي المدرّسين في الأمس إقراضي ولو دينارًا، وربَّما سيطردونني عمَّا قريب من الوظيفة، وأعيش في غرفة بلا نافذة. يدهمني الرُّعب حينما أتذكَّر أنَّني سأعود إلى تلك الغرفة في المساء، فأهرع إلى حانة صديقتي:

ـ يكاد الخوف يقتلني. يهجم عليّ في اللَّيل ويشلّ أطرافي، فأتخيَّل العجوز الذي مات في الغرفة وتعفَّنت جثَّته. سيساعدني المشروب على النوم. سيُنسيني الخوف. أعدك بأن أخفّف منه في القريب العاجل، بعد أن أعتاد على هذه الغرفة الحقيرة.

تمنَّعت صديقتي مالكة الحانة، وراحت تحذّرني من هلوساتي، ومن خشيتها أن أفقد صوابي، فسألتها بجدِّيَّة:

ـ أتظنين أنَّني فعلًا مُقْبِلٌ على الجنون؟

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

ـ لا أدري.

ـ أريد أن يجيبني أحد ما؛ أحد يعرف الحقيقة.

ـ لا أحد يعرف الحقيقة سواك. ولا أحد قادرًا على الوصول إليها سواك.

ـ لكنّ الحقيقة ذاتها وهم!

ـ الحقيقة حقيقة وليست وهمًا. يجب أن تنتبه لنفسك يا راعي. أنا مستعدّة لأن أساعدك، لكنّني أخشى إن أعطيتك مالًا أن تشتري به مشروبًا من مكان آخر. أرجوك، لا تُذعنْ لهلوساتك.

كان رأسي يؤلمني؛ يؤلمني منذ زمن بعيد، ألمًا متواصلًا. معدتي أيضًا تؤلمني. لا أدري لماذا أتشبّث بهذه الحياة. لا أدري ما مغزى الوهم والحقيقة والألم. لا أدري لماذا يلتفّ حبل الأمل حول رقبتي ويخنقني؟

أشفقتْ عليّ صديقتي في آخر النّهار، فخرجت من الحانة، بعد أن قدّمت إليّ بعضَ الطعام، وأعطتني زجاجة عرق صغيرة. رحت أمشي بلا أفكار؛ بلا رؤية؛ بلا أحلام، وبلا أمل. وحدها الفراشة الصّغيرة ظلّت تحوم حولي، وعيناك تحدّقان فيّ وأنا أحدّق في العدم. يمضي الوقت، وأنتِ لا تتّصلين، وأنا خائف.

❖❖❖

كان يُخجلني أنّني لا أملك ثمن جلوسنا في المقهى، لكنّها أصرّت قائلة: «لا عليك. سأدفع الفاتورة أنا». جلسنا، وشرعت أحدّثها عن واقعي. لست أدري سرّ تلك اللّذة الخفيّة التي كانت تسيل في كياني وأنا أسترسل في وصف واقع لا يبعث على الفخر: ألأنّني كنت دومًا لا أجيد سوى قول الحقيقة كأنّني أصفع بها هذا العالم، أم لأنّني كنت أريد أن أقدّم إليها نفسي: كائنًا هزيلًا وفقيرًا وبائسًا، وربّما لا يختلف عن أحمد في شيء، سوى في جبنه؟

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

لكنّني كنت أحدّثها منتظرًا بتوق اللّحظات التي تضحك فيها، واللّحظات التي تكفهرّ فيها، واللّحظات التي تطالب فيها بالمزيد، ومرعوبًا من لحظة يخبو فيها فضولُها، أو أصطدم فيها بجدار، فلا أعرف عمّا أحدّثها أيضًا، وبماذا أحشو لقائي معها كي يطول، وحينما تذهب، كي تعود في الغد.

المادّة الأخرى التي كانت ستملأ هذه اللّقاءات بحياة أخرى، أخرى تمامًا، كانت الحبّ. لكنّني كنت أنظر إلى هذا الكائن الماكث في الظلّ، برعب. أخاف الاقتراب منه، مع أنّني لم أكفّ أبدًا عن الارتجاف معه: من غربته وعزلته وحزنه. كنت أرتجف مع الحبّ ومنه، تمامًا مثلما يرتجف طيف أحمد ويرتعد ألمًا، ليس من الموت، بل من الخيانة والخذلان.

أحمد! من قال إنّ الشيطان غمره بالعتمة؟ لقد كان يجلس في المكان الفارغ على المقعد بيننا. وظلّ على هذه الحال جالسًا أو واقفًا أو سائرًا بيننا، في كلّ اللّقاءات التّالية، وأنا أثرثر معها عن كلّ شيء، متفاديًا الحديثَ عنه. إلى أن توقّفتْ ذات مرّة وسألتني: لكن، متى ستزور الطفلين؟ لقد وعدتُهما بقدومك!

ووجدت نفسي أسألها على نحو عفويّ:

ـ وأحمد؟

فنظرت إليّ بدهشة: ما بال أحمد؟

ـ لقد انتحر!

قلت كأنّني أخبرها بأمر لا تعرفه. وصمت كلانا. شعرتُ حينذاك بالمسافة بيننا هائلة، كأنّنا فجأة بتنا غريبين. ضاع الكلام، وراحت عيناها تحدّقان في الفراغ، وعيناي في العدم. أحسّست فجأة بحاجة ماسّة إلى البقاء وحيدًا. اعتذرت منها ومضيت. كانت تلك المرّة الأولى التي نفترق

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

فيها، وأنا أتوق إلى هذا الفراق. أتوق إلى اللَّحظة التي أبقى فيها وحيدًا. تركتها وشبح القطيعة معها، يحوم حولي، ويجرّني من يدي كلَّما فكَّرت في النَّظر إلى الوراء. أحمد أيضًا ظلَّ معي. رافقني في الطريق إلى غرفتي، ودخلها معي، ثمَّ خرج منها معي، ثمَّ عاد إليها معي. وكان، على مدار أسبوع، يعترض طريقي كلَّما فكَّرت في رؤيتها، مثلما كان يشلّ يدي كلَّما امتدَّت إلى الهاتف لأتَّصل بها.

وكانت السَّاعات تمرّ بصعوبة، والأيَّام بثقل. أيَّام بليدة وفارغة لا أعرف ماذا أفعل فيها، وكيف أصرِّف شحوبها الذي يجتاح روحي ويمرّغها بمخاوف سوداء.

أمشي في الشارع وأتوقَّف فجأة عن المشي. تُرى، ماذا أنتظر؟ أنظر إلى السَّماء، لا من أجل شيء سوى البحث عن اتّساع ما يبرِّرُ هذا الانتظارَ. أرى شمسًا بيضاءَ باردةً، تزحف ببطء كأنَّها في نزهة طويلة مُمِلَّة. كأنَّها أرملة تغنِّي للعبث، ثمَّ ألمحُ عجوزًا يعبر الطَّريق ببطء، يحمل كيسًا أسود، يهتزّ بيده بسبب ارتجافها. هل تشيخ الأحلام؟ أتخيَّل حلمي عجوزًا، بوجه مجعَّد ويدين مرتجفتين، يسقط منهما أيّ شيء تمسكان به. أتخيَّل عينيه حزينتين، يسير محنيَّ الظهر، متعكِّزًا على عصا، يجول في الشَّوارع وقد ضلَّ طريقه إلى الموت.

في الانتظار، تصدأ السَّاعات ويذبل المعنى.

أواصل عجن الفراغ، كأنَّما ألوكه في فمي: بقرف، ومن دون أن أقوى على بصقه أو ابتلاعه. أقف أمام النافذة وأرى الواجهة الخلفيَّة للعمارة المجاورة، وعليها تمديدات المجاري. أسمع غناء جارتي ينبعث من نافذة تطلّ على التهوية ذاتها، مصحوبًا بقرقعة الصحون التي تغسلها. أتذكَّر هنري ميلر، وهو يقول «الشيء الأساسي هو إرادة الغناء». إنَّ «إرادة الغناء» لديه،

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

هي الصيغةُ الشاعريَّة لـ «إرادة القوَّة» لدى نيتشه. يوحي إليَّ صوت جارتي الرفيع بأنَّها امرأة سمينة، وتشبه عائشة. إنَّها تغنِّي، وأغنيتها نشاز يزعج أذنيّ، مثل اجترار أبديّ للهزيمة ذاتها.

أبتعد عن النافذة. متَّى ستتَّصل؟ أريد للأشياء أن تحدث من دون أن يكون لي يدٌ فيها. أريد أن أبقى بريئًا. أريد لأغنيتي أن تتدفَّق من ثغرة لامرئيَّة في كلّ هذا الصَّمت.

هزَّني فجأة رنين الهاتف.

ـ هل أنت بخير؟

تلعثمت وتأتأت وأنا أجيب عن سؤالها، بصوت مرتبك، وأخبرها بأنَّني كنت مريضًا، ثمَّ أهرع إليها.

حدَّثتها عن أعراض نوبة برد كاذبة، واصفًا، في الحقيقة، أعراضَ الشوق إليها. حدَّثتها عن حُمَّى ألمَّت بي لأيَّام، ووهنٍ نال من جسدي الهزيل، وفقدانِ شهيَّة للطعام، وأَرَقٍ في اللَّيل بسبب ضيق التنفُّس وحالات الاختناق. فبدا القلق عليها، وقالت:

ـ إنَّ وجهك لا يزال شاحبًا، ويبدو المرض عليك.

ـ أجل، فقواي لا تزال واهنة، وما زلت أشعر بنفسي عليلًا.

ـ لماذا خرجت من البيت، إذن؟ ما كان يجب أن تخرج.

قلت إنَّني كنت في حاجة إلى الخروج وإلى الهواء، لأنَّني اختنقت من المرض والبقاء وحيدًا في الغرفة: آكل وحيدًا، وأجوع وحيدًا، وأصغي إلى غناء جارتي السمينة وحيدًا، وأشمّ رائحة الطعام الذي تطبخه، مخلوطًا برائحة المجاري، وحيدًا.

ضحكت واعتذرت لأنَّها لم تتَّصل بي في أثناء مرضي، فقد كانت مشغولة جدًّا بالدِّراسة. ولم أعرف إن كان يجب عليّ أن أفرح لأنَّها لم تتَّصل بسبب انشغالها الفعليّ، أم أن أشعر بالخذلان لأنَّ الدِّراسة، مثلَ أيّ أمر آخر، كان في وسعها أن تُنسيها إيَّاي؟

رحت أتابع بنظري ريشة تطير في الهواء وتهوي ببطء. سألتها عن الطفلين، فقالت إنَّ كلّ شيء على ما يرام. ثمَّ أرتني صورة الكبير على شاشة هاتفها، التقطَتْها له منذ أيَّام. أذهلني الشَّبه الكبير بينه وبين أبيه. إنَّه يحتاج إلى الطول وبعضِ التجاعيد في وجهه، والشحوبِ تحت عينيه الواسعتين، ليصبح تجسيدًا حيًّا لأحمد، بلحمه ودمه. وبينما كنت أتمعَّن في وجهه، جالت في بالي صورٌ بعيدة وضبابيَّة جدًّا، لمستقبل ما، يجمعنا نحن الثلاثة معًا: أنا وهي وهو. أرعبني هذا الأمر، وتخيَّلت تعقيد الحالة التي من الممكن أن أعيشها، كما لو أنَّني المجرم الحقيقيّ الوحيد، في مأساة أوديب.

هربتُ من هذه الأفكار، وأعدت إليها الهاتف، وعدت أحدِّثها عن جارتي التي تطبخ وتغنِّي بصوت يوحي إليَّ بأنَّها سمينة، لأنِّي لم أدرِ عمّا يمكن أن أحدِّثها أيضًا.

كانت تصغي إليَّ وتضحك، وكان أحمد ثالثنا، يجلس معنا، ويرصد كلّ فكرة تجول في بالي، فتحترق، ويغدو لها طعم الرماد؛ يرصد كلّ حركة أفكِّر في القيام بها، فتكبِّلني الأغلال؛ يرصد كلّ نظرة ألقيها «عليك»، فأتحاشى النَّظر «إليك»، وأحدِّق في العدم.

«إنَّها تحبّني وأنا أحبُّها، وهذا ما يُبقي الدَّائرة مفتوحة»، كان قد قال لي ذاتَ مرَّة. لكنَّه أغلق دائرته، وها أنا أقف عند باب هذه الدَّائرة ذاتها بأحلام وآمال يفتك بها الرُّعب والنَّدم.

❖❖❖

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

صارحتني في لقائنا التّالي، بأنّها شعرت بارتياح شديد، حينما أيقنتْ أنّني لا أعرفها فعلًا، وأنّني كنت ألاحقها لغايات لا تمتّ إلى الماضي بصلة، فقد كان يخيَّل إليها أنَّ الذي يلاحقها هو أحمد ذاته، وكان ذلك يعذّبها، فتهرب منّي، كما لو أنّني أحمد فعلًا، وكما لو أنّها تهرب منه. وكانت، بهذه المصارحة، كأنّما وخزت دملًا فطفق ينزّ؛ كأنَّ الرّياح التي تعوي في داخلي عثرت أخيرًا على منفذ لها.

ـ هل كنت ستهربين منه ثانية، لو افترضنا أنّه عاد فعلًا؟

ـ لا أدري. لا أحبّ أن أفكّر في ذلك بما أنَّ هذا الافتراض خياليّ ولن يحدث أبدًا.

كان فعلًا احتمالًا خياليًّا، لكنَّ إجابتها لم تَشفِ غليلي، فشرعتُ أحقّق معها:

ـ لكن، لماذا هربت منّي حينما خُيّل إليك أنَّ الذي يطاردك هو أحمد ذاته؟

ـ لأنّه ميّت.

ـ ولماذا قرّرتِ أن تكفّي عن الهرب وتعرّفيني إلى نفسك؟ هل قرّرت عدم الهروب منه؟

ـ لا أعرف لماذا، ربّما كي أثبت لنفسي أنّك لست هو.

ـ هل طاردك من قبل؟

ـ أجل، كثيرًا.

ـ لكنَّ شعورك بالندم، وبتعذيب الضّمير، لم يدم طويلًا، وبتِّ سعيدة؟

توتّرتْ وارتبكتْ، وقالت بصوت مرتجف:

ـ لماذا تقول ذلك؟ هل أنا من قتله؟!

ونهضتْ. «أريد أن أذهب»، قالت، وفاجأتني، وشعرتُ على حين غرَّة بالرُّعب من وحدتي، ونهضتُ أيضًا، وتوسَّلت إليها أن تبقى، وأنا أعدها بألَّا أعود إلى هذا الحديث، وأن أزور الطفلين في الحال، لكنَّها لم تستجب.

بقيتُ وحيدًا، وأحمد يجلس قبالتي، في ذلك المطبخ، يشرب القهوة ويغرق في الصَّمت، وهو ينظر إلى العتمة خلف النافذة، ثمَّ ينظر إليّ ويقول: لو أنَّك تدري كم أفتقدها.

تتعب عيناي من كثرة التَّحديق في الأشياء؛ من كثرة التَّحديق في هذه الدَّائرة؛ من كثرة التَّحديق في معالم هذا المقهى، الذي أستدين النقود، ليس فقط من أجل دفع ثمن الحساب فيه، بل أيضًا كي أدفع ثمن ذاكرة لإنسان غريب، قد يضيء فيها حنين شجيّ ما، إلى الأمكنة.

❖❖❖

الوقت أواسط آذار. تهمي خطواتي كما يهمي الأنين. تتساقط على شوارع يغمرها هواء شفاف يجعل كلّ شيء يشعّ ببريق حادّ: أوراق الأشجار الصَّغيرة، وزجاج النوافذ، والغيوم الصغيرة التي تعبر مسرعة في السَّماء. تمتدّ هذه الشوارع في روحي مقفرةً من أيّ معنى.

مرَّت أربعة أيَّام على لقائي الأخير بها. يُتعبني المسير في الصَّباح، فجسدي الهزيل بات ثقيلًا. أمشي بلا رغبة في المشي؛ بلا أيِّ رغبة في الوصول، لا إلى المدرسة ولا إلى أيِّ مكان. أمشي بذبول. يداي مرتخيتان إلى جانبي، وقدماي تقطعان المسافة ببطء. أتأخَّر في كلّ يوم عن بدء الدوام، لكنَّ ذلك لم يكن ليُقلقني. أمشي ولا أرى في الطريق شيئًا ممَّا حولي، لأنَّ عينيَّ تنظران إلى الفراغ الذي أمامي.

قلت بالأمس للمدير إنَّني سأتغيَّب غدًا عن العمل، وحينما سألني لماذا، أجبته: لا أدري.

ممدَّد في الفراش والثقل يسكن جسدي، فلا أستطيع النهوض. أعاني فرط اليقظة، يا صديقي، فقد بتُّ أنام قليلًا جدًّا. أحتاج إلى زجاجة خمرة أتجرَّعها دفعة واحدة، يا أحمد، كي أجلس أمامك وأعترف لك بعذابي. لن أشرحه لك طويلًا لأنَّك خير من يفهمه: أتذكَّر حينما كنت تقول لي إنَّك تتوقَّف عن المشي، فجأة في وسط الطريق، من دون أن تدري لماذا؟ لقد حدث لي ذلك بالأمس، وقبله أيضًا. كنت أمشي، وفجأة توقَّفت كأنَّني اصطدمت بجدار، وسألت نفسي، عن السَّبب الذي دعاني إلى التوقُّف، ولم أعرفه. فرغ ذهني فجأة تمامًا من أيِّ أفكار، كأنَّني فقدت ذاكرتي كلَّها.

أحتاج إلى زجاجة خمرة كي أمتلك الشجاعة أمامك. أتذكَّر حينما أخذتَ الجريدة الملقاة على الطاولة ورحتَ تتصفَّحها، ثمَّ سألتني: «ما هذه العناوين؟ ليس بينها عنوانٌ جادٌّ واحد! كلُّها هراء». وسألتك عن ماهيَّة العناوين الجادَّة، فقلتَ لي: «لماذا لا يطرح أحد هذا السُّؤال: ماذا يفعل في اللَّاوجود هؤلاء الذين يذهبون إليه؟» ثمَّ أضفتَ: «أتعلم، أنا لا أصدِّق اللَّاوجود الذي تزعمه. لا أصدِّق. ثمَّة من صنع وجودنا وعذاباتنا. إنَّه يلهو بنا، وسيظلّ يلهو بنا حتَّى في لاوجودنا».

صمتَّ، وشخصتْ عيناك في الفراغ، بتلك النظرة المرعوبة، ثمَّ قلت لي: «ليتك تدري كم أفتقدها».

ها أنا الآن أسمع نشيج تلك النَّظرة. ها أنا الآن أيضًا ألهو بك وأعذِّبك في لاوجودك، وأودُّ أن أبكي أمامك وأعترف لك: ليتك تدري كم أفتقدها.

ذهبت في اليوم الخامس إلى المكتبة. لم أجدها، فقادتني قدماي إلى مكان عملها. وجدت الباب مغلقًا، حرَّكت مقبضه بيدي فانفتح، ورأيتها تجلس خلف مكتبها، تدرس. غرقتُ في هالة من طمأنينة عارمة فاض بها قلبي، وجعلت أصغي إلى انسياب هذه الطمأنينة في جسدي، وهو يستعيد

خفَّته ويغدو قادرًا على المسير. رفعت رأسها ورأتني واقفًا عند الباب، وسارعت على الفور في طرح سؤال جعلني متسمِّرًا عند عتبة الباب، عاجزًا عن اجتيازها: «ما الذي تريده منِّي؟» لم أعثر على إجابة تجنِّبني الموضوع الملغوم بالأسئلة والرُّعب: الحبّ. لم أعثر على أيِّ إجابة سريعة تنقذني من الارتباك والتلعثم، سوى: «لا شيء!». فصمتت، وبقيت واقفًا عند الباب. ودعتني، بعد مرور دقيقتين على هذا السُّكون، إلى الانتظار ريثما تجهِّز نفسها للخروج، لأنَّ هذا المكان ليس مخصَّصًا لاستقبال الزُّوَّار، ولاسيّما إذا جاؤوا من أجل لاشيء.

خرجنا إلى الشارع وأنا صامت، يخالجني شعور مرير بالهزيمة، في تحدٍّ لم يحدث بعدُ، وربَّما لن يحدث أبدًا. سأظلّ دومًا واقفًا عند تلك العتبة كالغريب، عاجزًا عن اجتيازها، لأنَّ الخيبات والهزائم ربَّتني فبتُّ جبَّانًا. سأظلّ واقفًا عند هذه العتبة، أكرِّر، على نحو لاإرادي، الإجابة عن سؤال «ماذا تريد منِّي؟» بـ: لا شيء.

تحدَّثنا في اللِّقاء عن أشياء كثيرة، كلُّها: لا شيء. وثابرنا في الأيَّام التالية على أن نلتقي، ونتحدَّث عن اللَّاشيء، وكنت على يقين بأنَّها تنتظر، كما أنتظر أنا، ذلك الشيء، غير أنَّني أستلذّ بجبني، وهو يوفِّر لي مساحة مشوَّشة من الأمان، ويحصِّنني من المؤامرة التي يحوكها قلبي، في الوقت الذي أسترضي فيه قلبي، برؤيتها.

كنت أنعم بذلك الأمان، الذي تنعم به الطيور في القفص، وأواري عذابات أشواقي إليها، عن أحمد وعنِّي وعنها، عبر كلام وأسئلة لا تقبل التأويل. كأن أسألها عن تفاصيل عملها بدلًا من أن أسألها إن كانت تفكِّر فيَّ مثلما أفكِّر فيها؛ وأن أخبرها بأنَّني سرت في الصَّباح كلَّ المسافة إلى المدرسة بسبب الأزمة وازدحام الناس المنتظرين سيارات الأجرة، بدلًا من أن أقول إنَّني نسيت نفسي وأنا أمشي وأمشي شاردًا بها، إلى أن وجدتني

أمام المدرسة؛ وأن أصغي طويلًا إلى حديثها عن الطفلين وهموم الصفّ الأوّل للأكبر في المدرسة، محاولًا استبعادَ طيف أحمد من الحديث، باحثًا بين كلماتها عن كلمة تصلني وتجرّ خلفها ظلًّا لشيء قد يشبه الحبّ.

كنت أحيانًا أحدّثها عن شيء، أو لاشيء ما، فتضحك. تصغي إليَّ وتضحك. فيكتنفني الفرح وأنا أراها ضاحكة. فرح يبعث على الأسف. تبدو لي السّماء خلاله، غائمةً، مثلَ ذلك الشّبح الحزين الذي يسير معنا: شبح الحبّ، الذي يمدّ يده أحيانًا، ويحرف رأسها في اتّجاهي فتنظر إليَّ تلك النّظرةَ، ويخيَّل إليَّ أنّني سأشهد اللّحظة التي تبدأ الأشياء فيها، بذيْنك الجموح والدّهشة الذاهلة، كنفَس يبعثر الغبار، ككلمة يملأها الخيال؛ الكلمة التي لا أجسر على نطقها، تلك التي كانت في البدء.

ما الذي يجعلني أكابد العذاب والقلق هذين؟ ما الذي يشلّ خطواتي فلا أجسر على نطق تلك الكلمة؟ كنت أسير محدّقًا في الفراغ، مخاطبًا نفسي: كانت كلّ الأسئلة لا تكفّ عن أن تحيلني على السّؤال الذي كان في البدء: هل كان أحمد سينتحر لو أنّها لم تتركه في ذلك النّهار الذي أسقطت فيه منفضة السّجائر فتناثرت شظاياها على الأرض؟ وفي كلّ مرّة أكتشف أنّه كان يكذب، حينما كان يقول إنّه يتمنّى لو تكرهه فتغلق الدائرة. كان يكذب، لأنّ صمتها أفزعه، حينما صمتت، وتمنّى لو تصبّ الدّموع في عينيه. كان يريدها أن تبقى، وألّا تصمت، وأن تظلّ على وعودها بالصّمود معه. كان يريدها أن تنقذه، فتركته وحيدًا كي ينتحر.

ـ أكنت تعلمين بأنّه سينتحر؟

لا أدري كيف داهمني هذا السّؤال ذات مرّة، وصعد إلى لساني من دون قرار أو تفكير مسبق. فاجأها سؤالي فاضطربتْ:

ـ لا، لم أكن أتوقّع ذلك. كنت أريده أن يجد حلًّا ما، مع أهله وليس مع الدُّيون.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

ـ كلُّنا لم نتوقَّع ذلك. لم نصدِّقه. أم ترانا كنَّا لا نريد أن نصدِّق؟ كنَّا نريده أن يفعل ذلك كي نصدِّق؟ كي يجيب عن أسئلتنا، ويحقِّق رفضنا الذي لا نجرؤ عليه؟

ـ لا أحبّ طرح هذه الأسئلة. إنَّك تؤلمني بها. يجب أن أمضي، حان موعد عودتي إلى العمل.

❖❖❖

جلست في الغرفة الحقيرة التي تطلّ نافذتها على تمديدات المجاري، والتي هدَّدني مالكها بأنَّه سيرمي أغراضي إلى الشَّارع إن لم أدفع أجرتها. لكن ذلك لم يؤرِّقني. ما كان يؤرِّقني، ويعذِّبني، هو أنَّ أسبوعًا آخر، مرَّ، ولم أرها ولم أكلِّمها فيه. لم أذهب لرؤيتها، ولم أتَّصل بها، ولم تتَّصل هي، لكنَّني مع ذلك أنتظرها ودمي يلتهب.

نهضت أخيرًا، وسرت عبر أدغال خوفي، حيث الظَّلام دامس، والرِّياح الباردة تلفحني فيقشعرّ جسدي ويرتجف، ووجه أحمد يضيء ما بين اللَّحظة والأخرى فاغرًا فاه وصارخًا بلا صوت: أخشى الاغتيال. ودمه من وريده ينزف ويتصاعد إلى السَّماء، وتبقى روحه معذَّبة هنا على هذه الأرض.

أأنت متأكِّد من أنَّ أحمد كان يريدها أن تبقى وتنقذه؟ أسأل نفسي. لا، لست متأكِّدًا من شيء سوى من موته. إنَّه الآن ميِّت. ميِّت. أكرِّر لنفسي وأنا ماضٍ في هذا الظلام، فيصادفني أبي. يقول لي: أنت فاشل، ولن تنجز شيئًا يا بنيّ. ويضحك، وأضحك معه، معجَبًا بقسوته وشرِّه. ثمَّ أسمع خطواته تلاحقني. يحمل سكِّينًا ويهدِّدني بالذَّبح، كي يُتمّ طقوس طاعته. فأركض، أركض لاهثًا حاملًا كرتونةَ الكتب التي غزاها العفن والرطوبة، باحثًا عن مكمن لها بين الأعشاب القصيرة؛ باحثًا لها عن مكمن بين الأعشاب الطويلة. ألهث في هذا الظلام، وأرى أحمد يسأل الصُّخور الجرداء والحجارة

والحصى؛ يسأل الأعشاب التي ستذوي وتذبل تحت الشمس؛ يسأل الطُّيور في السَّماء، والمياه التي تجري إلى البحر؛ يسأل قوافل النمل التي تحفر عميقًا في الأرض وتعلم ما فيها من خفايا: مَن أنا كي أُمتَحن؟

روحي أيضًا تلهث في لجّة الظلام؛ روحي الذاوية التي غدت مسرحًا للرُّعب والوهم في آن.

وصلت إلى مكان عملها شاحبًا ومعذّبًا، فتركت ما في يدها وحدَّقت فيَّ، وقالت:

ـ كنت أستعدّ للخروج، فاليوم عاد الطبيب إلى بيته مبكرًا بسبب أشغال لديه، ولن يعمل بعد الظهر.

لم أُولِ ما قالته اهتمامًا، ودخلت. نظرت إليَّ باستغراب شديد، قائلة:

ـ تبدو متعبًا جدًّا، وشاحبًا.

ـ أشعر بنفسي كما لو كنت قادمًا من سفر طويل.

ـ أَأنت على ما يرام؟

ـ يُعْيِيني الخوف والحزن.

ـ الخوف ممَّ؟

ـ كان أحمد يقول لي إنَّ صمتك يُفزعه. وحينما تركتِه اتَّخذ قراره بالانتحار.

قلت لها ذلك وأنا أتفرّس في وجهها، ليس انتظارًا للإجابة، بل شوقًا.

ـ أَجئتَ تحاكمني؟ تغيب، ثمَّ تظهر... لتحاكمني؟

انتابني إحساس بالاحتقار لذاتي. كنت أسرع إليها سعيدًا، سعادةً وضيعة، بالذريعة التي أُشهرها في وجه أحمد؛ الذريعةِ التي تبيح لي هذا اللّقاء: ذريعةِ المحاكمة.

ـ لقد حطّمني انتحاره وكاد يودي بي إلى الجنون.

ـ حطَّمني أنا أيضًا.

ـ كان في وسعك أن تمنعيه.

ـ لماذا جئت؟ لماذا ظهرت؟ اذهب من هنا. لا أريد أن أراك. اذهب من هنا.

هتفت، وما لبثت أن انفجرت في البكاء. ولست أدري سرّ تلك القوّة الخفيَّة التي انثالت من بكائها، وراحت تحفر في أعماقي، باحثةً عن موطن الخوف لتهدهد له فينام. أريد هذا الحزن. أريد هذه الدُّموع: هذا الذرفَ الشَّجيَّ للندم. أنصت إليه فينساب فيّ مثلَ وعد بالأمان، واسترداد بطيء لسكينة مفقودة.

اقتربتُ منها وجثوت على ركبتيّ وطلبت المغفرة: سامحيني، فلست أدري ما الذي يحدث لي، ولماذا ينطق لساني بما لا أريد قوله. فلقد جئتك باحثًا عن الحياة[1]، وكنت أعدّ نفسي كي أحدِّثك عن ذلك الدويّ المتواصل في قلبي، والذي يجعلني عليلًا وتائهًا وهائمًا كشاعر لا يعرف كيف يكتب قصيدته، لأنَّ كلّ الكلمات التي في حوزته تصمت ذاهلة من شدَّة عشقه.

نظرتْ إليَّ بعينيها المبلولتين السَّاحرتين وسألتني: لماذا تعذِّبني، إذن؟

اندفع اللَّهيب في داخلي وحملني إليها، وقبَّلتُها، ودخلت في اتِّساع نغمة ناي أخذني إلى المسافات الطويلة؛ إلى التردُّدات التي يصعب على الخوف التقاطها. طوَّقتها بيدي، وتهت في نور تلك المسافات التي هبطت بي إلى شفتيها. شربتهما وذبت، وتلاشيت مثل وميض فكرة، في نغم انتشر فيّ كموجة سماويَّة زرقاء، رفعني ورماني إلى عوالم موسيقيَّة لم أَخبرها من قبل، وأنا أسقط معها على الأرض ويذوب كلّ منّا في الآخر، ويصبح بخفَّة

(١) من جلجامش.

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

حلم يمتطي فراشة صغيرة تلفّ وتدور حول مصباح يضيء عتمة كونيَّة، إلى أن تنصهر في ضوئه وتتَّحد بذرّاته، وهي تنتفض وتنتفض، منتشيةً بتلك اللَّذة الإلهيَّة: لذَّةِ الخلود.

❖❖❖

سأنهض، وسأحبُّها، وسأفعل في سبيلها ما يفعله الناسك في سبيل خلاصه. ردَّدتُ لنفسي وأنا في طريق عودتي. وحينما وصلتُ إلى شقَّتي، ارتميت على الفراش، وحدَّقت طويلًا في الفراغ، وابتسمت كالأبله، وأنا أستحضر في كلّ ثانية، لقائي إيَّاها. أستحضر طعمها ورائحتها؛ أستحضر اللَّحظة التي سقطنا فيها على الأرض، وغرقنا في القبلات المحمومة، ثمَّ غرقتُ فيها وغرقتْ فيَّ... ضعتُ في الموسيقى التي رفعتني كتيَّار عاصف إلى أقاصي الفرح والمعنى، ولم تهبط بي بعدُ إلى الأرض المعذَّبة.

شعرت بأنَّني تعافيت من عائشة.

ورحت من جديد أغرق في طوفان تلك اللَّذة، لكنَّني فجأة رأيت أحمد يرتعد في قبره، مقتولًا ومهجورًا وغريبًا في مماته.

مرّ اليوم التالي من دون أن أعرف ماهيَّة تلك الأصفاد التي أخذت تقيّد قدمَيّ، فلم أذهب إليها ولم أتَّصل بها. ومرّ اليوم الثالث، وفي الرَّابع اتَّصلت بي. سألتني لماذا أغيب. لم أعرف بماذا أجيبها، لكنَّ لساني سأل أخيرًا كأنَّما رغمًا عنّي:

ـ هل أوجعك النَّدم؟ أقصد النَّدم الذي يصيبنا حينما نخون؟

ـ نخون مَن؟ نخون مَن؟ إنَّ أحمد ميّت. ميّت! هل تعي هذه الكلمة؟ هل تعي معنى الموت؟

هل أعي معنى الموت؟ تهزّني هذه الكلمة، كأنَّها ممحاة تمحو ببساطة وبرودٍ وجودَ إنسان كان موجودًا. كأنَّه لم يكن؛ لم يشقَ؛ لم يتعذَّب؛

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

لم يفرحْ ولم يتألمْ. أدرك فجأة أنَّ الحياة محته من ذاكرتها، مثلما محت وتمحو وستمحو ملايينَ الناس والكائنات الذين عبروا في مساحتها. الحياة أصلًا بلا ذاكرة. نحن من يملك الذاكرة فحسب، لهذا نتوهَّم أننا سنقاوم بواسطتها فناءَ من ماتوا، وسنقاوم تلك الضحكة السَّاخرة التي تهطل من اللّاجدوى: لاجدوى عذاباتهم وأحلامهم.

هي أيضًا تريد أن تمحوَه من ذاكرتها. تتواطأ مع الحياة ضدَّه. تريد أن تقتله ثانية، لتعيش. لكنَّني لم أجسر على قول ذلك لها، لأنَّني خفت، في حال سمعته، أن تغيب وأفقدها. أنا أيضًا، مثلها، أريد أن أعيش! لكنَّني لا أستطيع أن أمحوه من ذاكرتي. قلت:

ـ أنا أعاني مشكلة. أعترف بذلك، لكنَّني سأجتازها. أعدك بأن أجتازها. أنا واثق بأنَّني سأنتصر على هذا الخوف. إنَّ روحي تنهض كلَّما رأيتك، وكلَّما سمعت صوتك، وتنتابني رغبة في التَّصدي لكلّ الصعاب.

ـ إذن، دعنا نكون معًا. دعنا نعيش ونحيا هذه الحياة بما أنَّنا نعيش ونحيا.

أغيِّر ملابسي بسرعة كي أذهب إليها، غير أنَّني أتوقَّف فجأة.

إنَّ جسدي الذي يسير معك، ويشاركك في الخوف والألم، قد «التهمه العثّ كثوب عتيق»[1]، شرع أحمد يقول لي وأنا ألجُ إلى مكانه الفارغ الذي خلَّفه، والذي أخذت تصفر في خوائه رياحُ اليأس، وأشباحُ العذابات. لا تزال هذه العذابات تُدميني، ويستبدّ بي الخوف. كيف أهرب منه وقد استفاق في لحظة من موته بحضورها وراح يطاردني؟

«يطيب لك أنَّها تركتْني. يطيب لك أنَّني انتحرت». كان صوته يصدح في مخيِّلتي، وأنا واقف في وسط شقَّتي أجول بنظري فيها بكآبة. أسمعه يقول أيضًا: كان يجب أن ترفض، وتذكِّرها بحبيبها الذي خانته؛ كان يجب

---

(١) عن أنكيدو.

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

أن تقصّ عليها مأساة هذا الحبيب الذي «كسرتْ جناحيه، وها هو حاطٌّ الآن في البساتين يصرخ من الألم: جناحايَ... جناحايَ!»[1].

لقد ضعفتُ أمام حبّها. ضعفت أمام إغوائها؛ أمام تلك الموسيقى التي انبعثت من قلب هذا الكون، وأخذتني إلى الحياة. ضعفتُ أمام ذلك الوعد بالحياة.

ودهمت مخيِّلتي صورةُ أحمد، ببذلته القديمة وربطة عنقه، شاحبَ الوجه، بألم يعجز أبلغ شاعر عن ترجمته، يقف في وسط المطبخ لا يعرف ماذا يفعل. وأثارت هذه الصُّورة في عينَيَّ الدُّموع.

ثمَّ تخيَّلت عينيه تنزفان ذاك الألم القاسي، والدمُ يتدفَّق من وريده لزجًا وحارًّا، بينما تتلاشى السَّماء وينطفئ الضياء. كان يعشق هذا المرأة، التي خيَّمت عليه بظلّها، ومسحت عن أفقه بيوت العنكبوت، ولمَّعت له النجوم، وقالت اكتب لي قصيدة. هذه المرأة التي امتدّ ظلّها وانتشر في هذه الأرض العتيقة والعزيزة، فبدا لكلّ شيء غاية: للأنهار التي تجري، ولعذابات البؤس والشَّقاء، ولهذا الدوران المتواصل للأرض، وللمساءات الحزينة، وللرِّياح التي تصفِّر في الوديان، وللمدن، وللعمارات، وللقطط المشرَّدة، وللمتسوِّلين، للتاريخ، ولكلّ حروبه التي دارت منذ القدم وتجري اليوم وستظلّ تدور رحاها في الغد.

سمعت غناء جارتي السَّمينة، وظلَّ أحمد يقف في وسط الغرفة، لا يعرف ماذا يفعل بالخواء، حينما أخذ ظلُّ تلك الحياة ينحسر، حينما وجد نفسه يقف عاريًا، تحت سماء بعيدة، على أرض تدور، كما كانت تدور دومًا، بلا غاية. وكنت أدرك ذلك، مثلما أدرك الآن، وأنا أصغي إلى غناء

(٢) استحضار لموقف جلجامش حينما رفض إغواء عشتار، وراح يذكِّرها بما فعلته بحبيبها تموز.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

جارتي السَّمينة ويصيبني الغثيان من زيف القصائد وخداعها الحالم؛ أدرك، لكنَّني لا أنفكّ أنساق إلى الخديعة. يقف في وسط الغرفة، وفي خيالي يلوح طيفها، تمسك بيدَيِ الطفلين وتبتعد، ويخامرني حلم بأنَّها قد تستدير وتمشي ناحيتي أنا. كنت أعرف أنَّه حلم مستحيل المنال، بيد أنَّني لم أنفكّ أحلم به... أحلم بتلك الحياة التي لا أدرك غايتها.

«أجل، أجل... لهذا يطيب لك أنَّني انتحرت»، قال أحمد بصوت مخذول ومخنوق. لم يَطِبْ لي انتحارُك أبدًا يا أحمد. لم يصدِّقْني، أنا أيضًا لم أصدِّقني: بل كنتَ تتوقَّع انتحاره، فلا تكذب! لا تقل إنَّك صدَّقت فعلًا أنَّ أجرة البيت التي قدَّمها إليه أبوه ستنقذه، بل إنَّك حتى لم تكن تصدِّق أنَّ أباه أعطاه النقود. كان يكذب، وكنت تريد أن تصدِّقه! كنت تدرك أنَّه سينتحر.

هزَّت هذه الأفكار كياني، وأنا جالس على حافَّة السَّرير أحدِّق في الفراغ برعب. انحدرتُ عن السَّرير، وجلست على الأرض. كنت أريد أن أنقذه، لكنَّني كنت مثله فقيرًا ومَدينًا. كان من المستحيل لي إنقاذُه.

بل كانت هذه المرأة تداعب خيالك. كان طيفها الغائم يداعب مخيِّلتك، فتتمنَّاها، تمامًا كأنَّك تتمنَّى الحياة. تتمنَّى لو تحدث معجزة فتحظى بها. احتويتُ رأسي بيدي. أغلقت عينيَّ بيديَّ. لكنَّ الإدانات استمرَّت في مطاردتي، اخترقتني كحزمة أسهم، وأخذت تحفر في أعماق روحي. تحفر. تمزِّقني وهي تحفر. تفتِّتني وهي تحفر. تسحقني وهي تحفر، حتَّى تصل إلى أقصى الأماكن عمقًا وأشدّها ظلمةً، إلى تلك التي تركد فيها الرذيلة، حيث الرَّغبات تعيش في الظَّلام كدود يقتات على العفن. تحفر وتحفر، وتنبشها، وتنثرها أمامي. تنثر غبارها في عينَيَّ، فتظلم الدُّنيا، ويرتعد جسدي، ويهتزّ كياني اهتزازتٍ عنيفةً، بينما روحي تصرخ: لم أكن أريد له أن ينتحر. كنت أتخيَّلها، كنت أتمنَّاها، لكنَّني كنت أريدها أن تعود إليه.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

تصبَّب العرق على جسدي، وخارت قواي. تبخَّرت كلُّها منّي. حدَّقت في الفراغ برعب؛ ذلك الرُّعب الذي يختزل مأساويَّة الحياة وأنانيَّتَها وتفاهتَها.

أنقذيني. إنَّ روحي مثل قصاصة ورق قديمة خُطَّت عليها اللَّعنةُ بحبر لا يُمحى. قصاصة ورق تطير في مهبِّ الريح. كيف أنجو من بؤسي، ومن يأسي، ومن خوفي. أنقذيني. انتشليني.

«وأنا، مَن سيرحمني يا راعي؟» دوَّى صوت أحمد قادمًا من بعيد؛ من اللَّارجوع.

مضت أيَّام وأنا أحدِّق في الفراغ برعب، ولا أرى سوى طيف أحمد، لكنَّني في نهاية المطاف نهضت وذهبت إليها. سرت غاذًّا الخطى. هرولت وركضت.

ـ ما كان يجب أن تتركيه. لو لم تفعلي لما كان انتحر.

حدَّقتْ فيَّ طويلًا بصمت، ثمَّ قالت:

ـ لهذا تغيب؟ لا تستطيع إلَّا أن تحمِّلني مسؤوليَّة انتحاره؟!

ـ لا أحد يسعى لمواجهة الضمير. كلُّنا نريد أن نبقى أبرياء. كلُّنا نريد أن نبقى أبرياء!

هتفت كأنَّني في محكمة ستُنصف أحمد، وستعيد إليه الحياة. وكنت في داخلي أنتحب من دون أن أدري: أأبكي أحمد الضَّحيةَ، أَم أبكيني أنا. أبكي، وفي بكائي أصرخ: أَنقذيني.

ـ أظنّ أنَّني أنا الضحيَّةُ وليس هو. لطالما فكَّرتُ في أنَّه انتحر انتقامًا منِّي وليس من السَّماء. انتحر وتركني أتعذَّب طويلًا.

ـ لكنَّك تركتِه في لحظة كان يجب أن تنتابك المخاوف فيها عليه. كان يجب أن تقلقي عليه. كان يجب أن تسألي نفسك: ماذا سيحدث له بعد

أن أتركه؟ قد ينتحر! كان يجب أن تقولي لنفسك: قد ينتحر، وكان يجب على هذا الاحتمال أن يمنعك من تركه.

ـ لم يخطر في بالي ذلك، فهو لم يحدِّثني يومًا عن الانتحار.

ورحت أضحك بصوت عالٍ ساخرًا: لم يحدِّثك؟! لم يحدِّثك؟ آه... بالطبع لم يحدِّثك! وتوقَّفت عن الضّحك: لكنَّه كان حزينًا وصامتًا ومعذَّبًا، مثلَ أيّ إنسان يقف على حافَّة الهاوية. كنتِ ترين ذلك كلَّه، فكيف تركتِه؟ كيف تركته؟ صرختُ في وجهها كما لو أنَّها تركتْني أنا.

ـ أنت قاسٍ جدًّا. لقد هربتُ من ضيم أمّه، فانتحر وتركني وحيدة مع طفلين. هرب. أمَّا أنا فلم أهرب. بقيت مع الطفلين. رفضت كلّ العروض بالزَّواج لأنَّهم كانوا يشترطون أن أتخلَّى عن الطفلين. رفضتها لأنَّني لا أريد أن يخسراني بعدما هرب هو من مسؤوليَّته.

ـ كان محاصَرًا، وكان يريدك أن تبقي معه؛ ألّا تغلقي دائرة يأسه. كان مرعوبًا من لحظة تتركينه فيها، وفعلتِ. فعلتِ! كان يتألَّم. أنا من يدرك حجم الألم الذي كان يعانيه.

ـ أنت قاسٍ جدًّا. أنت تحطِّمني!

ـ أنت التي تحطِّمينني. أنت التي حطَّمتِه، وحطَّمتِني!

ـ أحطِّمك؟ حطَّمتُك؟ ما الذي تقصده؟

كان يصعب عليّ أن أشرح لها ما الذي أقصده. أنا نفسي لم أكن أفهم، على وجه اليقين، ما الذي أقصده بالجملة التي فلتت من لساني. لكنَّني كنت أريد أن أثبت براءتي، ليس بإثبات جرمها فحسب، بل بهذه المحاكمة التي كان يُخيَّل إليَّ أنَّ أحمد واقف فيها في الزاوية يستمع، ويصدِّق لحظة بعد أخرى أنَّني بريء، وأنَّ طيفها الذي رسمته، وتخيَّلته مرارًا في وحدتي، لم يكن ليجعلني أنتظر انتحاره.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

قالت بدهشة: أنت تحاكمني كما لو كنتَ أحمد ذاته!

ـ كنت دائمًا أعتقد أنَّك لو لم تتركيه لما كان انتحر، ويصعب عليّ الآن أن أنسى ذلك. يصعب عليّ، لأنَّني أخجل منه، وأنا أحتلّ مكانه كما لو أنَّه يطيب لي أنَّه انتحر.

قلت ذلك، واللَّهبُ يشتعل في كياني توقًا إلى احتضانها، وروحي تحترق رغبة في أن أجثو أمامها وأستجديها وعدًا بألّا تتركني أنا.

ـ ظننت أنَّك أحببتني، وأنَّ ما جرى بيننا كفيل بشفاء ذاكرتك. للأسف، كان ظنًّا خادعًا! أخشى ألّا تنتهي هذه المحاكمة أبدًا.

ـ لكنَّك لم تجيبي عن سؤالي، كي تنتهي هذه المحاكمة.

ـ أيّ سؤال؟

ـ لماذا تركته؟

فهتفت بعصبيَّة شديدة:

ـ هذا شأني أنا، والشَّخصُ الوحيد الذي يحقّ له أن يحاكمني ويطرح عليّ هذا السُّؤال هو أحمد، وأحمد مات. انتحر! وكلّ ما أتمنَّاه هو أن أنسى هذه القصَّة، فقد تعذَّبتُ بما فيه الكفاية بسببها.

ـ أرأيتِ؟ أرأيتِ؟ تريدين نسيانها! تقولين انتحر بكلّ بساطة، كما لو أنَّ الأمر لا يخصُّك وليست لك أيُّ يدٍ فيه، بل أنت تقولين للناس إنَّه مات في حادث سير!

ـ حسنًا! لقد تركته وكنت أعلم، بل كنت على يقين بأنَّه سينتحر. هل يريحك ذلك؟ ما الذي تريده أيضًا؟

ـ لماذا تركته إذن؟

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

سألت مذهولًا وأنا أدرك أنَّ ما قالته إنَّما لتسخر منِّي. لكنَّني لم أدرِ عمّا يمكنني أن أسأل أيضًا، وكيف يمكن لي أن أنتزع منها اعترافًا بحقيقة أخرى: أنَّها لم تتركه، وأنَّ أحمد كان يكذب، كي يجد مسوِّغًا لانتحاره الذي أقدم عليه انتقامًا من هذا العالم وهذا الكون. كان يكذب، ففي الوقت الذي جاءني وقال إنَّها تركته، وفي الأيَّام التَّالية، الأيَّامِ الطويلة التي تعذَّب فيها، وظلَّ ينتحب فيها بصمت، كانت هي في واقع الأمر معه في البيت، ولم تتركه، لأنَّها كانت تراه حزينًا ومدمَّرًا. وما كان لشيء في هذه الدُّنيا أن يدفعها إلى أن تتركه، لأنَّها كانت تخاف عليه ويُرعبها إن تركته أن ينتحر. كيف لي أن أنتزع منها اعترافًا بذلك، فيتغيَّر وجه الحقيقة، وأثق بالتَّالي بها، وأحظى منها بوعد صادق بألّا تتركني أنا: أنا المحطَّمَ، الحزينَ، المهمَّشَ، الفقيرَ، اليائسَ، الذي يحدِّق في العدم، ولا شيء يلوح في أفقه ويمنحه أملًا بالنجاة غيرها. أنا أحمد آخرُ. أنا أحمد آخر. بل أنا أحمد ذاته.

وفي الوقت نفسه: كيف لي أن أنتزع منها اعترافًا بجرمها، جرمها وحدها. أريدها أن تعترف، اعترافًا صادقًا، بأنَّها تركته وهي تدرك أنَّه سينتحر. أريدها أن تعترف بأنَّها هي التي قتلته. أريدها أن تمنحني صكَّ البراءة.

أريدها أن تبقى معي. أريدها أن تنقذني.

أريدها أيضًا أن تخرج من خيالي، ليس الآن، بل في تلك الأيَّام التي كان فيها أحمد حيًّا، حينما كنت أتخيَّلها في الظُّلمة وأنتظر، من دون أن أدري ماذا أنتظر.

«لقد حطَّمني انتحارُه!». صرختُ بها. وإذ ذاك رأيتها تقف عند الباب وتنتظر خروجي. فخرجتُ، وخرجتْ هي. أغلقت الباب بسرعة، وتقدَّمتني على السُّلَّم راكضةً. ومضت في الشارع مسرعة. وقبل أن يتاح لي فعلُ شيء، استقلَّتْ سيَّارة أجرة.

❖❖❖

اللَّيلة الحادية عشرة

صادفني بابُ غرفتي، فتحته ودخلت. فصادفتني من جديد غرفةٌ بلا نافذة، جلست فيها وحيدًا أحتسي الكأس تلو الكأس.

لا أصدِّق أنِّي أضعتها تمامًا. ما زلت أنتظر لعلّ شيئًا ما يتغيَّر في هذه الدُّنيا. لا شيء يتغيَّر. لا يكفّ قلبي عن عذابه، ولا الخيالاتُ التي راودتني ذات ليالٍ اختفتْ من خيالي، ولم تتَّصل هي، كما تفعل في العادة كلَّما غبتُ. السَّماء أيضًا لم تُسعفني بمطر يغسل دماء أحمد عن وجهي.

اعتقدت في البداية أنَّها ستهدأ بعد يومين أو ثلاثة، وأنَّنا سنلتقي، وأنَّني سأجثو أمامها من جديد، وأطلب المغفرة، وأعترف بحماقتي، وستغفر لي. كنت أسير محدِّقًا في بلاط الأرصفة، من دون أن أعثر على قارعة الطَّريق على أيِّ حجَّة أحملها إليها، فتفهمني وتغفر لي مخاوفي.

اتَّصلت بها بعد أسبوع من فراقنا فكان رقمُ هاتفها مغلقًا. ذهبت إلى مكان عملها، فأخبروني بأنَّها استقالت، فقرَّرت الذَّهاب إلى بيتها القديم على أمل أن يخبرني الجيران بعنوانها الجديد، لكنَّ أحدًا لم يكن يعرف.

سرت في دروب حيِّها الجديد، باحثًا عن بيت لا أدري عنوانه ولا شكلَه، على أمل لقائها مصادفة في الشارع. سرت طويلًا، متمعّنًا في مداخل كلّ البيوت لعلّي ألمحها داخلة أو خارجة. سرت كلّ يوم. انتظرت كلّ يوم. راقبت كلّ يوم. تعبت قدماي وأضنت قلبيَ الخيبةُ، وهو يصرخ ويندب في الطرقات المغبّرة الخاوية: «مَن كسر جناحي؟»

«دع أنكيدو يسير أمامك، فإنّه يعرف الطريق وقد سلكه»[1]. كان أحمد سلك الطريق ويعرفه. كان أحمد انتحر.

لم يُقلقني أنَّ صاحب الشّقَّة طردني منها. لم أعبأ بتشرُّدي. لم أعبأ بنقلي إلى مدرسة أخرى ابتدائيّة في جبل عمّان نقلًا تأديبيًا، بسبب تغيُّبي المتواصل عن الدوام. لم أعبأ بعودتي إلى القرية، إلى بيت أبي، حاملًا، مرَّة أخرى، أغراضيَ وكراتينَ الكتب. لم يُرهبني صراخه حينما رأى الكراتين ثانية:

- أنت فاشل وستظلّ فاشلًا.. سأحرق هذه الكتب. أقسم باللّـه سأحرقها في هذه المرَّة.

ما يُرهبني كان أسئلةً أخرى: أين اختفتْ؟ وهل ستعود؟ ولماذا لا أزال صامدًا؟ لمَ لا أنتحر؟ لماذا لا أكفّ عن هذا الانتظار؟

كنت أسمعه مستفزًّا من خلف باب غرفتي المغلق، لا يكفّ عن الصُّراخ في وجه أمي: «هل ثمَّة ما يجيده ابنك يا امرأة سوى الكسل والقراءة؟ إنَّه أبله. أقسم باللّـه إنَّه أبله ومخبول. ألا تلحظين تلك النَّظرة في عينيه حينما تكلّمينه وهو يحدّق في الفراغ؟ أقسم إنَّه إنسان مخبول. لو أنّه يقرأ شيئًا مفيدًا، لما غضبت، لكنَّ اللّـه وحده يعلم ماذا يقرأ في وحدته، حتّى يصبح في هذه الحال: كسولًا وفاشلًا، وفوق ذلك صارت تبدو عليه مظاهر البَلَه».

(١) من جلجامش.

مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf

ثمَّ طرقَتْ أمِّي باب غرفتي، ففتحتُهُ لها. دخلت تحمل مبخرة، وتوسَّلت إليَّ أن أجلس على الأرض، فاستجبت لا أدري لماذا. ربَّما كنت آمل أن تقوى على إنقاذي بمبخرتها. أخذتْ تدور حولي وهي تتمتم بكلام غير مفهوم، سوى بعض كلمات تفلت من فمها بوضوح: اللَّه، وأحيانًا فاطمة، وأحيانًا النَّبيّ. وكانت تتثاءب، بينما تمرّ سحب الدُّخان أمام عينيّ، ثمَّ تتلاشى، ثمَّ تمرّ، ثمَّ تتلاشى. وشرعت تظهر هي في هذه السُّحب: تقول لي «دعنا نحيا هذه الحياة». ثمَّ ظهر أحمد. كان يقول لي: «لو تدري كم أفتقدها». ثمَّ رأيتُني أمشي، كما في الضباب لا أبصر شيئًا. ثمَّ رأيت عائشة، تمشي نحوي في الظلام. رأيت نفسي ذاهبًا إلى العمل، وعائدًا منه، وأنا أحدِّق في فراغ العدم. وسمعت أحمد ثانية: «إنَّ كوخ القصب لا يدرأ الزمهرير»، وكوخي من قصب. وسمعتُني أهذي وحيدًا، أقلق وحيدًا، وأجوع وحيدًا، وأتعذَّب وحيدًا.

وكان صوت أمِّي يأتيني أحيانًا وأرى طيفها بثوبها الأسود يحوم حولي، أسمعها ترتِّل كلامًا غير مفهوم، غير أنَّ كلمة اللَّه كانت تنبثق، عبر تيَّار التمتمات الغامضة، واضحةً مثخنةً بالرَّجاء. وشيئًا فشيئًا، يغيب طيف أمِّي وأنا أسمع صوتًا مجهولًا يقول لي: «دع أنكيدو يسير أمامك، فإنَّه يعرف الطَّريق وقد سلكه». كان أحمد سلك الطَّريق ويعرفه، كان أحمد انتحر.

هزَّتني أمِّي: ما الذي حدث لك يا بنيّ؟ كانت تجلس قبالتي، تحمل المبخرة بيدها وتبكي. ثمَّ راحت تتوسَّل إليّ، وترجوني أن أصلِّي، ليس من أجل أبي، بل كي أبرأ. كي يمدّ اللَّه لي يدَه وينجِّيني. وحينما يئستْ من ردِّي، تركتني.

سمعت خطواته في آخر اللَّيل، فحاولت الاستغراق في الكتاب الذي بين يدَيّ. لكنَّ صدى الكلمات التي أقرأها كان يستحيل إلى دبيب

خطى تقترب من الباب؛ دبيب يجعل معاني الكلمات عسيرة يصعب فهمها. رأيته منتصبًا في فتحة الباب، بثوبه الطويل ووجهه الأسمر الممتعض، وأنفه المعقوف كمنقار طير، وعينيه الواسعتين، واللّتين تنثران في فراغ الغرفة ضوءًا يشبه الغبار، الذي يخنقنا حينما تنفجر الحقيقة. وقف محدّقًا فيَّ صامتًا. أنا أيضًا حدّقت فيه بصمت. ثمّ صفق كفًّا بأخرى، وبصق بصوت عالٍ على الأرض، قبل أن يستدير ويصفق الباب خلفه. بعد نحو ساعتين، وإذ تأكّدت من نومه، وضعت الكتاب من يدي، أقصد وضعتك من يدي. هل كنتِ يومًا في يدي؟ خرجت من الغرفة ومشيت بهدوء كي لا أوقظ أحدًا؛ كي لا أوقظه هو تحديدًا.

رحت أمشي في الشارع إلى أن التهمني الظلام. أمشي وحيدًا في العتمة وأخاطبكِ. أرى عينيكِ في الظلام شاردتين وهما تصغيان. عيناك البعيدتان كحلم، تنظران إلى الفراغ وهما تصغيان إليّ. تصغيان إلى وجعي الرّتيب الكامن في الصّمت. كلّ هذا الصّمت المتواري في الصّمت الذي يلفّك، هو وجعي. أمدّ يدي لألمسك فترتجف. جسدي كلّه يرتجف. وتظلّ يدي معلّقة في الفراغ، لا تلامس إلّا الظلام الهشّ الذي يغمرها ببرودة تجعلني أبكي.

أمشي في اللّيل وأسقط في الامتداد الشاسع للألم؛ هذا الامتداد الأشدّ ظلامًا من موتي. أيّها الموت، لماذا لا تأتي؟ أنظر إلى السّماء ولا أرى سوى نجوم بعيدة. دومًا كانت السّماء بعيدةً، مثلكِ تمامًا. أمشي وأمشي ولا أسمع إلّا الصّمت، ولا أرى إلّا الصّمت، كمرثيّة تنتشر في كلّ الجهات بلا حدود، يطويها حداد أسود يهوي من السّماء ويشبه الظلام.

«دع أنكيدو يسير أمامك، فإنّه يعرف الطريق وقد سلكه». كان أحمد سلك الطريق ويعرفه، كان أحمد انتحر.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

أنصت إلى الصمت المعتم لعلّي أسمع صوتًا آخر. لم أسمع سوى هسيس اللّيل، وعواء ذئاب بعيدة. أنا أيضًا كنت أعوي، فليس ثمّة شيء يمكن لي فعلُه في الانتظار سوى العواء.

ثمّ ذاب الظلام، وانسفح على الأرض ضوءٌ أصفر سال من شمس بعيدة في أقصى الشرق. عدت أمشي. وحينما اقتربت من البيت حدّقت بلا مبالاة في المشهد.

كانت النيران تشتعل في كومة الكتب، وكان هو واقفًا إلى جانبها، يحرّكها بعصا. سمعت طقطقة الاحتراق بينما تهبّ النار من كلّ الجهات، وتقلّب صفحات كتبي. وكان الرّماد يتطاير، وألسنة اللّهب تتصاعد إلى السّماء حمراء، كما لو كانت دماءً.

بقيت متسمّرًا في مكاني أنظر إلى النيران المشتعلة في كومة الكتب. وحينما انتبه إليّ، سكب على الكومة مزيدًا من الوقود، فتصاعدت النيران زرقاء وحمراء، وتصاعد الدُّخان، وعلا ضجيج الطقطقة، وكان وجهه منتشيًا. رأتني أمّي، وأسرعت في اتّجاهي وهي تنادي أخي الكبير فهد كي يأتي. كان وجهها شاحبًا من شدّة الفزع.

بقيت أنظر ولا أحرّك ساكنًا. أراقب: إنّها تحترق. أراها تحترق. أسمع طقطقة احتراق أوراقها. أسمع الأوراق تتنهّد وهي تنكمش بسرعة وتستحيل إلى رماد، وهو يمسك عصًا ويقلّبها، ويسكب عليها مزيدًا من الوقود، فتطقطق بصخب، وتتنهّد بصخب، وتلتهب بصخب، وتستحيل إلى رماد بصخب.

اقتربت أمّي منّي ورجتني أن أدخل البيت، وشدّتني. رجتني ألّا أقترب منه. رجتني وتوسّلت أن أدخل البيت وأسلّم أمري إلى اللّـه، فهو الكفيل بحسابه. واستجبت لرجائها. مشيت إلى جانبها بهدوء وبلا مبالاة. لكنّني قلت لأمّي: «سأقتله». وحينما حاولت فعل ذلك منعوني، وبسهولةٍ

ـ فاجأتني ـ انتزعوا السكين من يدي. وعدت أقول لأمّي بصوت هادئ: «سأقتله حتمًا ذات يوم قريب... أو بعيد. سأحيا فقط كي أقتله».

هل وجدت في هذه الغاية التي نذرت حياتي لها في تلك اللَّحظات ذريعةً زائفة تبرّر الحياة، فلا أنتحر وأظلّ أنتظر عودتكِ... عودةَ الحياة ذاتها؟

أنا مريض بالانتظار، لهذا عدت إلى عمّان، وها أنا الآن جالس في هذه الغرفة التي بلا نافذة أنتظر ظهور نافذة في جدارها.

أسكب من الزجاجة التي أحسنت إليّ بها صديقتي مالكة الحانة حتَّى أصل إلى الكأس الأخيرة. تجرّعتها دفعة واحدة، وامتلأ فجأة رأسي بآلامه: أَدركوني! استجديت وأنا أحدّق في الفراغ.

وما لبثت أن رأيت امرأة تقف إلى جانبي، فقلت لها: اللَّعنة تعرف طريقها إليّ. لكنَّها لم تعبأ بذلك، وراحت تطرح عليّ الأسئلة. كان يصعب عليّ استيضاحُ ملامحِ وجهها. وكنت، وهي تطرح الأسئلة، أحاول أن أحدّد إن كانت المرأةَ التي استوقفتني، لسبب مجهول، أمام باب الغرفة ولم تشأ أن تطلق سراحي قبل أن أجيبها عن أسئلتها الكثيرة، أم أنَّها صديقتي مالكة الحانة، أم هي الطالبة الجامعيَّة التي كانت زميلتي ذات يومٍ في الجامعة، وكانت دومًا تحمل في يدها كتاب «النبيّ» لجبران خليل جبران، أم كانت امرأةً أخرى مجهوله الهويَّة؟

كان يصعب عليّ التحديد، لأنَّ جسدي كان يرتعد، والأشياءَ والأجسام من حولي تتحرَّك وتدور على نحو يصعب فيه استجلاءُ حدودها وسماتها. بيد أنَّ المرأة لم تُلقِ بالًا لحالي، واستمرّت تحقّق معي:

ـ مَن أنت؟ وما هو اسمك؟

«مَن أنا؟» هل أعرف من أنا؟ هل كنت أعرف يومًا من أنا؟

ـ ما الذي جاء بك إلى هنا؟ هل أنت غريب؟

ذكَّرتني كلمة غريب لسبب مجهول بكلمة أخرى: الغياب؛ لكنَّ المرأةَ، غائمةَ الملامح، فجأة طرحت عليّ سؤالًا آخر:

ـ مَن هم الذين تريد منهم أن يدركوك؟

وبينما هي تطرح هذا السُّؤال، رأيت جثَّةً متعفِّنةً لرجل عجوز عاش قبلي في هذه الغرفة، ممدَّدةً إلى جانبي، تنبعث منها رائحةٌ مقيتة. تحتّم عليّ أن أنهض فورًا وأهرب، على الأقلّ من جانبها، كي لا أختنق، لكنَّني كنت منهَكًا على نحو غريب، وقواي كلُّها منهارةٌ، حتَّى إنَّني ظننت أنَّ اللَّحظة التي كنت أتوقَّع حدوثها بين اليوم والآخر قد حدثت الآن: لقد سقطتُ، ولن أقوى على النهوض ثانية.

كان وجه الجثَّة مشوَّهًا بفعل الألم. بل إنَّه، لاستغرابي، كان لا يزال يتغضَّن ويتعذَّب كأنَّه لم يفارق الحياة بعد. وكانت العينان الجاحظتان المعذَّبتان، تمرَّان بي وهما تجولان في المكان بحثًا عن نافذة، إنَّما من دون جدوى، فقد كانت الغرفة بلا نافذة؛ بلا أيِّ نافذة. جدرانٌ صمَّاء شاحبة تنثال منها البرودة والرُّطوبة مثلما ينثال الصمت من الفراغ.

راودتني حينذاك فكرةٌ غريبة ومريعة: إنَّني الآن ممدَّد على الأرض في الغرفة ذاتها التي مات فيها رجل عجوز، ولولا الرَّائحةُ الكريهة التي أخذت تنبعث منها بعد يومين من وفاته، لما علم بأمر موته أحدٌ. تُرى، من أخبرني بذلك؟ نسيت.

جلت بعينيَّ في المكان بحثًا عن نافذة، إنَّما من دون جدوى، فليس ثمَّة نافذة. ولسبب ما، لم تُرعبني هذه الفكرة، بقدر ما بدت لي طريفة ومضحكة، بيد أنَّني لم أضحك. ظلّ الضحك محبوسًا في أحشائي يتلوَّى، وانفجر في

لحظة، وكدت أختنق به، كأنَّني كنت أتقيأه. كأنَّني؟ لقد تدفَّق الضحك فعلًا من معدتي، واندفع من فمي، وبلَّل وجهي، واندلق على الأرض مثل أيّ سائل لزج وعكر ومرير.

عادت المرأة التي كان يصعب عليَّ تحديدُ هويَّتها، تقول بضيق ونزق، من دون أن تلتفت إلى حالي:

- لم تُجب عن سؤالي: من هم الذين تريد منهم أن ينقذوك؟

قلت، وأنا أحدِّق في الفتحة التي تُفضي إلى الحمَّام: لا أعرف! ثمّ أضفت: أشعر بالظمأ الشديد. فقالت لي المرأة:

- اشربْ!

إنَّه ظمأ غريب. أشرب، وأظلّ أشعر بالظمأ.

نهضت بصعوبة شديدة، وما لبثت أن سقطت. ثمَّ كرَّرت المحاولة، وسرت مترنِّحًا، أستجدي من الجدار مساندتي كي لا أقع، إلى أن وصلت إلى المغسلة وتشبَّثت بها. كلّ شيء من حولي كان يلفّ ويدور ويدفع بي إلى السُّقوط. كلّ شيء. وكلّ شيء فيّ كان هشًّا وواهنًا، مثلَ روحي، ويرتعش. قدماي ترتعشان، ويداي ترتعشان.

- لماذا لا تجيبني؟ من هم أولئك الذين تريد منهم أن ينتشلوك؟! ألحّت المرأة عليّ بسؤالها.

اندفع خيط ماء رفيع بعد صراع مع مقبض الصنبور. وضعت رأسي تحته وشربت. لكنَّ حلقي ظلّ جافًا. تحوم فراشة صغيرة حولي، وعيناك تحدِّقان فيَّ، وأنا أحدِّق في العدم.

تهاويت ساقطًا عند باب الحمَّام، ولم أحاول النهوض. راق لي أن أبقى مكوَّمًا على الأرض. شكل من الوجود يشبه وجودي: مكوَّمٌ كأنقاض خرقة بالية.

عدت من مكاني أرى جثَّة الرجل العجوز تتلوَّى وتتأوَّه، ناشرةً في المكان رائحةً خانقة، بينما عيناها الجاحظتان لا تفتآن تجولان في الجدران بحثًا عن نافذة، إنَّما من دون جدوي. فقد كانت غرفته بلا نافذة. لقد مات وتعفَّنت جثَّته، ولولا الرائحةُ الكريهةُ لما كان علم بأمر موته أحدٌ. قتله السَّفَلة. كلُّهم ممثِّلون مزيَّفون. يجب أن أسافر من هنا. البقاء هنا كارثة. ثقي بذلك. لكنَّني أخشى التماسيح. فنظرت إليّ المرأة بدهشة كأنَّها سمعت ما قلت. هل كنت أنبح بصوت عالٍ؟

راودتني من جديد الفكرة الغريبة ذاتها: إنَّني الآن وحيدٌ، منسيٌّ، ومهجورٌ، أتعفَّن في هذه الغرفة التي بلا نافذة. لكنَّها كانت فكرة غريبة جدًّا، ولامعقولة، ويعجز العقل السَّليم عن تصديقها. ظلَّ جسدي ينتفض. ولم تكفّ المرأة عن التّحديق فيَّ، وأنا أحدِّق في العدم. تذكَّرت فجأة الكتابَ الذي كنت أراها تقرأه، وهي تجلس تحت شجرة من أشجار الجامعة. لكن، أهي ذاتُها الطالبةُ التي كانت تجلس تحت شجرة من أشجار الجامعة وتقرأ، أم أنَّها امرأةٌ أخرى استجوبَتْني بكثير من الأسئلة أمام باب غرفة، أم أنَّها صديقتي مالكة الحانة، أم هي امرأة أخرى؟ كان يصعب عليّ التحديد. لكنَّني كنت واثقًا بأنَّ الكتاب الذي تقرأه كان كتاب «النبيّ» لجبران خليل جبران. قلت لها: «جبران لم يعجبني في هذا الكتاب. يبدو لي أنَّه حاول فيه تقليد نيتشه. بيد أنَّه كان أقلّ عمقًا من الأخير. سأعترف لكِ بكلّ بصراحة: لقد بدا لي ساذجًا!»

غضبتْ وانفعلتْ، وتفوَّهتْ بكلام لم أُصغ إليه. لم يهمّني رأيها فيما قلت، لأنَّ ذهني انصرف على الفور يفكِّر في الذباب. كان كثير منه قد حطَّ على جثَّة الرجل العجوز، وراح يزنّ ببهجة وهو ينهشها. فكَّرت أيضًا في أنَّ الذباب، ما إن ينتهي من جثَّة الرجل العجوز، حتَّى يهجم عليّ، «لهذا، لا بدّ

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

من الهرب». لست أدري إن كنت نطقت هذه الفكرةَ بصوت عالٍ فسمعته المرأة، لأنَّها سألتني: «هل من مكان تهرب إليه؟» فلم أستطع الإجابة. كان ذهني مشوَّشًا إلى درجة أنَّ كلَّ الأماكن وكلَّ البلاد التي فكَّرت في السَّابق مرارًا في الهرب إليها، ضاعت من ذاكرتي. فجأة، اكتشفت أنَّ العالم ضيِّق وصغير، بحجم غرفة ليس لها نافذة، ولا مفرّ منه إلَّا إلى الموت.

تركتْ هذه الفكرةُ في نفسي أسًى كأنَّما حفرت فيها جرحًا آخر. ونكأت كلمةُ «جرح» أوجاعًا غامضة في داخلي، فانطلق منها أنينٌ أجفل جثَّة الرجل العجوز، فتأوَّهتْ وتلوّتْ، على نحوٍ جعل الذباب يفرّ عنها للحظة.

«لماذا تئنّ؟» سألتني المرأة التي ما زلت لا أستطيع تحديد هويَّتها. فقلت: وجهي موسوم بالنُّدُب. ثمَّة نُدُبٌ محفورة في كياني، تؤلمني.

ثمَّ تذكَّرتُ فجأة ـ من دون أن أستطيع التَّحديد، إن كان ذلك حدث لي اليوم أم في يوم آخر، إذ بدا لي أنَّ زمنًا طويلًا بات يفصلني عن هذا الحدث ـ أنَّ ثمَّة شابًّا، لصًّا وضيعًا، اعترض طريقي وطلب منِّي أن أعطيه دينارًا «خاوة!»، وسرعان ما اكتشفت أمرًا مذهلًا: أنَّ الندبةَ التي رأيتها على وجه الشابّ، اللّصّ، كانت على وجهي أنا، وأن عينيه كانتا عينَيّ أنا، وأنَّ وجهَه النَّحيل كان وجهي أنا! أنا المجرم الوضيع الشَّقيّ، الذي طلب من الحياة دينارًا، خاوة... وحصل عليه؛ أنا من اغتصب عائشة وقتلها، وأنا مَن كان ينتظر انتحار أحمد!

عيناكِ تحدِّقان فيَّ، وأنا أحدِّق في العدم.

«يا إلهي! هل تخبرني بما حدث لك؟» انبثق هذا السُّؤال المخيف، من دون سابق إنذار، من قاع هوّة سحيقة، وانتصب أمامي كساطور يوشك أن يهوي على رأسي.

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

«هلّا أخبرتني بما حدث لك؟» كرّرتِ المرأةُ طرحَ السُّؤال بإصرار غريب، فرفعت نظري إليها مذهولًا، ليس من السُّؤال فحسب، بل لأنّني أيضًا عزمت على القيام بمحاولة جادّة لتحديد هويّتها، وإن كانت هي المرأةَ التي استوقفتني لسبب ما وراحت تحقّق معي أمام باب غرفة، أم أنّها مالكةُ الحانة، أم طالبةُ الجامعة.

ولم أعرف، وأنا أحدّق فيها، إن كانت عائشة أم أنتِ؟ بدا لي أنَّ الوجهَ هو ذاتُه. وجهك هو ذاته وجه عائشة. ثمّ، لم أعد أرى شيئًا. كلّ الأشياء والأجسام التي كانت تدور، أخذتني على حين غرّة معها إلى قلب دوّامة، كأنَّ الساطور هوى على رأسي، فتهاويتُ، وما لبث أن غمرني ظلام سحيق، تلاه سكون انتشر ببطء في جسدي النَّحيل، وفي روحي، كما ينتشر إحساس غامض وشهيٌّ بالطمأنينة: طمأنينةِ السُّقوط والاستسلام التَّامّين. ولعَنْتُكِ في هذه الطمأنينة من كلّ قلبي، وتمنّيتُ لو كان في وسعي أن أجرّكِ إلى الموت معي.

❖❖❖

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

النّهار الثّاني عشر

حينما أفقت، كانت السّاعة تقارب الثانية ظهرًا. لم أفهم على الفور أين أنا. بقيت للحظات أنظر في أرجاء الغرفة من دون أن أفهم أين أنا. هناك ملابسُ معلّقة على مسمار في الحائط، وعلى الأرض زجاجةُ عرق فارغة، وزجاجة ماء. وثمّة بقعةُ قيء تنبعث منها رائحة كريهة. رأسي يؤلمني ويصعب عليّ التركيز. بدت لي حالتي طريفة: لا أعرف ولا أفقه أين أنا: في الواقع، أم في كابوس؟ لكنّني، في الوقت ذاته، أفهم جيّدًا أنّني عاجز عن الفهم!

ثمّ فجأة، تذكّرت: إنّني في غرفتي التي بلا نافذة.

بدا لي الأمر طريفًا لسبب ما، فضحكت. حاولت النهوض، غير أنّ قوايَ جميعَها كانت هجرتني. كنت جثّةً مفتوحةَ العينين، ترى وتسمع، وربّما تفهم أيضًا، لكنّها جثّة. هذا ما إلتُ إليه. تطفو في ذهني أشباحُ أفكار عن مدرسة وطلّاب يجب أن أدرّسهم، ومديرٍ يستشيط غضبًا بسبب غيابي المتكرّر عن الدوام، ومبالغَ مخصومةٍ من راتبي، وديونٍ متراكمة، وجَيبٍ ليس فيه قرش، وشهرٍ لا يزال بعيدًا عن آخره. تشدّني أشباح هذه الأفكار إلى النهوض، وجسدي يرفض الاستجابة.

نهضتُ في آخر النهار. وجدت نفسي في الشارع، أمشي. لم أمرَّ في حياتي في بؤس كهذا. استعرضت قائمة أصدقائي القدامى ومعارفي، باحثًا عن واحد بينهم يُقرضني النقود. لا أحد. كلُّهم ينتظرون أن أعيد إليهم نقودهم التي استدنتها سابقًا. فكَّرت في أن أشرح على الأقل لواحد منهم، أنَّه لولا ظروفي الطارئة، وتشرُّدي في الفترة الماضية، واضطراري إلى العيش في فندق مدَّةً تقارب الشهر، لما كنت على هذه الحال الآن. لكن كلمة «طارئة» أرعبتني، لأنَّها كانت تعني ضمنًا، أنَّني الآن مستقرّ في هذه الغرفة.

مكتبة أحمد

لو أنَّك تعودين! مشيت محدِّقًا في الفراغ من دون أن أكفّ عن الثرثرة مع نفسي، ولم أستطع في ثرثرتي التوقُّفَ عن الوهم والانتظار. اجتزتُ جبل عمَّان، ومعدتي تتلوَّى من الجوع، وقواي منهَكة.

قرَّرت التوجُّه إلى طلَّاب الجامعة الذين كنت أساعدهم في العام الماضي في كتابة الأبحاث. لا بدّ من أن يشفقوا عليّ ويقرضوني بعض المال، فأردّه إليهم في نهاية الشهر.

كانوا يقيمون قريبًا من الجامعة، ولا بدّ من أن أمشي مسافة طويلة كي أصل إليهم. ها أنا مثل أيّ حيوان أنهكه الجوع ويبحث عن لقمة. أتمنَّى ألّا أبحث عنها قريبًا في الزبالة. أفضّل أن أبحث عنها في الزبالة على أن أعود إلى بيت أبي.

ويجول في بالي خاطرٌ مرٌّ: تُرى، لو أنَّني لم أقرأ كتبًا، ولم أختلف عن أبي، وبنيت في جوار بيته، بيتًا صغيرًا، وتزوَّجت فيه...؟ أجل، أجل! لو أنِّي تزوَّجت فيه من عائشة، فلم تَمُتْ لا هي ولا الجنين الذي زرعتُه فيها، لو تزوَّجتُ منها وانسجمت مع ذلك الحيوان الذي في داخلي، تُرى، هل كان ثمَّة فارق؟ لعلّي كنت الآن سعيدًا! لا أدري ما جدوى عذاباتي الآن بعد أن

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

رفضت ذلك كلّه؟ هل ثمّة فارق بالنسبة إلى هذه المسرحيّة المهزلة: أيّ دور أؤدّيه فيها؟

وصلت إلى دوّار المدينة الرّياضيّة، ورحت أسير في خطّ مستقيم في اتّجاه الجامعة.

دخلت الأحياء المقابلة للجامعة، ووصلت أخيرًا إلى شقّة بعض طلّاب الدّراسات العليا. طرقت الباب، فلم يفتحه أحد. طرقته مرارًا. انتظرت أمام العمارة ساعة ولم يحضر أحد، ثمّ ساعة أخرى، وأخرى.

ترتجف أطرافي من البرد. لماذا لم أستسلم لقطار حياتهم اليوميّ بكسل لذيذ، وبغفوة أخشى الاستيقاظ منها؟

عمّ الظلام، وقرّرت أن أنتظر مزيدًا من الوقت، إنّما عبثًا. تذكّرت، في لحظة ما انبثقت من اليأس، أنّ اليوم هو الخميس، وأنّهم حتمًا عادوا إلى أهاليهم.

كيف أعود إلى غرفتي؟ مشيت إلى أن خانتني قواي.

أينكِ؟

❖❖❖

مكتبة أحمد telegram @ktabpdf

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

اللَّيلة الثَّانية عشرة

توقَّفت تحت جسر الجامعة، فقد بدا لي أنَّ الهواء هناك أقلُّ برودة، وفي وسعي أن أمضي اللَّيلة تحته. كنت فقدت كلّ طاقتي، وبتُّ عاجزًا عن المشي. ها أنت تذبل وتذوي، وستسقط عمًّا قريب. ومع ذلك، لا تكفّ عن الانتظار. يا للمهزلة.

يحرّك مرور السَّيَّارات السَّريعُ الهواءَ فيلفحني ببرودته القارسة. أهرب من تحت الجسر. أجلس تحت شجرة. أتخيَّل مَرَقة دجاج ساخنة، أو شايًا ساخنًا يتصاعد منه البخار، مع بعض الخبز. ثمَّ أكتشف أنَّ هذه الخيالات تفاقم عواء معدتي؛ تفاقم الصداع. أفكّر في أنَّ التعفّن الذي يصيبنا في بطن هذا العالم، لا يحتاج إلى درجة حرارة دافئة، إذ يمكن لنا أن نتعفَّن ونحن نتجمّد بردًا. ألَّا تظنّ ذلك؟ أسأل نفسي. أسأل أحمد. أسأل مازنًا. لكنّ مازنًا لم يكن من الذين يتعفَّنون. بلى. إنَّه يتعفَّن أيضًا. لكنَّه يتعفَّن على نحو أنيق. أنا أيضًا أريد أن أتعفَّن على نحو أنيق: تغزوني طبقة عفن بيضاءُ، وتقضمني دودات جميلات بيضاء. أحبّ الدودات الجميلات البيضاءَ. سأملّس عليها بحنان وهي تأكلني. تؤلمني تشنُّجات معدتي وهي

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

تتلوَّى. أفكّر في أنَّ هذه التَّشنُّجات هي ذاتُها تشنُّجاتُ بطن هذا العالم، وهو يحاول قذفي من مؤخّرته. لم يبقَ سوى القليل، ثمَّ أخرج من فتحة شرجه على شكل مجموعة عظام يابسة ومتصلّبة من شدَّة البرد والجوع. يداي ترتجفان. كلّي أرتجف، ومعدتي تئنّ. يمكن توليف مقطوعة موسيقيَّة من صوت اصطكاك أسناني، وقرقعةِ مصاريني، وتلك الحشرجةِ الجافَّة الناتجة من فرك يدَيّ، إحداهما بالأخرى. أريد أن أنام. أريد غرفة بلا نافذة؛ غرفتي؛ بيتي! لكنَّ البرد يعصف بي، وقواي واهنة، وأنا متشرّد في الشارع وأتضوَّر جوعًا، ولا أملك قرشًا واحدًا في جيبي، ولا أستطيع الوصول إليها.

متى ستعودين؟

اللّعنة تعرف طريقها إليّ.

❖❖❖

النّهار الثّالث عشر

لا أحبّ العصافير. لا أدري لماذا تزقزق، ولماذا يتغزّل الشُّعراء بزقزقتها. لكنّ الشّمس جيّدة. إنّها أفضل من الظلام. الشّمس أفضل من الظلام، فالظلام بارد والشّمس دافئة. هذه حقيقة يصعب نفيُها.

متى سأصل؟ اشتقت إلى العجوز الميّت الذي يقيم معي بالغرفة. ترى، كيف أمضى ليلته من دوني؟ أريد أن أتبوّل. أقف عند جدار وأتبوّل. يا للمتعة. إنّ التبوُّل على جدار لا يزال قائمًا ويسكن خلفه أناسٌ ما، أشدُّ متعةً من التبوُّل على الأطلال، يا أحمد. تتخيَّلهم ينامون في أسرّتهم الوثيرة والدّافئة، وتتبوّل عليهم جميعًا. اللّعنة عليهم جميعًا. أولاد القحبة. كلُّهم منافقون. كلُّهم سَفَلة. إنَّهم الآن يقطعون رؤوس خراف أخرى، خراف إنسانيّة، فثوابها هناك أجدى. أنت وحدك الشُّجاع.

توقّف أحد المارة ونظر إليّ باستغراب. إذن، كنت أنبح بصوت عالٍ!

أريد أن أصل. أريد طعامًا. من قال إنَّ وجودي في هذا العالم ليس سيّان؟ ها أنا على وشك أن أموت الآن من الجوع على قارعة الطريق مثلَ حشرة من دون أن ينتبه إليَّ أحد؛ من دون أن يحدث أيّ خلل في

هذا العالم؛ من دون أن تتوقَّف الحياة أو تطلق تنهيدة ندم. يطعنني أسًى جسيم.

أمشي. إنَّ المشي يشكِّل تحدِّيًا، يا صديقي العجوز. أنت تتعفَّن هناك، لكنَّك لا تبارح مكانك، أمّا أنا، فيتوجَّب عليّ أن أمشي في أثناء تعفُّني، وأن أفكِّر في كلّ هذه التفاهات التي أعتقد أنَّها مهمَّة.

حينما وصلتُ إلى غرفتي التي استأجرتها في أحد الشوارع الفقيرة في جبل عمّان، كانت لا تزال بلا نافذة. وكان العجوز، الذي مات فيها، لا يكفُّ عن أن يتعفَّن.

قال لي ما إن دخلت:

ـ لقد كنت تريد لأبيك أن يحرق كتبك!

«أظنّ ذلك!» أجبته.

ـ لماذا؟

ـ كنت أريده أن يرتكب هذه الجريمة، فأصدِّق أنَّني لست هو.

ـ أنت تكذب. لقد قدَّمت إليه الكتب كي يحرقها لأنَّك كنت تريد التخلُّص منها. لقد أثقلك حملها من مكان إلى آخر، في الوقت الذي لم تقدِّم فيه إليك شيئًا سوى أسئلة أخرى تقودك إلى طُرُق مسدودة. لقد اكتشفتَ لاجدوى المعرفة أيضًا.

ـ أتظنّ ذلك؟

ـ أنا واثق بذلك. لو كان الأمر غير هذا لكنت قتلته حينما رأيته يحرق الكتب، بيد أنَّ ثمَّة شيئًا ما في داخلك راح يضحك، ويقول لك: ربَّما الآن تنجو!

«هذا صحيح. لم أقتله»، وأغلقت على نفسي الباب ورحت أضحك، ثمّ عدت أنتظر النجاة.

❖❖❖

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

اللَّيلة الثَّالثة عشرة

رأيتُني في غفوتي مسجونًا وحدي، في غرفة بلا نافذة. أفقت ورأيتُ أبي ينقضُّ عليّ، فأتلوَّى ولا أقوى على تحرير نفسي من قبضته. هل مرَّ يوم لم أتلوَّ فيه، في قبضته؟

«أنت تتلوَّى من الجوع»، قال لي العجوز، ثمَّ سألني: لماذا لا تنتحر؟

ـ لا أدري.

ـ هذا يعني أنَّه لا يزال لديك أمل؟

ـ لا أدري.

ـ يجب أن تكفّ عن الانتظار، فلن تحدث نافذة في الجدار.

عيناكِ تحدّقان فيَّ، وأنا أحدّق في العدم.

❖❖❖

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

النّهار الرّابع عشر

تَغِيم الأشياء أمام ناظرَيّ، فلا أراها جيّدًا. أخشى أن أسقط على الأرض في أثناء مشيي. أخشى أن يراني أبي وأنا أسقط. أتهاوى جالسًا على حافَّة الرصيف. أنظر حولي، فربَّما أعثر على شيء آكله. لا شيء. لماذا يكنسون الشارع جيّدًا هنا؟ يعزّ عليّ أن أنبش حاوية الزبالة. لن أفعلها حتّى لو متُّ. «أنت لن تنتحر لأنَّك جبان يا صديقي، وليس لأنَّ لديك أملًا!» أسمع مازنًا يقول لي.

فأجيبه: أمَّا أنت، فعجزت عن التّضحية، التي كان من الممكن أن تجعل منك إنسانًا. أثبتَّ أنَّك ابنٌ مخلص لهذه الحياة التي بلا قلب وبلا عقل. كنتَ تعرف أنَّ صديقك سينتحر، لكنَّ نقودك عزَّت عليك. كانت أغلى من حياته.

رأيتُ فجأة شخصًا يقف أمامي. فهمت بصعوبة من هو: شرطيٌّ. سألني: «من أنت؟ ومع من تتحدَّث؟» أدركت أنَّني كنت أخاطب مازنًا بصوت مسموع. قلت للشرطيّ إنَّني ممثّل مسرحيّ، أتدرَّب على الدَّور الذي كلَّفوني به.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

ـ لكنَّك تبدو كمتشرِّد.

قلت له إنَّ مظهري هذا، هو من مقتضيات الدَّور، ذلك بأنَّني أؤدِّي دور متشرِّد بائس وحكيم، وقد خرجتُ من التمارين، التي تجري قريبًا من هنا لأستنشق الهواء.

طلب الاطِّلاع على بطاقتي الشَّخصيَّة فقدَّمتها إليه. تمعَّن فيها، وسألني عن قريتي:

ـ أأَنت من هناك؟

أكَّدتُ له المعلومة، فضحك، ثمَّ قال بتعجُّب: «ظننتُ أنَّ الممثِّلين هم فقط من أبناء المدن».

أعاد إليَّ بطاقتي الشَّخصيَّة، وحينما استدار، استوقفته قائلًا: أنا جائع جدًّا، ولا أملك المال.

فصمتَ، ثمَّ أعطاني عشرة دنانير! يا للسعادة.

❖❖❖

اللَّيلة الرَّابعة عشرة

شربت في حانة في وسط البلد حتَّى ثملت، وخرجت من هناك بعد أن اشتريت، بما تبقَّى لديّ من نقود، زجاجةَ عرق أخرى. كنت أضعها في جَيب سترتي الدَّاخليّ. لفت انتباهيَ في الشَّارع بعضُ الأشخاص الذين يؤشّرون إلى سَيَّارات أجرة. استهواني الأمر، فرحت بدوري أؤشّر إلى السَّيارات. توقَّفت سيَّارة أمامي، وقال لي السَّائق، «تفضَّل، اركب بسرعة». لم أعرف لماذا يجب عليَّ أن أركب، وأن أفعل ذلك بسرعة. لكنَّني رضخت لأوامره، وركبت. «إلى أين؟» سألني، فقلت: «إلى غرفتي». وشعرت بالسَّعادة والامتنان الشديد له، لأنَّه قال لي: اركب، ويريد أن يقلَّني إلى المكان الذي أشاء. واكتشفت أنَّ العالم ليس سيِّئًا كما كنت أعتقد. كان السائق ينظر إليَّ عبر مرآته، وعاد يسألني: «وأين هي غرفتك هذه؟» تذكَّرت، حينذاك، أنَّني لا أريد العودة إلى تلك الغرفة، ورحت أفكِّر إلى أين يمكنني الذَّهاب، والسَّائق يلحّ عليَّ بالسُّؤال، وأنا أقول له مرَّةً أن يتَّجه إلى اليمين، ومرَّةً إلى اليسار، لعلّي أعرف، في أثناء ذلك، إلى أين يسعني الذهاب. كنت لا أستطيع الكفّ عن الابتسام، فقد كان العالم جميلًا، تقلّك فيه سيَّارةٌ،

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

ويسألك سائقها: إلى أين؟ اللَّيل أيضًا كان رائعًا، هادئًا كبحر. لكم تمنَّيت لو تكونين معي كي تنظري بعينيك إلى ذلك كلِّه. لست أدري لماذا اختفيتِ. لكنْ، لا بأس. سنتحدَّث عن ذلك لاحقًا، حينما نلتقي.

«إلى أين أتَّجه؟» سألني السَّائق بغيظ لم أعثر له على سبب، فاعترفت له أخيرًا بالحقيقة: لا أدري. فقال لي: حسنًا، أعطني الأجرة واخرج.

قلت إنَّني لا أملك النقود. انطلق حينها مسرعًا، ووصل إلى مبنًى، فهمت حينما دخلناه أنَّه مركز للشُّرطة. أولاد القحبة. فتَّشوني وأخذوا منِّي زجاجة العرق. والسَّائق جلس على كرسيّ، وكاد يبكي حينما اقتنع بأنَّني لا أملك نقودًا. لم أفهم لماذا لم يصدِّقني فورًا، وجاء بي إلى هنا كي يفتِّشوني. وضعوني في الزنزانة. حاولت أن أقنعهم بأن يعيدوا إليَّ الزجاجة، لكنَّهم راحوا يتحدَّثون معي بفظاظة ويشتمونني. قلت لهم إنَّني لولا هذه الحربُ لكنت في مكان آخر، فسألني أحدهم وهو يغلق الزنزانة: أيُّ حرب؟

ـ تلك التي تدور رحاها منذ القِدَم، ألا تدري عنها؟

ـ لا أدري أيَّ حرب تقصد.

طلبت منه أن يسكب لي كأس عرق واحدة، فنظر إليَّ من خلف القضبان، وقال لزميله:

ـ يبدو أنَّه مجنون.

❖❖❖

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

النَّهار الـ...

غرفتي مليئة بالفراشات الصَّغيرة. كلُّها تحوم حولي. أمّا جثَّة العجوز، فمليئة بالدود والذباب. لكنَّه، على نحو ما، مضحك وطريف، لا يكفّ عن أن يهشّ بيده ذبابة واحدة تقف على أنفه. يفعل ذلك بملل. أكاد أنفجر من الضحك. ثمَّ أكتشف فجأة أنَّه ميِّت، فأصرخ بأعلى صوتي. أطرق الجدران بيدَيَّ، وأصرخ.

❖❖❖

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

اللَّيلة الـ...

أريد أن أتوقَّف عن المشي في الغرفة. لقد تعبت قدماي، وأنا جائع. ورائحة الطعام المخلوطةُ برائحة المجاري تزكم أنفي. أقول للعجوز:

«لو تكفّ هذه المرأة عن الغناء»، فيجيبني:

ـ إنَّها لا تغنّي، بل تطرق الباب.

وينشب جدال بيننا، ثمَّ يخبرني العجوز بأنَّه لا يمكن لي أن أسمع عبر النافذة صوتَ امرأة تغنّي، لأنَّ هذه الغرفة بلا نافذة. أنظر إلى الجدران وأكتشف أنَّها فعلًا بلا نافذة.

أتوقَّف وأسأل العجوز:

«هل تعرف كيف يصطاد الوهمُ ضحاياه؟» فيقول لي:

ـ بالنّقّيفة!

ثمَّ يكشّ الذبابة التي تصرّ على الوقوف على أنفه، فأضحك. أكاد أنفجر من الضحك.

سيدمِّرني هذا العجوز، والفراشاتُ أيضًا. إنَّها تحوم حولي بلا توقُّف، أخشى أن تحطّ إحداها على أنفي فتسقط قطرة الماء عليّ وأنكسر. يُرعبني ذلك، فأهرب. ألوذ منها بزوايا الغرفة من دون أن أهشّها عنِّي، لكنَّها تلاحقني، وتكاد تنجح. أصرخ.

❖❖❖

النَّهار الـ...

أحدّث العجوز عن طفولتي التي أمضيتها في بابل، فيسألني بدهشة وحسد:

ـ أكنتَ تعيش في بابل؟

ـ أجل.

ـ ماذا كنت تفعل هناك؟

ـ كنت متشرِّدًا أبيع المناديل الورقيَّة عند الإشارة الضوئيَّة للبابليِّين، لكنَّ جلجامش أشفق عليَّ، فصرت خادمَه. أحمل له سلَّة الأسهم، وأرافقه في معاركه التي يخوضها في أثناء رحلاته من أجل الخلود. وكنت أيضًا أتابع أخبار أنكيدو بعد موته، وأمدُّه بها. كنت أتابع مراحل تعفُّنه. لكنَّ تلك الأدوار كلَّها كانت مزيَّفة. كانت غطاءً كي لا أنكشف أمام جلجامش.

ـ أكنت تكذب عليه؟

ـ أجل، ففي واقع الأمر كنت أحوك مؤامرة ضدَّه، ونجحت. لقد نجحت، لكنَّ أحدًا لا يعرف عنها شيئًا. لقد أخفيت هذا السِّرّ طويلًا.

وخفضت صوتي وهمست في أذن العجوز:

ـ لقد كنت أنا من سرق زهرة الخلود، وليس الأفعى!

فنظر إليَّ العجوز بعينين زائغتين من شدَّة دهشته:

ـ وأكلتَها؟!

فهزَّزت رأسي علامةَ الـ «نعم».

قال لي بنبرة لا تخلو من الغيرة والحسد:

ـ أنت خالد إذن؟

ـ أجل، أجل! لم أخبر أحدًا بهذه الحقيقة من قبل. أنت الوحيد الذي أفصحت لك عنها.

ورحت أضحك من فرط فرحي وسعادتي.

أنا جائع.

❖❖❖

اللَّيلة الـ...

العجوز أيضًا كان، مثلي، منزعجًا من هذا الطَّرْق اليوميّ على الباب. قلت له إنَّ ثمَّة إحساسًا غامضًا ينتابني بأنَّنا مطارَدان. وقلت أيضًا، إنَّه يجب علينا أن نشتري سفينة وبعضَ الأسلحة، كي نهرب من هنا. المهمّ ألّا تعاندنا الرِّياح، فأجابني، وهو مستمرٌّ في مسلسل صراعه مع الذُّبابة التي تصرّ على أن تحطّ على أنفه، بأنَّ كلَّ ما يحلم به هو كسرةُ خبز.

وقفت وصرخت: هل ثمَّة أحد؟ لا أحد. ناديت بصوت أعلى: هل ثمَّة أحد؟ لاِ أحد يجيب. أنا واثق بأنَّ هناك من يطاردنا.

غرفتي مليئة بالفراشات الصَّغيرة. انفتح الباب فجأة ودخلت منه مجموعة أشخاص، فارتعبت ولجأت إلى الزاوية. لقد جاؤوا. كنت دومًا على يقين بأنَّني مطارَد. ألم أخبرك بذلك؟ قلت للعجوز، فراح يضحك وهو يسخر من خوفي. قال لي إنَّ من السُّخف أن أخاف، فاستجمعت شجاعتي ورحت أجيب عن الأسئلة التي كانوا يوجِّهونها إليّ. هل تعرف من أنت؟ سألني أحدهم، وبدا هذا السُّؤال غريبًا، كأنَّني سمعته من قبل. ثمَّ تذكَّرت فجأة، وشرحت لهم أنَّني كاتب عظيم وخالد، وأنَّ اسمي سيحظى بقدسيَّة

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

حتَّى أبد الدَّهر، وأنَّ كتابي يختمر الآن في المرحاض، وأنَّ اسمه «تغوُّط»، وأنَّ الذين قرأوه أبدوا إعجابهم الشديد به. لم يصدِّقني أحد منهم. بعضهم راح يضحك. لم أجد ما هو مضحك في الأمر، لكنَّني ضحكت معهم من قبيل التواضع والمجاملة. ثمَّ لم أفهم لماذا ألبسوني قماشًا أبيض، له كمّان طويلان، أدخلوا فيهما يدَيّ وربطوهما خلف ظهري.

أينكِ؟

سألت أحدهم لماذا لا تتَّصلين، فقال لي إنَّك مشغولة، وستَّتصلين في القريب العاجل، لكنَّك اشترطت أن أذهب معهم كي تتمكَّني من الاتِّصال! وبعثتْ فيَّ إجابتُه راحةً عميقة، وثقةً بهم، فمضيتُ معهم.

حينما خرجنا، لوَّح لي العجوز بيديه الهزيلتين الباردتين واللَّتين التهمهما العثُّ كثوب عتيق. دُهشت، وأنا ألوِّح له أيضًا، لأنَّه كان يلوِّح من خلف تلال بعيدة... بعيدة للغاية، ويغمرها ضوء شاحب يكاد ينطفئ.

سألني أحدهم حينما جلسنا في السَّيَّارة:

ـ مَن هي تلك التي تنتظر اتِّصالًا منها؟

فلم أفهم عمَّا يتحدَّث. وخشيت في لحظة أنَّه يقصد عائشة. فرجوته إن فعلت واتَّصلت، أن يجيبها بأنَّني لست موجودًا. فراحوا يضحكون. لم يعجبني ضحكهم، فصمتّ.

وَمَضَ في ذهني في لحظة مشهدٌ لامرأة تغنِّي لشجرتَي ليمون عند نافذتها. ومع أنَّ أغنيتها كانت طافحة بالهراء، غير أنَّ هذا المشهد بعث في نفسي حزنًا فظيعًا، لسبب غامض، فلم أقوَ على مقاومة دموعي، ورحت أبكي، وأنتحب مثلَ طفل.

مكتبة أحمد
telegram @ktabpdf
تابعونا على فيسبوك جديد الكتب والروايات

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

في صباه، كان بطل الرواية يجلس على عتبة باب غرفته الخارجيّ، ينظر إلى الفضاء والتلال البعيدة، يقتات على الكتب، ويتخيَّل أن لا شيء يُعيقه عن القفز خلف تلك التلال للبحث عن مغزى كلٍّ من الحياة والخلود، لكنَّه لا يصادف مع صديقيه أحمد ومازن، سوى الفقر والجوع والكوابيس... وحافّة الجنون.

كفى الزعبي: كاتبة أردنيَّة، «شمس بيضاء باردة» هي روايتها السادسة.

مكتبة ٣٥٠